جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

العقيدة عام (1)

IAQD2013

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008

المحتويات

الـــــــدرس الأول	:	تعريف توحيد الرُّبوبيَّة وأدلته بالفطرة والخلق والعقل وبيان أنه برهان على استحقاق الرَّبِّ وحده للرُّبوبية كلها	٧- ٣٦
الــــدرس الثـــاني	:	المراد بالشرك في الربوبية وندرة القائلين بتعدد الآلهة	٣٧- ٥٧
الــــدرس الثالــث	:	بيان أن اعتقاد أهل الحلول والاتحاد من الشرك في الربوبية وبيان بطلانه ونقضه	٥٩- ٧١
الــــدرس الرابـــع	:	بيان ما هو الإلحاد قديما وحديثا وإبطاله على ضوء الكتاب والسنة	٧٣- ٨٦
الــــدرس الخـــامس	:	معنى التوحيد وأنواعه وبيان أهمية توحيد الألوهية وأدلته	٨٧- ١٠٩
الــــدرس الـــسادس	:	العبادة وشرط قبولها وذكر جملة من أفرادها	١١١- ١٢٤
الــــدرس الـــسابع	:	من نواقض التوحيد: الشرك: تعريفه وأقسامه وأفراده	١٢٥- ١٥٠
الــــدرس الثـــامن	:	الشرك أسبابه وحكمه وخطورته	١٥١- ١٧٥
الــــدرس التاســـع	:	الرد على الشبهتين الأولى والثانية في تعلق الغلاة بالشرك	١٧٧- ٢٠١
الــــدرس العاشـــر	:	الرد على الشبهتين الثالثة والرابعة في تعلق الغلاة بالشرك	٢٠٣- ٢٣٢
الدرس الحادي عشر	:	الرد على الشبهتين الخامسة والسادسة في تعلق الغلاة بالشرك	٢٣٣- ٢٥٦

الدرس الثاني عشر : الرد على الشبهة السابعة في تعلق الغلاة بالشرك ٢٥٧- ٢٦٨

الدرس الثالث عشر : من نواقض الإسلام : السحر ٢٦٩- ٢٨١

الدرس الرابع عشر : من نواقض الإسلام عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم ٢٨٣- ٣٠٥

الدرس الخامس عشر : من نواقض الإسلام بغض شيء مما جاء به الرسول أو أن هدي غيره أفضل منة هديه ٣٠٧- ٣٢٩

الدرس السادس عشر : من نواقض التوحيد الاستهزاء بشيء من دين الرسول أو الاعتقاد بأن بعض الناس يسعه الخروج على شريعته ٣٣١- ٣٥٦

الدرس السابع عشر : الإعراض الكلي عن دين الله تعالى أو عما لا يصح الإسلام إلا به ٣٥٧- ٣٧٠

الدرس الثامن عشر : إمكان وقوع نواقض التوحيد من المعينين وتكفيرهم بذلك ٣٧١- ٣٨١

قائمة المراجع العامة : ٣٨٣- ٣٨٧

تعريف توحيد الرُّبوبيَّة -وأدلته بالفطرة والخلق والعقل- وبيان أنه برهان على استحقاق الرَّبِّ وحده للرُّبوبية كلها

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	معنى الرب، واختصاص الله تعالى بأنه رب العالمين	٩
العنصر الثاني	:	المراد بتوحيد الربوبية	١٣
العنصر الثالث	:	الأدلة النقلية السمعية	١٨
العنصر الرابع	:	الأدلة العقلية العيانية	٢٣
العنصر الخامس	:	المراد بالفطرة	٢٦
العنصر السادس	:	توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية	٢٨
العنصر السابع	:	هل يكفي توحيد الربوبية للدخول في الإسلام؟	٣٣
العنصر الثامن	:	هل ينقذ توحيد الربوبية من الشرك؟	٣٥

معنى الرب، واختصاص الله تعالى بأنه رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمدٍ المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله، وصحبه، والتابعين، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين. أما بعد:

فقد ذكرنا ما يتعلق بالنوع الأول من أنواع التوحيد هو: توحيد الألوهية، الذي هو أعظم أنواع التوحيد.

أما النوع الثاني من أنواع التوحيد هو: توحيد الربوبية الذي كان مشركو العرب في الجاهلية مقرين به، وهو الاعتقاد بأن الله هو رب هذا الكون وخالقه، ومدبره، ورازق المخلوقات التي تعيش فيه، فسيكون حديثنا حول هذا النوع من التوحيد من خلال تعريف توحيد الربوبية، وبيان معنى الرب، واختصاص الله تعالى بأنه رب العالمين.

ففي (مختار الصحاح): يقال: "رَبَّ ولده من باب ردَّ، وربّبه، وتربّبه بمعنى؛ أي رباه، ورب كل شيء مالكه، والرب اسم من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك، والربّاني: المتأله العارف بالله تعالى". انتهى.

وقال الزمخشري في (أساس البلاغة): "الله -عز وعلا- رب الأرباب، وله الربوبية، وهو رب الدار والعبد، وغير ذلك، ويقال: ربّ بين الربابة. قال:

يا جُمْلُ أُسقيتِ بلا حسابه ❖ سقيا مليكٍ حسن الرِّبابة

وفلان مربوب، والعباد مربوبون، وقد رُبّ فلان: ملِّك، ورأيت فلان يتربّب أرضكم يقول: أنا رب، ورجل رُبِّي وربّاني متأله، وفيه ربّانية، وربَّ ولده وربه وتربّبه وربّاه وربّيته، قال النابغة:

فبدت ترائب شادنٍ متربِّبٍ ❖ أحوى أمم المقلتين مقلّد

فالمعاني اللغوية التي ترجع إليها كلمة (رب) هي: السيد والمالك والمتصرف والمربي، ورب كذا: صاحبه، يقول الفيومي ~ : "الرب: يطلق على الله -تبارك وتعالى- معرفًا بالألف واللام، ومضافًا، ويطلق على مالك الشيء الذي لا يعقل مضافًا إليه فيقال: "رب الدين ورب المال"، ومنه قوله ﷺ في ضالة الإبل: ((حتى يلقاها ربها)) وقد استعمل بمعنى السيد مضافًا إلى العاقل أيضًا، ومنه قوله # : ((حتى تلد الأمة ربتها))، وفي رواية: ((ربها))، وفي التنزيل حكاية عن يوسف # : ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ [يوسف: ٤١] قالوا: ولا يجوز استعماله بالألف واللام للمخلوق بمعنى المالك؛ لأن اللام للعموم، والمخلوق لا يملك جميع المخلوقات، وربما جاء باللام عوضًا عن الإضافة إذا كان بمعنى السيد؛ قال الحارث:

فهو الرب والشهيد على يوم ❖ الحيارين والبلاء بلاء

ومعلوم أن الربوبية خاصة بالله تعالى، ولا يستحقها مخلوق كائنًا من كان، فليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال.

يقول ابن أبي العز الحنفي # : "وأما الثاني: وهو توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن كما قال موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه، وضرب الأمثال له، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلًا على الثاني؛ إذ كانوا يسلِّمون في الأول وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه: أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم لا شريك له في ذلك فلم تعبدون غيره؟! وتجعلون معه آلهة أخرى؟! كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠] الآيات.

يقول الله تعالى في آخر كل آية: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع الله فعل هذا؟! وهذا استفهام إنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام: هل مع الله إله، كما ظنه بعضهم؛ لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وكانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] لكنهم ما كانوا يقولون: إنه معه إلهًا: ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

[البقرة: ٢١]، وكذلك قوله في سورة الأنعام ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ [الآية: ٤٦] وأمثال ذلك.

وإذا كان توحيد الربوبية -الذي يجعله هؤلاء النظار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد- داخلًا في التوحيد الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب؛ فليعلم أن دلائله متعددة، كدلائل إثبات الصانع، ودلائل صدق الرسول، فإن العلم كلما كان الناس إليه أحوج كانت أدلته أظهر؛ رحمة من الله بخلقه، والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال!

وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقًا عليها- استُدل بها ولم يُحتج إلى الاستدلال عليها". انتهى كلامه.

وقد بين الشيخ حافظ الحكمي # اختصاص الله ﷻ بأنه رب العالمين بقوله:

والكلام في هذا الفصل على النوع الأول وهو التوحيد العملي الخبري الاعتقادي، وهو إثبات ذات الرب جل وعلا، فإن هذه العوالم -العلويات والسفليات- لا بد من موجد لها أوجدها، ويتصرف فيها، ويدبرها، ومحال أن توجد بدون موجد، ومحال أن توجد أنفسها؛ قال الله تبارك وتعالى في مقام الربوبية، وتوحيد الألوهية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

قال ابن عباس }:

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ ﴾ أي: من غير رب، ومعناه: أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق، وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلق الخلق بالخالق

من ضرورة الاسم فلا بد له من خالق، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق.

﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ لأنفسهم وذلك في البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق، فإذا أبطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا، فليؤمنوا به.

﴿ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وهذا في البطلان أشر وأشد فإن المسبوق بالعدم يستحيل أن يوجد نفسه فضلًا عن أن يكون موجدًا لغيره، وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله ﷻ، وهم يعلمون أنه الخالق لا شريك له.

﴿ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ أي: ولكن عدم إيقانهم هو الذي يحملهم على ذلك.

وعن جبير بن مطعم > قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٧] كاد قلبي أن يطير". أخرجاه في (الصحيحين). انتهى كلام الحكمي # .

المراد بتوحيد الربوبية

اعلم أن التوحيد الذي يميز المسلمين عن غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى ثلاثة أقسام؛ هي:

أ- توحيد الربوبية.

ب- توحيد الأسماء والصفات.

ج- توحيد الألوهية.

وهذه الأقسام الثلاثة مترابطة ترابطًا وثيقًا، بحيث لا يتصور أن مسلمًا يقر بواحد منها، وينكر باقيها، كما نجد عند بعض أهل الأهواء والبدع.

توحيد الربوبية:

هو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على كل شيء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر.

يقول عبد العزيز بن محمد السلمان # : "المراد بتوحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق والرزق والتدبير، الذي ربّى جميع الخلق بالنعم، وربى خواص خلقه، وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة" انتهى كلامه.

وفي (تيسير العزيز الحميد): "توحيد الربوبية والملك وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء، وعند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك، ويدخل في ذلك الإيمان بالقدر" انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية # : "وهذه المعاني تدل على توحيد الربوبية وعلى توحيد الإلهية، وهو التوحيد الواجب الكامل الذي جاء به القرآن لوجوه: وقد ذكرنا منها ما ذكرنا في غير هذا الموضع؛ مثل أن المتحركات لا بد لها من حركة إرادية، ولا بد للإرادة من مراد لنفسه، وذلك هو الإله، والمخلوق يمتنع أن يكون مرادًا لنفسه، كما يمتنع فاعلًا لنفسه، فإذا امتنع أن يكون فاعلًا بأنفسهما

امتنع أن يكون مرادًا بأنفسهما، وأيضًا فالإله الذي هو المراد لنفسه -إن لم يكن ربًّا- امتنع أن يكون معبودًا لنفسه، ومن لا يكون ربًّا خالقًا لا يكون مدعوًّا مطلوبًا منه مرادًا لغيره، فلأن لا يكون معبودًا مرادًا لنفسه من باب الأولى، فإثبات الإلهية يوجب الربوبية، ونفي الربوبية يوجب نفي الإلهية؛ إذ الإلهية هي الغاية وهي مستلزمة للبداية كاستلزام الغائية للفاعلية، وكل واحد من وحدانية الربوبية والإلهية، وإن كان معلومًا بالفطرة الضرورية البديهية، وبالشرعية النبوية الإلهية فهو أيضًا معلوم بالأمثال الضرورية التي هي المقاييس العقلية، لكن المتكلمين إنما انتصبوا لإقامة المقاييس العقلية على توحيد الربوبية، وهذا مما لم ينازع في أصله أحد من بني آدم، وإنما نازعوا في بعض تفاصيله كنزاع المجوس والثنوية والطبيعية، والقدرية وأمثالهم من ضلال المتفلسفة والمعتزلة، ومن يدخل فيهم، وأما توحيد الألوهية فهو الشرك العام الغالب الذي دخله من أقر أنه لا خالق إلا الله، ولا رب غيره، من أصناف المشركين، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦] كما قد بسطنا هذا في غير هذا الموضع" انتهى كلامه.

فتوحيد الربوبية واعتقاد أن الله تعالى رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومربيهم بالنعم، ومحييهم ومميتهم- أمر مستقر في العقول والفطر.

ويقول الشيخ المقريزي # : "اعلم أن الله سبحانه هو رب كل شيء ومالكه وإلهه، فالرب مصدر ربّ يربّ ربًّا فهو رابٌّ، فمعنى قوله تعالى ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ راب العالمين، فالرب ﷻ هو الخالق الموجد لعباده القائم بتربيتهم وإصلاحهم المتكفل بصلاحهم من خلق ورزق وعافية وإصلاح دين ودنيا" انتهى كلامه.

فالمراد بتوحيد الربوبية هو الاعتقاد الجازم بأن لهذا الكون ربًّا خلقه ودبَّره ورتَّبه بهذا الترتيب العجيب، وأن هذا الرب هو الله جل جلاله، إله الآلهة كما كان يعبر المشركون.

علاقة توحيد الربوبية بنوعي التوحيد الآخرين وهما توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية:

لا شك أن العلاقة وطيدة بين أنواع التوحيد الثلاثة:

فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الأسماء والصفات؛ لأنك إذا علمت أن لك ربًّا خالقًا مدبرًا هو الذي أحياك ويميتك ويرزقك، ويصرّف شئونك فهذا يستلزم منك أن تتقرب إليه بمعرفة أسمائه وصفاته التي تعبدك بها في كتابه العزيز، أو على لسان رسوله الكريم ﷺ.

كما أن توحيد الربوبية والأسماء والصفات مستلزمان لتوحيد الألوهية، ودليلان عليه؛ لأنك إذا عرفت أن لك ربًّا خلقك ورزقك، ورباك بشتى صنوف النعم، وعرفت أسماءه وصفاته العليا التي أمرك بالتقرب إليه بمعرفته بها ودعائه عن طريق تلك الأسماء والصفات، إذا عرفت ذلك فيستلزم ذلك أن تتوجه بتوحيد الألوهية إلى هذا الرب الذي سبق بيان ربوبيته وأسمائه وصفاته، وأن تقصده بجميع أنواع العبادات.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # مبينًا أنواع التوحيد الثلاثة وتلازمها:

"النوع الأول: توحيد الربوبية والملك، وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي، المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة

الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣٢]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

النوع الثاني: توحيد الأسماء والصفات، وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير، رءوف رحيم، على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس... إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وهذا أيضًا لا يكفي في حصول الإسلام، بل لا بد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والإلهية، والكفار يقرون بجنس هذا النوع، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك إما جهلًا، وإما عنادًا كما قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد إلا في اسم الرحمن خاصة، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك كما ردوا عليه توحيد الإلهية فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] لا سيما السور المكية مملوءة بهذا التوحيد.

النوع الثالث: توحيد الإلهية المبني على إخلاص التأله وينبئ على ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له، لا يجعل فيها شيئًا لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبيٍّ مرسل، فضلًا عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو أول واجب على المكلف، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، فهو أول واجب وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ المقريزي # : "فلا ولي ولا حكم ولا رب إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحَّد ربوبيته، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام "لا إله إلا الله" ولو قال: لا رب إلا الله لا تجزئه عند المحققين، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد، وهو الذي ينكره المشركون، ويحتج الرب ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته". انتهى كلامه # .

الأدلة النقلية السمعية

لا ريب أن الأدلة النقلية السمعية على توحيد الربوبية أكثر وأشهر وحصرها أمر متعسِّر؛ لأن القرآن الكريم وضحها وضوحًا كافيًا شافيًا، وكذلك فعل الرسول ﷺ في السنة المطهرة، لكننا سننقل بعضًا من تلك الآيات والأحاديث التي ذكرها أهل العلم -رحمهم الله- وشرحوها، وبينوا وجه دلالتها على ربوبية الله تعالى لخلقه، وخلقه وحده لهذه الكون، وتدبيره لشئون مخلوقاته، وحفظه لنظام هذا الكون العجيب من الاختلال طرفة عين، فمن ذلك:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

يقول الإمام ابن منده # : "فأخبر الله تعالى أن في السموات والأرض آية لذوي العقول والألباب، ثم أمرهم بالتفكر في خلقهما فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وأخبر بارتفاعهما فقال: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

ثم يقول: ومن الآيات الواضحة التي جعلها الله دليلًا لعباده عن خلقه على معرفة وحدانيته من انتظام صنعه، وبدائع حكمته خلق السموات والأرض، وما أحكم فيها، قال الله ﷻ منبهًا على قدرته: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]" انتهى كلامه.

٢- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٧] ففي هذه الآيات يوجه الله ﷻ نظر الإنسان وعقله إلى دليلي الخلق والعناية، وكيف يشترك في فهمهما وحق الاستدلال بهما جميع الناس رغم اختلاف مستوياتهم وعقولهم؛ لو سمعها أعرابي جالس تحت خيمته لفهم منها مباشرةً أن هذه الأرض التي تحمله على ظهرها حيًّا وستضمه في بطنها ميتًا، وأن هذه الجبال الراسيات التي تحفظ الأرض من التصدع، وأن هذا الماء العذب الذي ينتفع به هو ودوابه وغيرها من الآيات في الآفاق- من أعظم الأدلة الدالة على ربوبية الله تعالى ووحدانيته.

يقول ابن أبي العز الحنفي # : "وأما الثاني وهو توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام، وطائفة

من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معرفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال موسى ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤]، ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ على وجه الإنكار له -تجاهل العارف- قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٢٤ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ٢٥ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٦ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤- ٢٨]، وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهمًا عن الماهية، وأن المسئول عنه لما لم يكن له ماهية عجز موسى عن الجواب، وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحد كما دلت سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدًا لله نافيًا له، لم يكن مثبتًا له طالبًا للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بما هو، بل إنه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل، بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من معرفة كل معروف، ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال" انتهى كلامه.

ويقول المقريزي # مبينًا ظهور الأدلة على توحيد الربوبية والألوهية: "وهو الذي ينكره المشركون ويحتج الرب سبحانه وتعالى عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ

أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠] وكلما ذكر تعالى من آياته جملة من الجمل قال عقبها: ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾.

فأبان ﷻ بذلك أن المشركين يتوقفون في إثبات توحيد الإلهية لا الربوبية، على أن منهم من أشرك في الربوبية كما يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالى، وبالجملة: فهو تعالى يحتج على منكري الإلهية بإثباتهم الربوبية، والملك: هو الآمر الناهي الذي لا يخلق خلقًا بمقتضى ربوبيته ويتركهم سدى معطلين، لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون، فإن الملك هو الآمر الناهي المعطي المانع الضار النافع المثيب المعاقب" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي # وهو يتحدث عن أنواع التوحيد وأدلتها: "وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام: الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جبلت عليه فطر العقلاء قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] الآية، وقال ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وإنكار فرعون لهذا النوع من التوحيد في قوله: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارف أنه عبد مربوب بدليل قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية، وقوله: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] وهذا النوع من التوحيد لا ينفع إلا بإخلاص العبادة لله، كما قال تعالى:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة جدًا، ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته جل وعلا على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير.

فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يعبدوه وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غير، مع اعترافهم أنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبد وحده، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ [يونس: ٣١] إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ فلما أقروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٢٥]، ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٥] فلما اعترفوا وبخهم منكرًا عليهم شركهم بقوله: ﴿ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا، ولأجل ذلك ذكرنا في غير هذا الموضع أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقريرية يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة نحو قوله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ [الأنعام: ٦٤]، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكاري؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير، وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه" انتهى كلامه.

الأدلــة العقليــة العيانيــة

يعتبر الاستدلال بآيات الله في الآفاق على ربوبية الله تعالى هي طريقة القرآن الكريم، التي ترشد العباد إلى ربهم بأقرب الطرق وأيسرها، وأشفاها وأنفعها، فالعلم بها يستلزم العلم بالله كما يستلزم العلم بوجود النهار عند رؤية شعاع الشمس.

ولو تأمل العاقل في آيات الله الكونية وما انطوت عليه من الإحكام والإتقان لاستطاع أن يصل بعقله إلى أن له مدبرًا دبره، وخالقًا خلقه، يدل على ذلك قول أحد الأعراب: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أفلاك، أفلا تدل على الصانع؟"، فآيات الله في الآفاق يشترك في فيها والاستدلال بها كل الناس، على مختلف عقولهم ومداركهم ومستوياتهم؛ لأنها من الأمور المشاهدة المعاينة، ولذلك كثر ورودها في القرآن الكريم لأخذ العبرة والعظة منها، والاستدلال بها على ربوبيته ووحدانيته.

يقول ابن أبي العز الحنفي # : "وأما آياته العيانية الخلقية فالنظر فيها والاستدلال بها على ما تدل عليه آياته القولية والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل، فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة، فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة - لم يبعث نبيًّا إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ

﴿ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران: ١٨٤]. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧].

حتى إن من أخفى آيات الرسل آيات هود حتى قال له قومه: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ [هود: ٥٣] ومع هذا فبينته من أوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها، وقد أشار إليه بقوله: ﴿ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝٥٥ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٤- ٥٦].

فهذا من أعظم الآيات أن رجلًا واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب من غير جزع ولا فزع، ولا خوار". انتهى كلامه.

هذا، وقد قسم العلامة ابن القيم # التدبر والتفكر في آيات الله الكونية إلى قسمين:

أ- تدبر في آيات الله التنزيلية: كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

ب- وتدبر في آيات الله الكونية في الآفاق: كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فمتى نظر الإنسان إلى هذه الآيات الكونية وتفكر فيها دله فكره ونظره على ربوبية الله تعالى، وأن الله هو الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وألوهيته وحكمته ورحمته.

ثم بين العلاقة ابن القيم أيضًا: أن النظر والتدبر في آيات الله في الآفاق بالعقل نوعان، فقال: "والنظر في هذه الآيات نوعان:

الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر: مثلًا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات، وليس هذا المقصود بالخطاب فقط.

والثاني: النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها، وبين ملائكتها، ثم يفتح لها باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده، ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعة خياله من سفرٍ ما أبركه وأروحه، وأعظم ثمرته وربحه، وأجل منفعته وأحسن عاقبته، هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب".

ثم يقول # موجهًا العاقل إلى التأمل في ملكوت السموات: "تأمل إلى صنع الله في ملكوت السموات وعلوها، وسعتها واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا ذرة فيها تنفك عن حكمه، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا، وأعجب في العجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١].

والمقصود: أنه سبحانه إنما يقسم بمخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته، وقد أثنى الله على المتفكرين بعقولهم في خلق السموات والأرض، وذم المعرضين عن ذلك فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع، وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات.

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ❖ ومن هو فوق العرش فرد موحَّدُ

المراد بالفطرة

تعتبر معرفة الله، والإقرار بربوبيته من الأمور الفطرية التي غرسها الله تعالى في قلوب الناس، وشهدت بها عقولهم، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "ولما كان الإقرار بالصانع فطريًّا كما قال ﷺ: ((كل مولود يولد على الفطرة)) الحديث.. فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله، والإنابة إليه، وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يُعرف ويُعبد". انتهى كلامه.

فالمراد بالفطرة: قيل: الإسلام، وقيل: دين الله، وقيل: ملة إبراهيم، وكلها بمعنى؛ لأن ملة إبراهيم موافقة للإسلام، والإسلام هو دين الله، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

ونستدل على الفطرة بآية وحديث، أما الآية فهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وأما الحديث فهو ما رواه أبو هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء)) يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ رواه البخاري ومسلم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # في رسالة الفطرة: "وأما الرب تعالى فهو معروف بالفطرة ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، فالمشركون من عباد الأصنام وغيرهم من أهل الكتاب معترفون بالله مقرون به؛ أنه ربهم وخالقهم ورازقهم وأنه رب السموات والأرض والشمس والقمر وأنه المقصود الأعظم، فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد، حتى من خُلق مجنونًا مطبقًا مصطلمًا، لا يفهم شيئًا ما يحلق إلا به، ولا يلهج بلسان بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة، وقد حدثنا شيخنا ابن قاضي الجيل عن بعض العلماء لا أستحضره قال: "لو ترك طفل رضيع في بيت لا يكلم وله من يقوم بأمره لعرف ربه ونطق بالسريانية". انتهى كلامه.

فالمراد بالفطرة أن كل إنسان يجد في نفسه ذلك التوجه والتعلق بالخالق ﷻ وأن هذه المعرفة التي نسميها الفطرة هي معرفة التوحيد التي جاء بها الإسلام، وأنها موجودة عند كل مولود ما لم يغيرها الأبوان إلى الديانات الأخرى، والاعتقادات الباطلة.

توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية

أولًا: التلازم بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية:

لا شك أن التلازم حاصل بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، فمن أقر بأن الله تعالى رب خالق، مالك، متصرف، مدبر، محيي، مميت، وبيده الأمر، وأنه ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٤١] وأنه أبدع هذا الكون، وخلق سماواته وجعلها طباقًا، وخلق الأرضين وجعلها قرارًا لمخلوقاته، وأرسى فيها هذه الجبال الشامخة؛ كي لا تميد بالمخلوقات التي جعل حياتها على كوكب الأرض، وأنزل من السماء ماءً فأحيى به هذه الأرض بعد موتها، وجعل الأنهار تجري، والعيون نابعة لكي تشرب المخلوقات، ويحيي النبات أمر بذلك فيلزمه الإقرار بتوحيد هذا الخلق وأحقيته بالعبادة، فترى الأرض مخضرة، والمياه عذبة، والثمار يانعة، فتغفل الحيوانات، وشبهها من ختم الله على بصيرته وبصره من بني الإنسان، فلا يقدر هذه النعمة حق قدرها، وتراه يسيح في الأرض، ويطير في السماء، والله يغذوه من نعمه صباحًا ومساءً، ثم إذا سئل عن إلهية الله تعالى وتوحيده في عبادته كابر وعاند، وقاتل دون فكرته وجالد، فمنهم من ينكر هذه الربوبية تجاهلًا وعنادًا كما حصل للطاغية فرعون، ومنهم من يزعم أنه مقر بتوحيد الربوبية، ويقول: ربي الله، خلقني ورزقني، ثم إذا طلب منه تحقيق توحيد الربوبية أشرك بالله تعالى، وقال: إنه متوجه في عبادته لآلهة أخرى تقربه من الله تعالى زلفى، كما فعل الكفار في الجاهلية الأولى، وكما يقوله غلاة أهل البدع المنتسبون للإسلام من هذه الأمة؛ لأن من أقر بتوحيد الربوبية يلزمه أن يقر بتوحيد الألوهية؛ لأن الأول دليل على الثاني،

ويلزم من أقر بتوحيد الربوبية أن يقر بتوحيد الألوهية، يقول الشيخ حافظ الحكمي # : "وهو أي: التوحيد نوعان:

الأول: التوحيد العلمي الخبري الاعتقاد، المتضمن إثبات صفات الكمال لله ﷻ وتنزيهه فيها عن التشبيه والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النقص، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

والثاني: التوحيد الطلبي القصدي الإرادي، والتوكل عليه والرضا به ربًّا، وإلهًا، ووليًّا، وأن لا يجعل عِدْلًا في شيء من الأشياء، وهو توحيد الإلهية، والقرآن كله من أوله إلى آخره في تقرير هذين التوحيد؛ إما خبر عن الله ﷻ وما يجب أن يوصف به، وما يجب أن ينزه عنه وهو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، إما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الطلبي الإرادي، وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد، وما يكرمهم به في الآخرة، وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يُفعل بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، اقرأ في الجمع بين التوحيدين: ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [طه: ١- ٨]، وآية الكرسي، و"قل هو الله أحد"، وغيرها من القرآن" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ صالح العبود في بيانه لعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "يعتقد الشيخ في هذا الباب أن توحيد الله تعالى هو المبني على اعتقاد أنه الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وهذا هو توحيد الربوبية، وواحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له، وهذا هو توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الربوبية والأسماء والصفات كلاهما من باب واحد هو توحيد المعرفة والإثبات، وهو التوحيد العلمي الخبري، وهذا التوحيد هو الأصل، ولا يغلط في الإلهية إلا من لم يعطه حقه، وهو الشهادة بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا يحيي ولا يميت ولا يدبر الأمور إلا هو، وهذا حق وهو الذي أقرَّ به الكفار، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

ولكنهم كفروا حيث لم يعبدوا الله وحده كما هو مقتضى شهادتهم بالربوبية كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

وتوحيد الربوبية ثابت مشهود لا يحتاج إلى دليل، بل هو الدليل على توحيد الطلب كما أنزل الله في محكم كتابه يحتج به على من كفر من خلقه، وقد تقدم ذكر قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم ﴾ الآية، ذلك أن الكفار يزعمون أن الله هو الإله الأكبر، ولكن معه آلهة أخرى تشفع عنده، فهم أثبتوا أن الله يتصف بأنه معبود، لكن نازعوا في توحيد العبادة فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، ولم يرضوا أن يقولوا هذه الكلمة؛ لأنهم عرفوا أنه تعني توحيد العبادة". انتهى كلامه.

ويقول الشيخ حافظ الحكمي # بعد أن ذكر الآيات في تقرير توحيد الربوبية: ومن تدبر هذه الآيات التي ذكرنا، وما في معناها حق التدبر علم يقينًا أن عباد الأوثان مقرون بتوحيد الربوبية، وشاهدون بتفرد الله بذلك، وأنهم إنما أشركوا بالله تعالى في الإلهية حيث عبدوا معه غيره، هذا في الظاهر، وإلا فأنواع التوحيد متلازمة؛ من أشرك غير الله معه في شيء فيها فقد أشرك فيما عداه - كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه في بيان أن الشرك ومما يقدر ذلك غاية التقدير حديث عمران بن حصين } أن النبي ﷺ قال لأبيه حصين قبل إسلامه: ((كم تعبد اليوم من إله؟)) قال سبعة آلهة؛ ستة في الأرض وواحد في السماء، قال ﷺ: ((فمن تعد لرغبتك ورهبتك؟)) قال الذي في السماء، وقد أيضًا هذه الآية أنهم إنما كان شركهم بالله في إلهيته في حالة الرخاء، وأما في الشدة فكانوا يخلصون الدين لعلمهم أنه لا يقدر على كشف ما هم فيه غيره، وأن آلهتهم لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع شيئًا كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] وما في معانيها من الآيات مما ذكرنا.

والمقصود أن الربوبية والإلهية متلازمان لا ينفك نوع منهما، وأن توحيد الربوبية لا ينكره أحد إلا مكابرة كفرعون ونمرود والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقَيْن اثنين - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا". انتهى كلامه.

ثانيًا: توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية:

لا يشك أحد في أن توحيد الربوبية دليل على توحيد الألوهية إلا مكابر، أو معاند، فإن من يشهد أن الله تعالى هو الخالق البارئ الرزاق المدبر المحيي المميت

بيده الخير كله، فإن هذا دليل واضح على أن الرب الذي هذه صفاته وقدرته هو المستحق للعبادة، الذي ينبغي أن تخلص له العبادات، وأن يتوجه إليه المرء بأعماله ودعائه، ورجائه، وهكذا كان القرآن الكريم يستدل بتوحيد المشركين لله في ربوبيته على أنه يجب عليهم أن يوحِّدوه في العبادة؛ لأن العقل الصحيح لا يقر أن تتوجه القلوب بالأعمال والدعوات والرجاء، لتحقيق الرغبات والأمنيات إلى من لا يسمع ولا يُبصر ولا ينفع ولا يضر ولا يغني عن المرء شيئًا، فلذلك كانت الاستفهامات التي ترد في القرآن في معرض اعتراف المشركين بتوحيد الربوبية ترد على سبيل التقرير، ليرتب لهم على ذلك التقرير التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار.

يقول الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي # : "ويكثر في القرآن العظيم الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبيته -جل وعلا- على وجوب توحيده في عبادته، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقروا بربوبيته احتج بها عليهم على أنه هو المستحق لأن يُعبد وحده، ووبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره مع اعترافهم بأنه هو الرب وحده؛ لأن من اعترف بأنه هو الرب وحده لزمه الاعتراف بأنه هو المستحق لأن يعبده وحده، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١].

فلما قروا بربوبيته وبخهم منكرًا عليهم شركهم به غيره بقوله: ﴿ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٥٩، ٦٠].

ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره هو أن القادر على خلق السموات والأرض، وما ذكر معها خير من جماد لا يقدر على شيء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠]، وقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الروم: ٤٠].

ولا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم غيره هو: لا؛ أي: ليس من شركائنا من يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك المذكور من الخلق والرزق والإماتة والإحياء، فلما تعين اعترافهم وبّخهم منكرًا عليهم بقوله ﷻ: ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٤٠]، والآيات بنحو هذا كثيرة جدًّا، ولأجل ذلك ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، وإن زعم بعض العلماء أن هذا استفهام إنكار؛ لأن استقراء القرآن دل على أن الاستفهام المتعلق بالربوبية استفهام تقرير وليس استفهام إنكار؛ لأنهم لا ينكرون الربوبية؛ كما رأيت كثرة الآيات الدالة عليه" انتهى كلامه.

هل يكفي توحيد الربوبية للدخول في الإسلام؟

لقد ذكرنا مرارًا أن توحيد الربوبية لا ينكره من العقلاء أحدٌ؛ لأنه مستقر في الفطر السليمة، ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال.

يقول ابن أبي العز الحنفي # : "وأما الثاني: وهو توحيد الربوبية كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا

التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل الفطر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال" انتهى كلامه.

وعليه: فإن توحيد الربوبية وحده لا يُدخل في الإسلام ما لم ينضم إليه توحيد الإلهية، ثم إنه لو كان توحيد الربوبية وحده يكفي للدخول في الإسلام لكان مشركو العرب في الجاهلية مسلمين، ولما قاتلهم رسول الله ﷺ، ولكان فرعون وقومه مؤمنين؛ لأنهم كانوا مستيقنين وجود الله تعالى؛ بل كان إنكار فرعون لله تعالى في قوله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] إنكار عارف؛ لكنه تجاهل تلك المعرفة؛ ولأجل هذا وجد من الفرق المنتسبة إلى الإسلام من يزعم أن معرفة الله بالقلب تكفي للدخول في الإسلام كما هو رأي أصحاب الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، بل ألّف بعضهم في إثبات إيمان فرعون.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : "وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام؛ بل لا بد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الإلهية؛ لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مُقِرُّون بهذا التوحيد له وحده، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فهم كانوا يعلمون أن جميع ذلك لله وحده، ولم يكونوا بذلك مسلمين ؛ بل قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٧] فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم وسبي نسائهم، وإباحة أموالهم مع هذا الإقرار والمعرفة، وما ذلك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة الذي معنى لا إله إلا الله". انتهى كلامه.

هل ينقذ توحيد الربوبية من الشرك؟

ما دمنا قررنا في الفقرة الماضية أن توحيد الربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام فنقرر هنا أن هذا النوع من التوحيد لا ينقذ -كذلك- من الشرك ؛ لأن التوحيد الذي يعد صاحبه مسلمًا، والذي يُنقذ من الشرك هو توحيد الألوهية الذي هو أساس الإسلام وروح العقيدة، ولب الإسلام، ولهذا لما ردَّ كفار قريش هذا النوع من التوحيد لم يقبل منهم اعترافهم بتوحيد الربوبية ؛ لأن الله تعالى لا يقبل إلا هذا التوحيد الذي هو الإسلام قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

فالمشركون كانوا يقرون بتوحيد الربوبية وهو أن الله تعالى هو الرب الخالق المالك والمتصرف الذي بيده ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وهذا يستلزم منهم أن يوحدوه بالألوهية، كما وحدوه بالربوبية قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

يقول الشيخ المقريزي # : "ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون؛ بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم وخالق السموات والأرض والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الإلهية والمحبة كما قد حكى الله تعالى عنهم في قوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فلما سووا غيره به في هذا التوحيد كانوا مشركين، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الإلهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، وتوحيد الإلهية هو المطلوب من العباد، وهو الذي ينكره المشركون، ويحتج الرب ﷻ عليهم بتوحيدهم ربوبيته على توحيد ألوهيته كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩] إلى قوله: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل: ٦٠] انتهى كلامه.

فإذن، لا ينقذ توحيد الربوبية من الشرك، ولا يخرج صاحبه من دائرة الإشراك؛ بل لا بد معه من توحيد الألوهية الذي ينقذه، ويدخله في دائرة الإسلام، ويعصمه ويحفظ له دمه، وماله، وعرضه، فلا يسفك دمه، ولا يستحل ماله، ولا ينتهك عرضه.

المراد بالشرك في الربوبية، وندرة القائلين بتعدد الآلهة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أنواع الشرك في الربوبية	٣٩
العنصر الثاني :	هل أعطى الله الربوبية أو جزءًا منها لغيره من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء؟	٤٣
العنصر الثالث :	من أعطاه الله القدرة، أو أذن له ببعض الكشوفات والتأثيرات الخارقة للعادة لا يجعله مستحقًّا لشيء من أنواع العبادة	٤٧
العنصر الرابع :	أيهما أسبق: التوحيد أم الشرك؟	٤٩
العنصر الخامس :	من أنكر وجود الله تعالى	٥٣
العنصر السادس :	القائلون بتعدد الآلهة	٥٦

أنـــواع الـــشرك في الربوبيـــة

أولًا: المراد بالشرك في الربوبية:

مثل اعتقاد وجود أرباب أخرى لها تدبير ونفع وضر من دون الله، أو اعتقاد أن الله تعالى أعطى الربوبية أو جزءًا منها لغيره من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو غيرهم ممن أعطاه الله القدرة أو أذن له كونًا ببعض التأثيرات أو الكشوفات.

ثانيًا: أقسام الشرك عامة:

أ- الشرك الأكبر.

ب- والشرك الأصغر.

ومن العلماء من يقسمه تقسيمًا آخر، فيقول: الشرك أنواع:

شرك في الربوبية، وشرك في الأسماء والصفات، وشرك في الألوهية.

يقول الدكتور حسن العواجي: "وإذا نظرنا إلى تقسيم أهل العلم للشرك؛ فإننا سوف نلاحظ أن تقسيمهم لا يخرج عن تلك الإطلاقات الثلاثة، وإن كانوا يختلفون في العبارة والتنويع. فهم يقسمون الشرك عدة تقسيمات، وأكثرهم ينظر في تقسيمه إلى الشرك في الألوهية؛ فنجد أن منهم من يقسمه إلى أكبر وأصغر، ومنهم من يقسمه إلى ثلاثة أقسام: أكبر، وأصغر، وخفي. ومنهم من يقسمه على حسب أنواع التوحيد الثلاثة، ومنهم من يقسم الأكبر إلى أربعة أقسام، ومنهم من قسمه إلى قسمين: قسم يتعلق بذات الله، وقسم يتعلق بعبادته، ثم

نوع كل واحد منهما. والتقسيم الذي يجمع هذه التقسيمات، ويؤالف بينها: أن نقول: الشرك نوعان: شرك أكبر، وشرك أصغر".

ثم عرف الشرك الأكبر وفصل القول في الشرك في الربوبية فقال: "الأول: الشرك الأكبر، وهو نوعان: شرك يتعلق بذات الله، وشرك يتعلق بعبادته. فأما ما يتعلق بذات الله فهو الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

ثالثًا: نوعا الشرك في الربوبية:

١- **شرك في التعطيل:** كشرك فرعون، وشك الملاحدة، والتعطيل ثلاثة أقسام:

تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه، وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس، وهذا هو الشرك في الأسماء والصفات، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد.

٢- **وشرك من جعل مع الله إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته، وربوبيته:** كشرك النصارى الذين جعلوه ثلاثة؛ حيث جعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا، وأمثالهم كثير". انتهى كلامه.

يقول الشيخ تقي الدين المقريزي # : "والنوع الثاني من الشرك: الشرك به تعالى في الربوبية؛ كشرك من جعل معه خالقًا آخر: كالمجوس وغيرهم الذين يقولون بأن للعالم ربين: أحدهما خالق الخير، يقولون له بلسان الفارسية: "يزدان" –ومعناه: الله- والآخر خالق الشر، ويقولون له بلسانهم: "أهرمن" - أي الشيطان.

وكالفلاسفة ومن تبعهم الذين يقولون بأنه لم يصدر عنه إلا واحد بسيط، وإن مصدر المخلوقات كلها عن العقول والنفوس، وإن مصدر هذا العالم عن العقل

الفعَّال؛ فهو رب كل ما تحته ومدبره، وهذا شر من شرك عباد الأصنام، والمجوس والنصارى، وهو أخبث شرك في العالم؛ إذ يتضمن من التعطيل، وجحد الإلهية والربوبية، واستناد الخلق إلى غيره ﷻ ما لم يتضمنه شرك أمة من الأمم، وشرك القدرية مختصر من هذا وباب يدخل منه إليه... وكثيرًا ما يجتمع الشركان في العبد، وينفرد أحدهما عن الآخر والقرآن الكريم؛ بل الكتب المنزلة من عند الله تعالى كلها مصرحة بالرد على أهل هذا الإشراك؛ كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإنه ينفي شرك المحبة والإلهية، وقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنه ينفي شرك الخلق والربوبية؛ فتضمنت هذه الآية تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه لا في الأفعال ولا في الألفاظ، ولا في الإرادات... وبالجملة فهذا باب واسع، والمقصود: أن كل من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] فما عبد أحدٌ أحدًا من بني آدم -كائنًا من كان- إلا وقد وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له، وإشراكه مع الله تعالى وذلك غاية رضا الشيطان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي: من إغوائهم وإضلالهم، ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفر بغير التوبة منه، وأنه موجب للخلود في العذاب العظيم، وأنه ليس تحريمه قبحه بمجرد النهي عنه فقط؛ بل يستحيل على الله ﷻ أن يشرع لعباده عبادة إله غيره كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله". انتهى كلامه.

وتحدث الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # عن أنواع الشرك في الربوبية فقال: "الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

أحدهما: شرك التعطيل:

وهو أقبح أنواع الشرك؛ كشرك فرعون، إذا قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدوما أصلًا؛ بل لم يزل، ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها يسمونها: العقول، والنفوس، ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود: كابن عربي وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحاد حلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر، ومن هذا شرك من عطل أسماء الرب وأوصافه من غلاة الجهمية والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر ولم يعطل أسماءه وصفاته، وربوبيته:

كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات، ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصائبة وغيرهم.

قلت -الكلام لا يزال للشيخ سليمان-: ويلتحق به من وجه شرك غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تنصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات،

ويفرجون الكربات وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم؛ فإن هذه من خصائص الربوبية، كما ذكره بعضهم في هذا النوع". انتهى كلامه.

إذن: فالشرك في الربوبية متعدد كشرك التعطيل، وهو تعطيل الصانع عن المصنوعات، وأشهر من أظهر هذه المقالة هو فرعون وهامان؛ كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦]، ومنه شرك من جعل مع الله إلهًا آخر كشرك النصارى والمجوس بالثنوية، وشرك الذين يجعلون الكواكب مدبرة للعالم.

هل أعطى الله الربوبية أو جزءًا منها لغيره من الملائكة أو الأنبياء أو الأولياء؟

لا شك أن الربوبية أمر خاص بالله تعالى لم يعطه لغيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فضلًا عن غيرهما، فالخالق متصف بالربوبية أصلًا والخلق متصفون بالعبودية له أبدًا؛ ولذلك فقد رد القرآن الكريم والسنة الصحيحة على من ادعى أن جزءًا إلهيًّا حلَّ في مخلوق كما تدَّعيه غلاة الشيعة والصوفية، وهي عقيدة موروثة من دين النصارى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "وكان رسول الله ﷺ يحقق عبوديته لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح، من دعوى الألوهية، حتى قال له رجل: "ما شاء الله وشئت" فقال: ((أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده)). وقال أيضًا لأصحابه: ((لا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، بل قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد)). وقال: ((لا تتخذوا قبري عيدًا؛ وصلوا عليَّ حيث ما كنتم

فإن صلاتكم تبلغني)) وقال: ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). وقال: ((إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك)).

والغلو في الأمة وقع في طائفتين: طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين، فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئًا من الألوهية والربوبية فهو من جنس النصارى، وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم. قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل: ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢] فقد بين الله في كفاية حقوق الرسول ﷺ: من الطاعة له، ومحبته، وتعزيره، وتوقيره، ونصره، وتحكيمه، والرضا بحكمه، والتسليم له، واتباعه، والصلاة والتسليم عليه، وتقديمه على النفس والأهل والمال، ورد ما يتنازع فيه إليه، وغير ذلك من الحقوق... فأما العبادة والاستعانة فلله و حده لا شريك له كما قال: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].. والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة والمسألة والاستعانة...

فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء والاستعانة، والخشية والرجاء والإنابة والتوكل، والتوبة، والاستغفار، كل هذا لله وحده لا شريك له؛ فالعبادة متعلقة بألوهيته والاستعانة متعلقة بربوبيته، والله رب العالمين لا إله إلا هو، ولا رب لنا غيره، لا ملك ولا نبي ولا غيره، بل أكبر الكبائر الإشراك بالله

وأن تجعل لـه نـدًّا وهـو خلقـك، والـشرك أن تجعـل لغـيره شـركًا، أي: نـصيبًا في عبادتك وتوكلك واستعانتك". انتهى كلامه.

ويقول العلامة ابن القيم # : "ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلو في المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته، حتى جُعل فيه حظ من الإلهية، وشبهوه بالله سبحانه، وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم، الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله، وأنزل كتبه وإنكاره والرد على أهله، فهو سبحانه ينفي وينهي أن يجعل غيره مثلًا له، وندًّا له وشبهًا له، لا أن يشبه هو بغيره؛ إذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلًا لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوق أصلًا، وشبهت به الخالق، فهذا لا يعرف في طائفة م طوائف بني آدم، وإنما الأول هو المعروف في طواف أهل الشرك غلوًّا فيمن يعظمونه، ويحبونه، حتى شبهوه بالخالق، وأعطوه خصائص الإلهية؛ بل صرحوا أنه إله، وأنكروا جعل الآلهة إلهة واحدًا، وقالوا: ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦] وصرحوا بأنه إله معبود يرجى ويخاف، ويعظم ويسجد له، ويحلف باسمه وتقرب له القرابين.. إلى غير ذلك من خصائص العبادة التي لا تنبغي إلا لله تعالى، فكل مشرك فهو مشبه لإلهه ومعبوده بالله ﷻ وإن لم يشبهه به من كل وجه؛ حتى إن الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب، قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وأنه استراح لما فرغ من خلق العالم، والذين جعلوا له ولدًا وصاحبة، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا -لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلًا، ثم يشبهون به الخالق؛ وصفوه ثم يشبهون به الخالق؛ بل وصفوه بهذه الأشياء استقلالًا، لا قصدًا، أن يكو غيره أصلًا فيها وهو مشبه به.. والمقصود أنه لم يكن في الأمم من مَثَّله بخلق، وجعل

المخلوق أصلًا ثم شبهه به، وإنما كان التمثيل والتشبيه في الأمم حيث شبهوا أوثانهم ومعبوديهم به في الإلهية، وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام، فأعرض عنه وعن بيان بطلانه أهل الكلام، وصرفوا العناية إلى إنكار تشبيهه بالخلق الذي لم تعرف أمة من الأمم عليه، وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال... والقرآن مملوء من إبطال أن يكون في المخلوقات ما يشبه الرب تعالى أو يماثله، فهذا هو الذي قصد بالقرآن إبطالًا لما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله تعالى غيره قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٢]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلًا للخالق...

فالذي أنكره الله سبحانه عليهم هو تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندًّا لله تعالى يعبدونه كما يعبدون الله، وكذلك قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ فأنكر هذا التشبيه عليهم، وهو أصل عبادة الأصنام، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلًا شبهًا.. وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. قال ابن عباس: "شبهًا ومثلًا وهو من يساميه". وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابهًا للخالق، ومماثلًا له، بحيث يستحق العبادة والتعظيم، ولم يقل سبحانه: هل تعلمه سميًّا، أو مُشبهًا لغيره، فإن هذا لم يقله أحد؛ بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابهًا له مساويًا وندًّا وعدلًا، وأنكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل". انتهى كلامه.

من أعطاه الله القدرة، أو أذن له ببعض الكشوفات، والتأثيرات الخارقة للعادة، لا يجعله مستحقًّا لشيء من أنواع العبادة

لا ريب أن المستحق للعبادة هو الله -جل جلاله؛ لأنه خالق الكون ومدبر شئونه، ومن أجل هذه العبادة خلق الثقلين الجن والإنس، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأرسل رسله وأنزل كتبه لكي يخرج الناس من عبادة غير الله إلى عبادة الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وهذه العبادة المطلوبة من الخلق هي الواسطة بينهم وبين الله تعالى كما أن النبوة أو الرسالة هي الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه، وهذه العبادة التي يتحقق بها توحيد العبودية هي الركيزة التي يقوم عليها التوحيد، فإخلاص العبادة لله تعالى هو الأمر الذي طلبه القرآن من مشركي العرب في الجاهلية ليحفظوا أموالهم وأعراضهم ودماءهم، وقد حاربهم الرسول ﷺ من أجل عدم إخلاصهم في العبادة لله تعالى.

فإذا وجدنا من يظهر الله على يديه بعض الأمور الخارقة للعادة، فذلك إما أن يكون أحوالًا شيطانية، أو استدراجًا، وقد يكون من قبيل الكرامة؛ إلا أن هذا كله لا يخرج عن قدرة الله تعالى وأنه هو الذي أظهره على يد صاحب الخارق.

فإذن لا يجوز أن نعتقد في صاحب الكشوفات أو التأثيرات أو أن نصرف له شيئًا من العبادة، أو نعتقد فيه شيئًا من الربوبية كما هو معتقد أهل الأهواء والبدع. يقول الشيخ صنع الله الحلبي # في الرد على أصحاب هذا الاعتقاد: "هذا؛ وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أو للأولياء تصرفات في

حياتهم وبعد الممات، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تنكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة والقطب هو الغوث للناس، وعليه الدار بلا التباس، وهذا كلام فيه تفريط وإفراط؛ بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحققة ومصادمة الكتاب العزيز المصدق ومخالفة لعقائد الأئمة وما اجتمعت عليه الأمة". انتهى كلامه.

إجماع كثير على الإقرار بوحدانية الصانع وندرة القائلين بتعدد الآلهة:

إن التلازم التام قائم بين أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية؛ لأننا لا نتصور أن شخصًا ما يدعي أنه يؤمن بأحد أنواع التوحيد، ويرد الباقي ثم نسميه مسلمًا، أو مؤمنًا كامل الإيمان، ولأن كفار قريش لم ينفعهم إيمانهم بتوحيد الربوبية وذلك بسبب ردهم لتوحيد الألوهية، ويلزم ممن يؤمن بتوحيد الربوبية ويقربه، أن يؤمن بتوحيد الألوهية ويقر به؛ لأنه يلزم من إثبات الربوبية لله تعالى إثبات ألوهيته ضرورة.

وقد تناولنا قبل قضية مهمة وهي: هل يكفي توحيد الربوبية للدخول في الإسلام؟ وبينّا أن هذا النوع من التوحيد لا يكفي للدخول في الإسلام، ولو كان ذلك صحيحًا لاعتبر النبي ﷺ كفار قريش مؤمنين، ولما قاتلهم ولا سفك دماءهم ولا سبى ذراريهم؛ لأنهم معصومون بتوحيد الربوبية وإقرارهم بوجود الخالق لو كان ذلك النوع من التوحيد يعصم، لما نزلت آيات الوحي تندد بفعلهم وتبيِّن سوء اعتقادهم، وتنادي عليهم بالكفر والشرك، علمنا يقينا أن إثباتهم

لربوبية الله تعالى وحدها لا يكفي لدخولهم في الإسلام، بل لا بد لهم مع ذلك وهو لازم له، من اعتقادهم وإثباتهم لألوهية الله تعالى، واستحقاقه وحده؛ لأن تصرف جميع أنواع العبادات خالصة لوجهه الكريم، وقد أوضحنا بأن توحيد الربوبية وحده لا يكفي للدخول في الإسلام، فكذلك توحيد الربوبية وحده لا ينقذ من الشرك، ولا يعد من يقر به مؤمنًا داخلًا في دائرة الإسلام، وخارجًا من دائرة الشريعة.

أما التوحيد الذي يعد صاحبه داخلًا في الإسلام وخارجًا من الشرك، ويكفي للدخول في دائرة أهل الإيمان: فهو توحيد الألوهية الذي يعصم صاحبه، ويحفظ دمه وماله وعرضه، فدل ذلك على أن التوحيد الذي هو أساس الإسلام وروح العقيدة ولب التوحيد هو توحيد الألوهية.

أيهما أسبق التوحيد أم الشرك؟

لقد ناقش العلماء هذه المسألة؛ فانقسموا على رأيين:

الرأي الأول -وهو مرجوح-: الشرك أسبق من التوحيد:

حيث ذهب بعض العلماء المشتغلين بالتاريخ والآثار إلى أن الشرك كان أولًا ثم طرأ التوحيد.

واستدلوا على ما ذهبوا إليه بآثار ونقوش وجدوها، وكتابات منحوتة تدل على أن الشرك سابق لعقيدة التوحيد، واستدلوا بشيء آخر أيضًا: وهو أنهم وجدوا أن القبائل البدائية التي تعيش في أواسط إفريقيا، بعيدة عن حضارة العلم والتمدن، وهي على عقيدة الوثنية، وقالوا: إن عقيدة التوحيد مرحلة علمية

وحضارية لا تكون إلا بعد تقلبات عديدة تمر إثرها على كثير من التصورات الميتافيزيقية، أي: الغيبية، وكثير من الممارسات الوثنية: كالاعتقاد في الإنسان، أو الحيوان، أو مظهر من مظاهر الكون الأخرى، كعبادة الشمس، والقمر، والنار، والمطر، والرعد، والبرق، وأخيرًا ما وجد عند مشركي العرب من عبادة الأصنام، وهي:

تماثيل من الحجارة وضعوها على صور أشخاص مثل: هبل، وغيره من الأصنام التي يقال: إن عَمْرَو بْنَ لُحَيّ أتى بها إلى مكة قادمًا من الشام.

وهذا الرأي مرجوح.

الرأي الثاني -وهو رأي الجمهور وهو الراجح-: التوحيد أسبق من الشرك:

ويؤيد هذا الرأي الدليل والواقع؛ فإن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض وتناسلا، وكثرت ذرية بني آدم كان الله تعالى يبعث في كل أمة رسولًا، وكان أول ظهور للشرك في قوم نوح # يقول الشيخ حافظ الحكمي # :

"وأول ما ظهر في قوم نوح على المشهور، وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم # نحو عشرة قرون -كما قدمنا- وبه قال ابن عباس وغيره في تفسيره قوله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣] وذلك لأن الشيطان لعنه الله لم يزل دائبًا جادًّا مستمرًّا في عداوة بني آدم # منذ كان أبوهم طينًا، فلما نفخ الله فيه الروح، وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا كلهم إلا

إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء:٦١] وقال تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحِجر:٣٣] فلما سأله الله ﷻ عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه -والله تعالى أعلم به- فقال سبحانه له: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] فأجاب الخبيث مفتخرًا بأصله طاعنًا على ربه تعالى في حكمته وعدله: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص:٧٦] فعامله الجبار بنقيض ما قصده وأذاقه وبال حسده، وأثمر له استكباره الذل الأبدي الذي لا عز بعده: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف:١٣].... ثم كان من كيد الشيطان مما قص الله ﷻ من إلقائه الفتنة بين بني آدم، وقتل أحدهما الآخر كما في سورة المائدة، ولما مات آدم # وكان وصيه شيثا # ومضت تلك المدة التي ذكرنا، والناس كلهم على شريعة من الحق، كما قال ابن جرير # : حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود أخبرنا همام، عن قتادة، عن عكرمة عن ابن عباس } قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين" ... وقد قص الله تعالى في كتابه كل ذلك مفصلًا عن الأمم ورسلهم". انتهى كلامه.

ولما نقل ابن كثير # هذه الرواية عن ابن جرير الطبري # وهي رواية ابن عباس } كما ترون، ونقل معها روايات أخر عقب ابن كثير بقوله: "والقول الأول عن ابن عباس أصح سندًا ومعنًى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا # فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض". انتهى كلامه.

وبهذا يتضح لنا أن معرفة الله تعالى والإقرار به أمر سابق لحدوث الشرك وعبادة غير الله تعالى ؛ ولهذا لما سئل شيخ الإسلام ابن تيمية # عن دليل الفطرة وأن معرفة الله تعالى هل هي فطرية أم تنال بالنظر ؛ قال # : "يختلف باختلاف الناس ، ولكن الصحيح أنها فطرية ؛ لأنه قد ثبت أن النبي ﷺ قال : ((كل مولود يولد على الفطرة)) ولكن قد يعرض للفطرة ما يفسدها فتحتاج حينئذ إلى النظر فهي في الأصل ضرورية ، وقد تكون نظرية ثم المعرفة الواجبة لا تتعلق بنظر خاص ، بل قد تحصل ضرورية ، فتصفية النفس ورياضتها من أعظم الأسباب في حصول المعرفة الضرورية ؛ ولكن قد يحتاج إلى أمور يجب الإيمان بها فيتوقف على النظر ، فيجب النظر لما طرأ على الفطرة من الفساد ، فإن كون هذا العالم لا بد له من صانع و خالق ، ومدبر فهذا ضروري ، فكون لا يعرف هذا إلا بطريق النظر ، فيه نظر وأي نظر؟ بل هو معلوم عقلًا وواجب عقلًا ، وقد أركزه الله تعالى في فطرة مخلوقاته ، متحركها وساكنها ، ناطقها وصامتها ، حيوانها ، وجمادها ، كا تقدم أنها مسبحة بحمده عارفة به ، ففي كل شيء له آية : تدل على أنه واحد". انتهى كلامه.

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية # أيضًا في رسالة الفطرة : "ولقد حدثنا شيخنا ابن قاضي الجبل عن بعض العلماء لا أستحضره قال : لو ترك طفل رضيع في بيت لا يكلم ، وله من يقوم بأمره لعرف ربه ، ونطق بالسريانية ، وكون نطق بفطرته التي فطر عليها لم يستعبد". انتهى كلامه.

ولما ذكر ابن أبي العز الحنفي # حديث الفطرة وهو قوله ﷺ : ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) قال : "ولا يقال : إن معناه يولد ساذجًا لا يعرف توحيدًا ولا شركًا -كما قال بعضهم- لما تلونا ،

ولقوله ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: ((خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين)) الحديث، وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك؛ حيث قال: ((يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)) ولم يقل: ويسلمانه، وفي رواية: ((يولد على الملة)) وفي أخرى: ((على هذه الملة)). انتهى كلامه.

من أنكر وجود الله تعالى

لقد قدمنا أن الإقرار بالصانع، وأن للكون موجدًا، خلقه، ودبر شئونه، وقدر أموره، أمر فطري مستقر في الفطر السليمة التي لم تتأثر بالمغيرات الطارئة، وأن المشركين المعاندين المعادين للرسل في جميع الأمم لم يكن جدالهم وخصومتهم مع الرسل الواسطة بينهم وبين الله تعالى في ربوبية الله تعالى، لأن هذا أمر مجمع عليه، وإنما كانت الخصومة بين الرسل وأممهم في أمر آخر، هو توحيد الألوهية، وأن الله تعالى الذي تقر جميع الأمم بربوبيته وخالقيته أنه تصرف له جميع أنواع العبادات خالصة لوجهه الكريم من غير أن يصرف شيء منها لغيره من الوسطاء والشركاء والمقربين المزعومين، إلا أنه ظهر في بعض الأمم من يدعي إنكار وجوده هذا الخالق داعيًا أمته إلى عبادته هو والعياذ بالله تعالى.

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وكان مستيقنًا بالخالق في الباطن، يقول الشيخ ابن أبي العز الحنفي # : "وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] وأشهر

من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال موسى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء:١٠٢] وقال تعالى عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤] ولهذا لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:٢٣]؟ على وجه الإنكار وتجاهل العارف، قال له موسى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٤- ٢٨] وقد زعم طائفة أن فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية، وأن المسئول عنه لما لم يكن له ماهية عجز موسى عن الجواب! وهذا غلط، وإنما هذا استفهام إنكار وجحد، كما دل سائر آيات القرآن على أن فرعون كان جاحدًا لله نافيًا له لم يكن مثبتًا له طالبًا للعلم بماهيته، فلهذا بين لهم موسى أنه معروف، وأن آياته ودلائل ربوبيته أظهر وأشهر من أن يسأل عنه بـ: "ما هو؟" بل إنه أعرف وأظهر وأبين من أن يجهل؛ بل معرفته مستقرة في الفطر أعظم من كل معروف". انتهى كلامه.

والمقصود أن الشرك، وإن كان وجوده في العالم كثيرًا؛ إلا أن إنكار الصانع بالكلية وجحده قليل -كما قدمنا- حتى إن مشركي العرب في الجاهلية -مع فشو إشراكهم بالله تعالى، وعبادتهم الأصنام مع الله تعالى- لم يكونوا ينكرون وجود الصانع، وإنما كانوا يعبدون الأصنام مثل "هبل" و"اللات" و"العزى" و"مناة" ويزعمون أنها آلهة تقربهم من الله تعالى زلفى، وأن هذه الأصنام وإن كانت في

اعتقادهم آلهة إلا أن الله تعالى هو الإله الأكبر، أو إله الآلهة، قال تعالى -حكاية عنهم-: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٣] وقال تعالى أيضًا عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم:

لبيك لا شريك لك ❖ إلا شريكًا هو لك
تملكه وما ملك ... ...

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "وأما الربوبية فكانوا مقرين بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٣٨] وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾

[المؤمنون: ٨٤ - ٨٩].

وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث، وترزق العالم وتدبره، وإنما كان شركهم -كما ذكرنا- اتخاذهم من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئًا من دون الله كما يحب الله تعالى؛ فقد أشرك، وهذا كقوله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦ - ٩٨] وكذا من خاف أحدًا كما يخاف الله، أو رجاه كما يرجو الله... وما أشبه ذلك". انتهى كلامه.

القائلون بتعدد الآلهة

إن للقائلين بتعدد الآلهة أقوالًا شاذة بين الطوائف والملل، مع الإجماع على أنهم لم يدعوا أن للعالم صانعين متماثلين في الصفات والأفعال؛ بل لا بد أن يكون لأحد الآلهة صفة فارقة عن الآخر، وبذلك تبطل إلهيته الآخر، يقول ابن أبي العز الحنفي # : "ولم يعرف عن أحد من الطوائف أنه قال: إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال؛ فإن الثنوية من الجوس، والمانوية القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما متفقون على أن النور خير من الظلمة، هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين، وأما النصارى القائلون بالتثليث؛ فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل متفقون على أن صانع العالم واحد، ويقول: باسم الابن، والأب، وروح القدس إله واحد. وقولهم في التثليث متناقض في نفسه، والمقصود هنا: أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين، مع أن كثيرًا من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل، وزعم أنه يتلقى من السمع ... ولما كان الشكر في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال، وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثم خالقًا خلق بعض العالم، كما يقوله الثنوية في الظلمة، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان، وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة الأفلاك، أو حركات النفوس، أو الأجسام

الطبيعية ؛ فإن هؤلاء يثبتون أمورًا محدثة بدون إحداث الله إياها ، فهم مشركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئًا من نفع أو ضر ، بدون أن يخلق الله ذلك ، فلما كان هذا الشرك موجودًا في الناس بين القرآن بطلانه ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١] فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا ، يوصل إلى عابده النفع ، ويدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة... فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه ، فكذا تبطل إلهية اثنين". انتهى كلامه # .

وبهذا يتضح تخبط القائلين بتعدد الآلهة ، ويبطل تصور إلهين متصرفين في الوجود ، فلم يبقَ إلا الرجوع إلى الحق ، وموافقة الفطرة السليمة والإيمان بربوبية الله تعالى وحده وتحقيق إلهيته ﷻ والله تعالى أعلم.

بيان أن اعتقاد أهل الحلول والاتحاد من الشرك في الربوبية، وبيان بطلانه ونقضه

عناصر الدرس

العنصر الأول : المراد بالحلول والاتحاد ٦١
العنصر الثاني : من هم أصحاب هذا المعتقد الفاسد؟ ٦٦
العنصر الثالث : بطلان هذا المعتقد بالعقل والنقل ٦٩

المـــراد بـــالحلول والاتحـــاد

نحن أمام موضوع جديد، ومع أصحاب اعتقاد فريد، ألا وهو اعتقاد أهل الحلول والاتحاد من غلاة الصوفية والملاحدة والزنادقة، وهو نوع من الشرك في الربوبية.

من هم أهل الحلول والاتحاد؟

هناك من غلا في إثبات الربوبية، مع أن أدلتها في مظاهر الكون كثيرة، حيث ذهب إلى هذا الاعتقاد الفاسد غلاة الصوفية الذين يرون أن الحق -جل وعلا- حل في كل مخلوق، واتحد بكل شيء، فإذا نظر أحدهم إلى أي مظهر من مظاهر الكون اعتقد أنه ينظر إلى الله -جل جلاله- حتى إذا سئلوا عن هذا الكون، قالوا: ما ثم إلا الله.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية # حقيقة هذا الاعتقاد الباطل بقوله: "حقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة، ولهذا من سماهم حلولية، أو قال هم قائلون بالحلول رأوه محجوبًا عن معرفة قولهم، خارجًا عن الدخول إلى باطن أمرهم؛ لأن من قال: إن الله يحل في المخلوقات فقد قال بأن المحل غير الحالِّ، وهذا تثنية عندهم وإثبات لوجودين:

أحدهما: وجود الحق الحالِّ.

الثاني: وجود المخلوق المحل، وهم لا يقرون بإثبات وجودين البتة. ولا ريب أن هذا القول أقل كفرًا من قولهم، وهو قول كثير من الجهمية الذين كان السلف

يردون قولهم، وهم الذين يزعمون أن الله بذاته في كل مكان، وقد ذكره جماعات من الأئمة والسلف عن الجهمية، وكفروهم به، بل جعلهم خلق من الأئمة: كابن المبارك، ويوسف بن أسباط، وطائفةٌ من أهل العلم والحديث من أصحاب أحمد وغيره. خارجين بذلك عن الثنتين والسبعين فرقة. وهو قول بعض متكلمة الجهمية وكثير من متعبديهم، ولا ريبَ أن إلحاد هؤلاء المتأخرين وتجهمهم وزندقتهم تفريع وتكميل لإلحاد هذه الجهمية الأولى وتجهمها وزندقتها.

وأما وجه تسميتهم اتحادية ففيه طريقان:

أحدهما: لا يرضونه؛ لأن الاتحاد على وزن الاقتران، والاقتران يقتضي شيئين: أحدهما بالآخر وهم لا يقر ون بوجودين أبدًا.

الثاني: صحة ذلك بناءً على أن الكثرة صارت وحدة -كما سنبينه من اضطرابهم- وهذه الطريقة إما على مذهب ابن عربي، فإنه يجعل الوجود غير الثبوت، ويقول: إن وجود الحق قاضي على ثبوت الممكنات، فيصح الاتحاد بين الوجود والثبوت، وأما على قول من لا يفرق فيقول: إن الكثرة الخيالية صارت وحدة بعد الكشف، أو الكثرة العينية صارت وحدة إطلاقية، ولما كان أصلهم الذي بنوا عليه: أن وجود المخلوقات والمصنوعات حتى وجود الجن والشياطين، والكافرين والفاسقين، والكلاب والخنازير والنجاسات والكفر، والفسوق والعصيان عينُ وجود الرب، لا أنه متميز عنه منفصل عن ذاته، وإن كان مخلوقًا له، مربوبًا مصنوعًا له، قائمًا به، وهم يشهدون أن في الكائنات تفرقًا وكثرةً ظاهرةً بالحس والعقل، فاحتاجوا إلى جمع يزيل الكثرة، ووحدة ترفع التفرق مع ثبوتها، فاضطربوا على ثلاث مقالات.

ونحن هنا نبين هذه المقالات، وإن كانوا هم لا يبين بعضُهم مقالةَ نفسِه، ومقالةَ غيره؛ لعدم كمال شهود الحق وتصوره.

المقالة الأولى: مقالة ابن عربي صاحب (فصوص الحكم):

وهي مع كونها كفرًا، فهو أقربهم إلى الإسلام لما يوجد في كلامه من الكلام الجيد كثيرًا؛ ولأنه لا يثبت على الاتحاد ثبات غيره؛ بل هو الاضطراب فيه، وإنما هو قائم مع خياله الواسع الذي يتخيل فيه الحق تارةً، والباطل أخرى. والله أعلم بما مات عليه.

ومقالته مبنية على أصلين:

الأصل الأول: أن المعدوم شيء ثابت في العدم، موافقة لمن قال ذلك من المعتزلة والرافضة، وأول من ابتدع هذه المقالة في الإسلام: أبو عثمان الشحَّام شيخ أبي علي الجبائي، وتبعه عليها طوائف من القدرية المبتدعة من المعتزلة والرافضة، وهؤلاء يقولون: إن كل معدوم يمكن وجوده، فإن حقيقته وماهيته وعينه ثابتة في العدم؛ لأنه لولا ثبوتها لما تميز عن المعلوم المخبر عنه من غير المعلوم المخبر عنه، وكما صح قصد ما يراد إيجاده؛ لأن القصد يستدعي التمييز، والتمييز لا يكون إلا في شيء ثابت. لكن هؤلاء -وإن ابتدعوا هذه المقالة التي هي باطلة في نفسها، وفي كفرهم بها طوائف من متكلمة السنة- يعترفون بأن الله خلق وجودها ولا يقولون: إن عين وجودها عين وجود الحق.

وأما صاحب (الفصوص) وأتباعه فيقولون: عين وجودها عين وجود الحق، فهي متميزة بذواتها الثابتة في العدم، متحدة بوجود الحق القائم بها. وعامة كلامه ينبني على هذا لمن تدبره وفهمه...

وهؤلاء القائلون بأن المعدوم شيء ثابت في العدم -سواء قالوا بأن وجودها خلق لله أو هو الله- يقولون: إن الماهيات والأعيان غير مجعولة ولا مخلوقة، وإن وجود كل شيء قدر زائد على ماهيته، وقد يقولون: الوجود صفة للموجود. وهذا القول وإن كان فيه شبه بقول القائلين بقدم العالم، أو القائلين بقِدم مادة العالم، و"هيولاه" المتميزة عن صورته فليس هو إياه، وإن كلتيهما قدر مشترك؛ فإن هذه الصورة المحدثة من الحيوانات والنبات والمعادن ليست قديمة باتفاق جميع العقلاء؛ بل هي كائنة بعد أن لم تكن...

واعلم، أن المذهب إذا كان باطلًا في نفسه، لم يمكن الناقد له أن ينقله على وجه يتصوره تصورًا حقيقيًّا؛ فإن هذا لا يكون إلا للحق، فأما القول الباطل فإذا بين فبيانُه يظهر فساده، حتى يقال: كيف اشتبه هذا على أحد، ويتعجب من اعتقادهم إياه، ولا ينبغي للإنسان أن يعجب، فما من شيء يتخيل من أنواع الباطل إلا وقد ذهب إليه فريق من الناس، ولهذا وصف الله أهل الباطل بأنهم أموات، وأنهم: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة:18] وأنهم: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأعراف:179]، وأنهم: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:22]، وأنهم: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [يونس:11]...

فهذا أحد أصلي ابن عربي.

الأصل الثاني: فقولهم: إن وجود الأعيان نفس وجود الحق وعينه، وهذا انفردوا به عن جميع مشيئة الصانع من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والمشركين، وإنما هو حقيقة قول فرعون والقرامطة المنكرين لوجود الصانع -كما سنبينه إن شاء الله- فَمَنْ فَهِمَ هذا فهم جميعَ كلام ابن عربي نَظْمَه ونَثْرَه، وما يدعيه من أن الحق يغتذي بالخلق؛ لأن وجود الأعيان مغتذٍ بالأعيان الثابتة في العدم.

ولهذا يقول بالجمع من حيث الوجود، وبالفرق من حيث الماهية والأعيان، ويزعم أن هذا هوس القدر.. فتدبر كلامه كيف انتظم شيئين:

"إنكار وجود الحق، وإنكار خلقه لمخلوقاته، فهو منكر للرب الذي خلق، فلا يقر بربٍّ، ولا خلقٍ، ومنكر لرب العالمين، فلا رب ولا عالمون مربوبون، ولا الوجود مربوب، ولا الأعيان مخلوقة، ولا الوجود مخلوق". انتهى كلامه.

وقال الشيخ حافظ الحكمي # ، وهو يعدد الملاحدة في توحيد المعرفة والإثبات-: "الطائفة الثالثة: الاتحادية. وهم القائلون: إن الوجود بأسره هو الحق، وأن الكثرة وهم؛ بل جميع الأضداد المتقابلة، والأشياء المعارضة، الكل شيء واحد هو معبودهم في زعمهم، وهم طائفة ابن عربي الطائي صاحب (الفتوحات المكية)، و(فصوص الحكم)، وغيرها، حرف فيه الكلم عن مواضعه، وتلاعب فيه بمعاني الآيات، وأتى بكفر لا يشبه كفر اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، ولا النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وقالوا: هو الله، وقالوا: ثالث ثلاثة؛ فإن النصارى وأشباههم خصوا الحلول والاتحاد بشخص معين، وهؤلاء جعلوا الوجود بأسره على اختلاف أنواعه ويقابل أضداده مما لا يسوغ التلفظ بحكايته، هو المعبود، فلم يكفر هذا الكفر أحد من الناس، وكان هذا المذهب الذي انتحله ابن عربي، ونظمه ابن الفارض في تائيته (نظم السلوك) وأصل هذا المذهب الملعون انتحله ابن سبعين عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن محمد بن نصر بن محمد بن قطب الدين أبو محمد المقدسي الرقوطي، نسبته إلى "رقوطة" بلدة قريبة من "مرسية". وُلِدَ سنة أربع عشرة وستمائة، واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولد له الإلحاد من ذلك، وصنف فيه... وقد أقام بمكة... وجاوز بعض الأوقات بغار حراء، يرتجي فيه الوحي أن

ينزل عليه كما أتى النبي ﷺ بناءً على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أن النبوة مكتسبة، وأنها فَيْض يفيض على العقل إذا صفا، فما حصل له إلا الخِزي في الدنيا والآخرة إن كان مات على ذلك، وكان إذا رأى الطائفين حول البيت، يقول عنهم: كأنهم الحمير حول الدار، وأنهم لو طافوا به كان أفضل من طوافهم بالبيت". انتهى كلامه.

من هم أصحاب هذا المعتقد الفاسد؟

لقد قلنا عند ذكرنا لهذه المقالة الشنيعة: أن بعضًا من غلاة الصوفية المشتغلين بالفلسفة، وعلم السيمياء، وعلم الأوائل، هم الذين ذهبوا إلى هذا القول الشنيع؛ وهو أن الله -تعالى عن قولهم- حل في المخلوقات، واتحد بها، وهذا الاتحاد والحلول إما عام، وإما خاص.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # :

"واعلم، أن هذه المقالات لا أعرفها لأحد من أمة قبل هؤلاء على هذا الوجه؛ ولكن رأيت في بعض اكتب الفلسفة المنقولة عن أرسطو، أنه حكى عن بعض الفلاسفة قوله: إن الوجود واحد، وردَّ ذلك، وحسبك بمذهب لا يرضاه متكلمة الصائبين، وإنما حدثت هذه المقالات بحدوث دولة التتار، وإنما كان الكفر الحلول العام، أو الاتحاد، أو الحلول الخاص، وذلك أن القسمة رباعية؛ لأن من جعل الرب هو العبد حقيقة؛ فإما أن يقول بحلوله فيه، أو اتحاده به، وعلى التقديرين فإما أن يجعل ذلك مختصًّا ببعض الخلق كالمسيح، أو يجعله عامًّا لجميع الخلق.

فهذه أربعة أقسام:

الأول: الحلول الخاص؛ وهو قول النسطورية من النصارى ونحوهم ممن يقول: إن اللاهوت حل في الناسوت وتدرع به كحلول الماء في الإناء، وهؤلاء حققوا كفر النصارى بسبب مخالطتهم للمسلمين، وكان أولهم في زمن المأمون، وهذا قول من وافق هؤلاء النصارى من غالية هذه الأمة، كغالية الرافضة الذين يقولون: إنه حل في على بن أبي طالب، وأئمة أهل بيته، وغالية النساك الذين يقولون بالحلول في الأولياء، ومن يعتقدون فيه الولاية، كابن حلاج ويونس والحاكم، ونحو هؤلاء.

الثاني: الاتحاد الخاص؛ وهو قول يقوبية النصارى، وهم أخبث قولًا، وهم السودان والقبط، يقولون: إن اللاهوت والناسوت اختلطَا وامتزجَا كاختلاط اللبن بالماء، وهو قول مَن وافق هؤلاء من غالية المنتسبين إلى الإسلام.

الثالث: الحلول العام؛ وهو القول الذي ذكره أئمة أهل السنة والحديث عن طائفة من الجهمية المتقدمين، وهو قول غالب متعبدة الجهمية الذين يقولون: إن الله بذاته في كل مكان، ويتمسكون بمتشابه من القرآن كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ٣] وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ ﴾ [الحديد: ٤] والرد على هؤلاء كثير مشهور في كلام أئمة السنة، وأهل المعرفة وعلماء الحديث.

الرابع: الاتحاد العام؛ وهو قول هؤلاء الملاحدة الذين يزعمون أنه عين وجود الكائنات، وهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى". انتهى كلامه.

رؤساء الغُلاة من الصوفية القائلون بالحلول والاتحاد:

١- أبو بكر محي محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بابن عربي، ولد بمرسية سنة سنة ٥٦٠هـ، ونشأ بها وترحل في البلدان، وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٣٨هـ.

وذكر صاحب (جلاء العينين) أن له اختيارات فقهية وغيرها تعد من الأقوال الغريبة: "منها: قوله: بجواز مسح الرجلين في الوضوء، ومنها: قوله: بجواز السجود في التلاوة إلى أي وِجْهة كانت، ومنها: جواز إمامة المرأة للنساء والرجال، ومنها: قوله: إن الماء الذي تخالطه النجاسة ولم يتغير أحد أوصافه مطهر غير طاهر في نفسه... ومنها: أن غسل يوم الجمعة فرض، وإليه ذهب أيضًا بعض العلماء، ومنها: أنه لا يؤثر نزع الخف في طهارة القدم، ومنها: أنه لا يجوز أن يُسمى الله تعالى "مختارًا"، كما نقله عنه الجيلي، ومنها: القول بإيمان فرعون، ومنها: عدم القضاء على تارك الصلاة". انتهى كلامه.

٢- أبو حفص عمر بن أبي الحسن الحموي الأصل المصري المولد، والدار، والوفاة، المعروف بابن الفارض، ولد سنة ٥٧٦هـ بالقاهرة، وتوفي بها سنة ٦٣٢هـ ومن شعره المشعر بالحلول والاتحاد، وما ذكره صاحب (مصرع التصوف)،

وهو قوله:

لها صلواتي بالمقام أقيمها	وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصل ساجد إلى	حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن	صلاتي لغيري في أداء كل ركعة

٣- ومنهم: الحلاج، والعفيف التلمساني، والقونوي، وابن هود، وابن سبعين، وتلميذه الششتري، وابن مظفر، والصفار، ومَن تبعهم على هذه المقالة الشنيعة، التي ينكرها الشرع والعقلُ كما سنبينه في العنصر التالي:

بطلان هذا المعتقد بالعقل والنقل

لا يشك عاقل في أن القائل: "ما في الجبة إلا الله" أو"سبحاني ما أعظم شاني" كما هو منقول عن البسطامي.

أو كما قال الآخر:

الرب حق والعبد حق ❖ يا ليت شعري مَن المكلف؟
إن قلت عبد فذاك ميت ❖ أو قلت: رب أنى يكلف؟

وقول الآخر:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه عينه

وقول الاتحادي الآخر:

وما أنت غير الكون ❖ بل أنت عينه
ويفهم هذا السر ❖ من هو ذائقه

إن هذه الأقوال تؤدي للكفر -والعِياذ بالله تعالى- لأنها تجعل الخالق عين المخلوق، وتلغي الفرق بين الحي الذي يموت، وبين الحي الذي لا يموت، بل قل: إنها تنفي وجود الرب -تبارك وتعالى- وتجعل الإنسان إلهًا، كما صرح بذلك بعض المتبعين لطريقة هؤلاء الغلاة من الصوفية المتفلسفين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # :

"وقد كان عندنا بدمشق الشيخ المشهور الذي يقال له: ابن هود، وكان من أعظم من رأيناه من هؤلاء الاتحادية، زهدًا ومعرفة ورياضة، وكان من أشد الناس تعظيمًا لابن سبعين، ومفضلًا له عنده على ابن عربي وغلامه إسحاق، وأكثر الناس من الكبار والصغار، وكانوا يطيعونه، وكان أصحابه الخواص به يعتقدون فيه أنه الله، وأنه المسيح ابن مريم ويقولون: إن أمه كان اسمها مريم". انتهى كلامه.

وقال أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى) مبينًا بطلانَ عقيدة الحلول والاتحاد:

"مذهب هؤلاء الاتحادية كابن عربي، وابن سبعين، والقونوي، والتلمساني، مركب من ثلاثة مواد: سلب الجهمية، وتعطيلهم، ومجملات الصوفية، ومن الزندقة الفلسفية التي هي أصل التجهم". انتهى.

ومما يبطل معتقدهم هذا زعمهم أن فرعون مات مؤمنًا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "وهذا القول كفر معلوم، فساده بالاضطرار من دين الإسلام لم يسبق ابن عربي إليه أحد فيما أعلم من أهل القبلة، بل ولا من اليهود ولا من النصارى، بل جميع أهل المِلل مطبقون على كفر فرعون". انتهى كلامه.

وبالجملة:

فقد دل النقل على بطلان عقيدة الحلول والاتحاد، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] كما وافقه العقل أيضًا على بطلان وتهافت هذا الاعتقاد؛ لأن العقل الصحيح يمنعه أن يتصور أن الحي الذي لا يموت يحل في جسد الجماد أو الحي الذي يموت ويفنَى، كما أنه يلزم على قول الاتحادية أن يحل الخالق –تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- في الحيوانات كالكلب والخنزير، كما صرح بذلك شاعرهم حيث يقول:

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا ❖ وما الله إلا راهب في كنيسة

كما أنه يحل في الأماكن المستقذرة -على قولهم المستقبح- وكل هذا يرده أهلُ العقول السليمة، والفِطر المستقيمة.

بيان ما هو الإلحاد قديمًا وحديثًا
وإبطاله على ضَوء الكتاب والسنة

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تعريف الإلحاد لغةً واصطلاحًا	٧٥
العنصر الثاني	:	أسباب ظهور الإلحاد	٧٧
العنصر الثالث	:	آثار الإلحاد	٨٣
العنصر الرابع	:	الرد على الملحدين	٨٤

تعريف الإلحاد لغةً واصطلاحًا

أولًا: الإلحاد لغة:

إذا تتبعنا كلمة "لحد" في المعاجم اللغوية وجدناها تشير إلى معنى الميل والتجافي، والعدول والمخاصمة، والظلم، والشق، والطعن والجدال والمماراة.

ففي (مختار الصحاح): "يقول: ألحد الرجل في دين الله، أي: حاد عنه، وعدَلَ، ولحد من باب قطع لغة فيه: وقرئ: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ [النحل:١٠٣] والْتَحَدَ مثله، وألحد الرجل: ظلم في الحرم. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ﴾ [الحج:٢٥] أي: إلحادًا بظلم والباء زائدة". انتهى بحروفه.

وفي (المصباح المنير): يقال: "لحد الرجل في الدين لحدًا، وألحد إلحادًا: طعَنَ. قال بعض الأئمة: والملحدون في زماننا هم الباطنية الذين يدَّعون أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأنهم يعلمون الباطن فأحالوا بذلك الشريعة؛ لأنهم تأولوا بما يخالف العربية التي نزل بها القرآن، وقال أبو عبيدة: ألحد إلحادًا: جادل ومارَى، ولحد: جار وظلم، وألحد في الحرم بالألف: استحل حرمته وانتهكها". انتهى.

وقال الفيروزآبادي اللغوي # : "يقال: ألحد الرجل إلى الرجل: إذا مال كالْتَحَدَ، وألحد: مال وعدل ومارى وجادل، وألحد في الحرم: ترك القصد فيما أمر به، وأشرك بالله، أو ظلم أو احتكر الطعام، وألحد بزيد: أزرى به وقال عليه باطلًا". انتهى كلامه.

ثانيًا: الإلحاد اصطلاحًا:

يوضح لنا عبد الرحمن عبد الخالق المراد بالإلحاد في كتابه (الإلحاد):

"الإلحاد: الكفر بالله، والمَيْل عن طريق أهل الإيمان والرشد، وظهور التكذيب بالبعث والجنة والنار، وتكريس الحياة كلها للدنيا فقط... وقد أصبح الإلحاد هو الدين الرسمي المنصوص عليه في كل دساتير البلدان الأوربية والأمريكية، ويعبر عن ذلك بالعلمانية تارةَ، واللا دينية تارةً أخرى، وكل ذلك يعني الإلحاد والكفر بالله". انتهى كلامه.

ويقول الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان بعد أن ذكر أنه سيتتبع أقوال المعجميين العرب والمفسرين والكتاب المحدثين لبيان مصطلح الإلحاد:

وقد وصلتُ بواسطة هذا المنهج إلى النتائج التالية:

١- إن معاجم اللغة حددت الإلحاد في الدين بأنه الميل أو العدول عنه أو الكفر، وكان تفسير الإلحاد بالكفر واضحًا في المعاجم الحديثة التي ألفت في القرن العشرين.

٢- أن فَهم المفسرين لمادة "لحد" في القرآن يمكن تلخيصها في أنه: ميل عن دين الله إلى درجة الكف. وفي حالة واحدة فسروا الإلحاد في سورة "الحج": بأنه المعصية في الحرم، ولكن المعصية في الحرم إذا قيست بمثلها في مكان آخر كانت شديدة.

٣- أن الكتاب المحدثين يستخدمون كلمة "إلحاد" فيما هو كفر وخاصة اعتناق المذاهب المادية.

والخلاصة: أن كلمة "إلحاد" في العصر الحديث تُستعمل في الكفر، ولهذا ما يسنده في كتب اللغة قديمًا وحديثًا وفي فهم المفسرين لمادة "لحد" في القرآن الكريم".

ثم يقول عن تناول المعاجم الحديثة لكلمة "إلحاد":

"إذا ما وصلنا إلى القرن العشرين نجد أن المعاجم الحديثة تحدد تحديدًا أكثر، وعبارتها تكاد تكون متقاربة، فمن قائل: إن لحد وألحد بمعنى شك في الله تعالى. ومن قائل: إن الملحد هو الكافر، وأن الملاحدة هم الدهريون، فهم يحشرون الاستعمالات التي تبين أن لحد وألحد في الدين تؤدي معنى الكفر. ويلاحظ أن المعاجم الحديثة استعملت كلمة "إلحاد" وفسرتها بأنها الكفر". انتهى كلامه.

وعمومًا فإن الإلحاد في الغرب كان يطلق على المتطاول على الربوبية، كما قالوا: "لقد مات الله"! بينما الإلحاد في العالم الإسلامي يتطاول على النبوة في قولهم: "لقد انتهت الرسالة"، ولا فرق بين الإلحادَيْن.

أسباب ظهور الإلحاد

السبب الأول: حقد أعداء الإسلام على انتشار الإسلام بين البلدان، وكثرة فتوحاته:

لا شك أن المسلمين عاشوا فترة من الزمن ليست قليلة حياة إسلامية صافية، حيث بلغت حضارة الإسلام أوجهها، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، فشملت الأندلس وما وراء النهرين وشمال إفريقيا، ودخلت أراضي أوروبية في هذه الخارطة حتى وصل المجاهدون المسلمون إلى مشارف باريس عاصمة فرنسا. ولا شك أن هذا المد الإسلامي المبارك قد يتولد من جرائه حاقدون على الإسلام؛ بسبب قضائه على ممالك كثير من الشعوب التي دخلت في الإسلام.

وكذلك قضاؤه على كثير من الماجنين الذين عاشوا حياة الترف، والمنفتحين الذين درسوا الفلسفات القديمة وتأثروا بها.

كل هذه المؤثرات أدت بالفعل إلى ظهور الإلحاد وانتشاره بين المسلمين. إضافة إلى ذلك العمل الدءوب لبعثات التبشير والتنصير التي كانت تدعمها الكنيسة النصرانية، وعمل الماسونية العالمية.

ثم جاء المستشرقون في العصر الحديث فأدوا دورهم على أحسن وجه، محاولين القضاء على المد الإسلامي وإشعاع الحضارة الإسلامية الذي بدأ يغطي على المسيحية واليهودية في عقر دار كل من تلك الديانتين، وتحتم هذا الدور عندما فشلت الحملات الصليبية في تحقيق هدفها من السيطرة على المسلمين، ونهب خيراتهم، وردهم عن دينهم إلى دين النصارى، فكانت كل تلك المؤثرات باعثة لظهور الإلحاد وتياره الجارف والقوي في العالم الإسلامي.

يقول الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان في كتابه: (جهود المفكرين المسلمين المحدثين في مقاومة التيار الإلحادي): "إن الفكر المادي الغربي والاستشراقي الذي انتشر في العالم الإسلامي هو الذي كون -إلى جانب أسباب أخرى، ومنها الفراغ- الفكري التيار الإلحادي الذي شغل الباحثين. وأثار اهتمامهم، فشرحوه وحاولوا مقاومته بتفنيده، وبيان تعارضه مع الدين الإسلامي، وبيان أن الحضارة التي تكفل السعادة للإنسان في دنياه وآخرته لا تتحقق إلا بالإسلام، وأن هذا الفكر المادي الذي يدمر القيم، وذلك الفكر الاستشراقي الذي يهدف إلى تدمير الإسلام هو الذي سيقضي على السعادة الإنسانية.

نقول:

إن الفكر الغربي ومقاومته شغلَا الباحثين في العالم الإسلامي -كما سنبينه- وإلى هذا نستطيع القول: بأن النهضة العلمية التي بدأت في الشرق الإسلامي في القرن التاسع عشر، تسببت في سريان موجة الإلحاد بسبب اعتناق بعض الذين تأثروا بهذا الفكر الغربي المادي ودافعوا عنه، وبدأ في كثير من الذين تعلموا على أيدي أساتذة غربيين. ولكنه شاع بعد ذلك في كثير من المتعلمين في العالم الإسلامي، بل وصل إلى أنصاف المتعلمين من الذين رددوا الفكر الماركسي والوجودي، وليس الفكر المادي الغربي وحده هو الذي سبب التيار الإلحادي؛ بل إن الفكر الاستشراقي أيضًا الذي كان قَوامه هجومًا على الإسلام وإضعاف ثقة أهله به، كان سببًا رئيسًا أيضًا في تكوين التيار الإلحادي.

فعندما قامت الحروب الصليبية لقهر الإسلام وللنيل منه ولم تستطع أن تحقق أهدافها وفشلت فشلًا ذريعًا، وأُسِرَ لويس التاسع بالمنصورة، وأفرج عنه بالفدية، أدرك لويس التاسع أنه لا يمكن قهر المسلمين والقضاء على الإسلام في عهده على الأقل. ولهذا وضع مخططًا كان أهم ما فيه هو:

استبدال الحملات الصليبية الحربية بحملات سلمية تؤدي نفس الغرض، ومنها أيضًا تجنيد المبشرين لتشكيك المسلمين في الإسلام أو وقف انتشاره على الأقل. وعندما جاء العصر الحديث وأصبح لأوروبا مصلحة اقتصادية في بلاد المسلمين، أدرك الساسة الأوروبيون أنهم لا يستطيعون أن يسيطروا على هذه البلاد طالما كان الإسلام قويًّا ومسيطرًا على نفوس أهله، فعمِلَ هؤلاء الساسة -بعد أن استعمروا هذه البلاد- على محو الإسلام، أو على الأقل إضعاف تمسك أهله به؛ فالمسيحيون لهم هدف في محو الإسلام.

وهذا الهدف يعتمد على اتجاهين أساسيين هما:

التنفيس عن حقدهم الناتج عن هزائمهم في الحروب الصليبية، والمصلحة الاقتصادية التي لا يمكن أن تستقيم لهم طالما كان الإسلام بمبادئه سائدًا في بلاد المسلمين. وهذه الأهداف لاحظها كثير من الكتاب، فحصر ناصر الدين -وهو مصور فرنسي عاش في الجزائر، ثم أعلن إسلامه عام ١٩٢٧م- أعداءَ الإسلام في طائفتين هما:

أ) رجال السياسة الاستعماريون.

ب) رجال الدين المتعصبون...

وإذا نحن شئنا أن نحصي أكاذيبهم علينا، لوجدنا فيها صفحة هي أسود الصفحات خزيًا في سجل التعصب، يشترك في تسويدها أعداء الإسلام قديمهم وحديثهم سواء من العلماء والرواد والقساوسة، ورجال الحكومات، والكتاب أمثال: "بيرون"، "بلجراف"، و"جلادستون"، و"مرجليوث"، و"قسيس كانتبري"، و"الأب ماتس"، و"الكاتب لوي برتران"، و"سرقييه" فهم إذن رجال سياسة مستعمرون ورجال دين متعصبون. فأما رجال السياسة فقد أعلنوها حربًا على المسلمين بدأت في القرن التاسع عشر، وأعلنوا أن هذه الحرب هي حرب صليبية، كما أن الغلبة لن تدوم لهم طالما أن الإسلام موجود في بلاد المسلمين.

يقول المهندس زكريا هاشم، وقد استولى المارشال "اللنبي" على بيت المقدس في عام ١٩١٨م باسم الحلفاء، وقد قال مثل هذه العبارة. إذ نادى عند هيكل سليمان: اليوم انتهت الحروب الصليبية.... ويقول أيضًا: وأشير إلى صيحة غلادستون رئيس الوزراء البريطاني في عهد الملكة فيكتوريا في مجلس العموم

البريطاني، وهو ممسك بالقرآن في يده، قائلًا: إنه ما دام هذا الكتاب باقيًا في الأرض، فلن يقر لنا قرار في بلادهم!

وأما رجال الدين المَسيحي المتعصبون، فقد طعنوا في الإسلام مطاعنَ كثيرة، ونشروا هذه المطاعن في البلاد الإسلامية في الهند وفي البلاد العربية، وفي غير ذلك، وبذل الاستعمار جهدًا عظيمًا في التمكين لهؤلاء المبشرين لنشر أفكارهم".

انتهى كلامه.

السبب الثاني: الانحطاط الذي مُنيت به الكنيسة الأوربية:

يقول الأستاذ عبد الرحمن عبد الخالق:

"لقد كانت الكنيسة الأوربية سببًا غير مباشر أحيانًا ومباشرًا أحيانًا أخرى في نشر الإلحاد والزندقة والكفر الكامل بوجود الله، وذلك لأن القائمين على هذه الكنيسة من الرهبان والقساوسة أدخلوا في دينهم كثيرًا من الخرافات والخزعبلات، وجعلوها عقائد دينية. كرفعهم عيسى # من مرتبة البشرية إلى الألوهية، وظهور فكرة الخطيئة والصلب، والخلاص، وأضافوا إلى ذلك كثيرًا من الخرافات الدارجة عن الأرض والكون والحياة.

وعندما بدأ عصر النهضة الأوربية واكتشف بعض العلماء حقائق جديدة عن الأرض والكون والحياة، هَبَّ الرهبان والقساوسة ينكرون ذلك، ويتهمون مَن يعتقد بالحقائق الجديدة، ويصدق بها بالكفر والزندقة، ويوعزون إلى السلطات الحاكمة بقتلهم وحرقهم بالنار، ولقد لقي كثير من العلماء هذا المصير المؤلم جزاء مخالفتهم لآراء الكنيسة...

وابتدأت آراء الكنيسة ومعتقداتها في كل يوم هزيمة جديدة، وكانت الجولة في النهاية لعلماء المادة على رجال الكَهَنوت، فاندفع الناس نحو الإيمان بالعلم المادي كإله جديد سيحمل الرخاء والقوة والرفاهية للناس، وفتش الناس أسرار الكنيسة، فهالهم ما رأوه من فساد أخلاقي بين الرهبان والراهبات، وأرادوا التخلص إلى غير رجعة من السلطان الكهنوتي والقهر الزمني الذي مارسته الكنيسة ضدهم، ومن الإتاوات والضرائب التي فرضتها الكنيسة على رقابهم، فكان الفض الكامل لكل المعتقدات الدينية، والكراهية العامة لكل عقيدة تنادي بالإيمان بالغيب، واتهام الرسل جميعًا بالكذب والتدليس. وهكذا برزت الموجة الأولى من موجات الإلحاد العالمي". انتهى كلامه.

السبب الثالث: مظالم العالم الرأسمالي:

حيث إن الناس ما إن تخلصوا من سلطان الكنيسة جزئيًّا، حتى وقع الناس تحت سلطان جديد وقهر؛ بسبب اكتشاف الناس لقوة التجار والآلة، فحاز الرأسماليون المصانع الكبيرة والثروات الضخمة، واستغلوا العمال استغلالًا فاحشًا، فانتشرت المظالم بين الفقراء والفلاحين، فكان ذلك سببًا جديدًا في انتشار الإلحاد والشك في وجود الله تعالى. وكذلك ظهور المذاهب الاقتصادية الإلحادية وخاصة الشيوعية التي بشر بها "كارل ماركس" -اليهودي الألماني الذي تنصر والده- حتى كان شعار أصحاب هذا المذهب: "لا إله، والحياة مادة".

السبب الرابع: هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوربية:

هزيمة العالم الإسلامي أمام الهجمة الأوربية التي حملها المستعمرون وطفقت الشعوب الإسلامية تقلد المستعمر وتتشبه بأخلاقه وعاداته وتدخل في عقيدته الإلحادية.

آثار الإلحاد

لعل أهم آثار الإلحاد المعاصر في العالم والذي يظهر جليًّا في سلوك الإنسان، وفي أخلاق الأمم ونظام المجتمعات، ينحصر في الآتي - حسب رؤية عبد الرحمن عبد الخالق في كتابه (الإلحاد):

أولًا: القلق والصراع النفسي: فأول الآثار التي يخلفها الإلحاد في نفوس الأفراد، هو القلق والحيرة والاضطراب والصراع والتمزق النفسي، وذلك أن داخل كل إنسان فطرة تلح عليه وتسأله أسئلة تتلجلج في صدره، تقول له: لماذا خلقنا؟ ومن خلقنا؟ وإلى أين نسير؟ وإذا كان الإنسان تشغله همومه المعيشية وشواغله الدنيوية عن البحث عن الإجابة على هذه الأسئلة، فإن الإنسان قد يصطدم أحيانًا بعوامل تجعله مضطرًّا –أحيانًا- للبحث عن أجوبة لهذه الأسئلة، والبحث عن سر الحياة والكون، والمصير.

ولما كان الإلحاد عقيدة جهلانية؛ لأنه يقوم على افتراض عدم وجود إله، فإنه لا يقوم شيئًا يخرج الإنسان من الحيرة والقلق والصراع النفسي، فيبقى لغز الحياة محيرًا للإنسان، ويبقى رؤية الظلم والمصائب التي يلاقيها الإنسان في حياته كابوسًا يخيم على النفس، ويظل الإلحاد عاجزًا عن فهم غاية الحياة والكون، ولا يقدم للإنسان أجوبة تشفي العليل أو تروي الغليل. ومع إلحاح الفطرة الداخلية وتردد الأسئلة الكامنة في النفس، يظل الإنسان يعيش حالة من القلق والتمزق والصراع النفسي.

ثانيًا: الأنانية والفردية: وهذا الأثر نتيجة حتمية للصراع النفسي والقلق والحيرة، ونقصد به اهتمام الإنسان بمصالحة الشخصية، بعيدًا عن بذل المعروف والإحسان للآخرين كما هو ديدن المتدينين.

ثالثًا: فقدان الوازع، والنزوع إلى الجريمة: وذلك لأن الإلحاد لا يربي الضمير، ولا يخوف الإنسان من إله قوي يراقب عمله، ويجزيه عليه.

رابعًا: هدم النظام الأسري: وهذا الأثر من أخطر آثار الإلحاد؛ لأنه يهدم المجتمعات الإنسانية، ويفكك النظام الاجتماعي البشري.

خامسًا: الإجرام السياسي:

وذلك في العلاقات بين الدول بحيث أن كل دولة أقوى تضطهد الدولة الأضعف. وهكذا.

الرد على الملحدين

إن أهم ما يرد به على مَن جرفهم تيار الإلحاد القوي الذي أتى على الأخضر واليابس في الدين، حيث تطاولوا على النبوة والرسالة، وحطوا من قَدْر الرسل - عليهم السلام - كما طال الإلحاد الغربي الذاتَ العَلية، فتطاولوا على الربوبية والألوهية.

إن أهم ما يرد به على أهل الإلحاد هو:

أن الغرب الذي صدَّر لنا هذا الإلحاد، أصبح يعيش في فراغ روحي، وقلق نفسي، وأصبح أفراد مجتمعه يضيقون بالحياة ذرعًا، وأصبح كثير منهم ينزع إلى خيار الانتحار؛ ليخلص نفسه من العذاب الذي يعانيه، والقلق النفسي،

والتمزق، والحيرة، والضياع، وانتشر الفساد، وكثر الإجرام حتى أصبحت معدلات الجريمة تفوق الخيال في الغرب الذي هو موطنُ الإلحادِ، وظهرت دعاوَى تنادي بالبحث في الخروج من هذا المأزق الشديد، وكَتَبَ عقلاؤهم ومفكروهم عن ظاهرة الإلحاد، وأنها هي السبب فيما وصل إليه الغرب من ضَياع ودمار للشعوب، حيث تفككت الأسرة، وتُرك الحبل على الغارب للأبناء والبنات، يخرجون للشارع ويفعلون ما يشاءون.

كل ذلك بسبب الخواء الروحي، والبعد عن الدين الذي يعيشه الغرب؛ بسبب طُغيان التيار الإلحادي.

ومن الطريف أن دولة "كندا" طالبت بإدخال مادة القرآن الكريم في مناهجها التعليمية؛ لأنها رأتْ في تعاليمه ما يخفف من وطأة الإلحاد. وكل مجتمع بعد عن نور الرسالة السماوية، فهذه هي النتيجة الحتمية لذلك المجتمع؛ لأن النفس البشرية لا حياة لها إذا أعدمت الروح والنور والحياة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # :

"الرسالة ضرورية للعباد، ولا بد لهم منها، وحاجاتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمسُ الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، وأما الكافرُ فميت القلب في ظلمات الكفر". انتهى كلامه.

إذن نستطيع أن نقول: إن من دخَلَ دائرة الإلحاد، فعليه أن يستعد لدوامة القلق النفسي والكآبة، والتمزق الروحي، والحيرة والضياع، ثم الجنوح في نهاية الأمر إلى البحث عن الخلاص من كل ذلك، ولن يجدوا مخلصًا كالتشرد والضياع والانتحار، والعياذ بالله تعالى.

معنى التوحيد وأنواعه، وبيان أهمية توحيد الألوهية وأدلته

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى لفظة التوحيد في اللغة والاصطلاح	٨٩
العنصر الثاني :	المراد بلفظة التوحيد عند الإطلاق، وأنواعه الأخرى	٩٠
العنصر الثالث :	الرد على من غلط، أو ضل في مسمى التوحيد	٩٦
العنصر الرابع :	بيان فرض توحيد الألوهية، وفضله وأهميته	٩٩
العنصر الخامس :	البداءة به في الدعوة إلى الإسلام، وأن من أتى به وأداه فقد أدى التوحيد كله بجميع أنواعه	١٠٢
العنصر السادس :	بيان الأدلة على توحيد الألوهية	١٠٧

معنى لفظة التوحيد في اللغة والاصطلاح

أولاً: معنى لفظة التوحيد في اللغة:

هو مصدر (وَحَّدَ يَحِدُ حِدَةً) من باب (وَعَدَ) إذا انفرد بنفسه، فهو (وَحَدٌ) - بفتحتين - مشتق من (الوَاحِد)، وهو أول عدد الحساب، فيقال: وحَّده، وأحَّدَه كما يقال: ثنَّاه، وثلثَّه، ويقال: رجل أحَدٌ، وَوَحِدٌ، وَوَحَدٌ، وَوَحْدٌ، وَوَحِيدٌ، ومتوحِّدٌ، أي: منفردٌ، وَوَحَّدَ الله توحيداً، وله الوحدانية، وتوحيد الله تعالى بالربوبية.

يقول الشيخ محمد بن عثيمين # وهو يشرح معنى لفظة التوحيد في اللغة: "وجعل الشيء واحداً لا يتحقق إلا بنفي، وإثبات، نفي الحكم عما سوى الموحَّد، وإثباته له؛ لأن النفي وحده تعطيل، والإثبات وحده لا يمنع المشاركة، فمثلاً: لا يتم للإنسان التوحيد حتى يشهد أن لا إله إلا الله، فينفي الألوهية عما سوى الله تعالى، ويثبتها لله وحده".

ثانياً: معنى لفظة التوحيد في الاصطلاح:

أما التوحيد في الاصطلاح: فله تعريفان: عام، وخاص.

أما العام فهو: "إفراد الله تعالى بما يختص به، علماً، وعقيدة، وعملاً، مما يتعلق بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعبادته"

وأما الخاص فهو: "إفراد الله ﷻ بالعبادة"، أي: أن تعبد الله وحدهُ، ولا تشرك به شيئاً، بل تفرده وحده بالعبادة، محبةً وتعظيماً، ورغبة، ورهبة.

ويقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "التوحيد: اسم لفعل العبد المأمور به ؛ فإن كانت أعماله كلها لله وحده فهو موحد، وإن كان فيها شرك للمخلوق فهو مشرك".

فالتوحيد مبني على أن الله تعالى "واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له".

وقيل معنى التوحيد في الشرع: "هو إفراد الله بربوبيته، وألوهيته دون سواه، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العلا، والاعتقادُ برسالة محمد ﷺ وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين واتباعه فيما جاءته عن الله تعالى".

فالتوحيد هو: الإيمان بوحدانية الله -تعالى- والإخلاص في كل عبادة قولية، أو فعلية، أو اعتقاديه.

المراد بلفظة "التوحيد" عند الإطلاق، وأنواعه الأخرى

المراد بلفظة "التوحيد" عند الإطلاق:

توحيد الألوهية ؛ لأن هذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل -عليهم السلام- ونزلت به الكتب.

فتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فالمشركون من العرب كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، وأن خالق الأرض والسماوات واحد، قال تعالى -مخبراً عنهم-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: من الآية٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٥]،

وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير، ولم يكن مشركو العرب يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند، والترك، والبربر، وغيرهم؛ تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم وسائل وشفعاء يتوسلون بهم إلى الله تعالى، وعلى هذه الصفة كان مشرك العرب؛ فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

"وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: من الآية: ١٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: من الآية٨٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]، وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل، وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله... ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١] فهذا أول أمر في القرآن... فكل هذه السور في الدعاء إلى هذا التوحيد، والأمر به، والجواب عن الشبهات

والمعارضات، وذكر ما أعد الله لأهله من النعيم المقيم، وما أعد لمن خالفه من العذاب الأليم، وكل سورة في القرآن، بل كل آية في القرآن فهي داعية إلى هذا التوحيد، شاهدة به، متضمنة له".

فإفراد الله بالعبادة هو التوحيد الذي هو حق الله على العبيد، وهو أصل الدين وأساسه، وهو الذي من أجله خلق الله الثقلين: الإنس، والجن. قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذريات: ٥٦]، وهو الذي بعث الله به الرسل، وأنزل من أجله الكتب، وفرض من أجله الجهاد، وشرع الشرائع، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: من الآية: ٣٦]، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "اعلم -رحمك الله- أن الله سبحانه إنما أرسل الرسل وأنزل الكتاب لأجل التوحيد، فإذا لم يفعله الإنسان، ويجتنب الشرك فهو كافر، وكل أعماله حابطة، ولو كان من أعبد هذه الأمة يقوم الليل، ويصوم النهار، قال تعالى في الأنبياء: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: من الآية٨٨]، وتصير عبادته كلها كمن صلى ولم يغتسل من الجنابة، أو كمن يصوم في شدة الحر، وهو يزني في أيام الصوم".

ويقول الشيخ ابن عثيمين # : "فتوحيد الألوهية هو دين الرسل فكلهم أرسلوا بهذا الأصل الذي هو التوحيد كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهذا النوع هو الذي ضل فيه المشركون الذين قاتلهم النبي ﷺ واستباح دماءهم، وأموالهم، وأرضهم، وديارهم، وسبي نساءهم، وذريتهم، ومن أخل بهذا التوحيد فهو مشرك كافر وإن أقر بتوحيد الربوبية، والأسماء

والصفات. فإفراد الله وحده بالعبادة هو دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده".

وقال العلامة ابن القيم # بعد أن ذكر أن كل طائفة تسمي باطلها توحيدًا: "وأما التوحيد الذي دعت إليه رسل الله، ونزلت به كتبه فوراء ذلك كله وهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وتوحيد في المطلب والقصد. فالأول هو: حقيقة ذات الرب تعالى، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلوه فوق سمواته على عرشه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه، وقدره، وحكمه، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جد الإفصاح. النوع الثاني: مثل ما تضمنته سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]... وغالب سور القرآن؛ بل كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل نقول قولاً كلياً: إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به، داعية إليه".

أنواع التوحيد:

ينقسم التوحيد بالاستقراء إلى ثلاثة أنواع، وهي:

أولاً: توحيد الربوبية: وهو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه وخالقه، ورازقه، وأنه المحيي المميت، النافع الضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار.

ثانياً: توحيد الأسماء والصفات: وهو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة، والحكمة البالغة، أو قل: "هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه، بنعوت العظمة، والجلالة، والجمال، وذلك بإثبات ما أثبته لنفسه،

وأثبته له رسوله ﷺ من جميع الأسماء والصفات، ومعانيها، وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة".

ثالثاً: توحيد الإلهية أو الألوهية، أو العبادة أو العبودية: وهو إفراد الله ﷻ بجميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة، وأن يخلص العبد لله تعالى عمله عن جميع الخلق، ولا يشرك معه أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، فضلاً عن من دونهما.

واعلم أن أنواع التوحيد الثلاثة متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بواحد منها، ولم يأت بلازمه من نوعيه الآخرين فما ذلك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب.

ويمكن تقسيم التوحيد إلى نوعين: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية، والأسماء والصفات، وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الألوهية والعبودية.

وهناك من يقسم التوحيد تقسيماً آخر، وهو أن التوحيد نوعان:

أ- القولي الاعتقادي، لاشتماله على أقوال القلوب، وهو: اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، والثناء على الله بتوحيده، وهذا النوع هو توحيد الأسماء والصفات الذي يدخل فيه توحيد الربوبية.

ب- الفعلي العملي: -لأنه يشتمل على أفعال القلوب والجوارح، والأعمال؛ كالصلاة، والزكاة، والحج، ونحو ذلك.

وعلى هذا التقسيم يحمل قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "التوحيد نوعان: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية".

فإن الشيخ يجعل توحيد الأسماء والصفات مع توحيد الربوبية بجامع أنهما نوع واحد، هو توحيد المعرفة والإثبات، يقول الشيخ: "وأما توحيد الصفات فلا يستقيم توحيد الربوبية، ولا توحيد الألوهية إلا بالإقرار بالصفات؛ لكن الكفار أعقل ممن أنكر الصفات".

قال العلامة ابن القيم # في نونيته مبيّناً أنواع توحيد المرسلين المخالف لتوحيد الملاحدة والمعطلين:

فاسمع إذا توحيد رسل الله ❖ اجعله داخل كفة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيها ❖ أولى لدى الميزان بالرجحان
توحيدهم نوعان قولي وفعلي ❖ كِلا نوعيه ذو برهان
فالأول القولي ذو نوعين أيضاً ❖ في كتاب الله موجودان
هذا وثانٍ نوعي التوحيد تو ❖ حيد العبادة منك للرحمن
فلو أحد كن واحداً في واحد ❖ أعني سبيل الحق والإيمان

وقال الشيخ حافظ الحكمي # :

أول واجب على العبيد ❖ معرفة الرحمن بالتوحيد
إذ هو من كل الأمور أعظم ❖ وهو نوعان أيا من يفهم
إثبات ذات الرب جل وعلا ❖ أسمائه الحسنى صفاته العلى
هذا وثاني نوعي التوحيد ❖ إفراد رب العرش عن يزيد
أن تبعد الله إلهاً واحداً ❖ معرفتا بحقه لا جاحداً

الرد على من غلط، أو ضل في مسمى التوحيد

وبعد أن قدمنا تعريف التوحيد، وبينا المراد به عند الإطلاق، وأنه ينصرف مباشرة إلى توحيد الألوهية، وذكرنا أنواع التوحيد الثلاثة، وبينا أنها متلازمة، - يجدر بنا أن نبين هنا - أن هناك من غلط في مسمى التوحيد، ونرد عليه، فمن ذلك قول بعضهم: "التوحيد على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: توحيد العامة الذي يصح بالشواهد، والوجه الثاني: توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق، والوجه الثالث: توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة".

وقد رد العلامة ابن القيم # على هذا التقسيم بقوله: "لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم - علماً ومعرفةً وحالاً - تفاوتاً لا يحصيه إلا الله فأكمل الناس توحيداً الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وأكملهم توحيداً الخليلان: محمد، وإبراهيم - صلوات الله وسلامه عليهما - فإنهما قاما من التوحيد ما لم يقم به غيرهما - علماً ومعرفة وحالاً، ودعوة للخلق وجهاداً - فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه... فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء".

وقال أيضاً: "وقد تقسمت الطوائف (التوحيد) وسمى كل طائفة باطلهم توحيداً، فأتباع أرسطو، وابن سينا، والنصير الطوسي عندهم التوحيد: إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة... فتوحيد هؤلاء هو غاية الإلحاد، والجحد، والكفر، وفروع هذا التوحيد: إنكار ذات الرب، والقول بقدم الأفلاك... وأما

الاتحادية، فالتوحيد عندهم: أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه... ومن فروع هذا التوحيد أن فرعون وقومه مؤمنون كاملو الإيمان... ومن فروعه: أن عبَّاد الأصنام على الحق والصواب، ومن فروعه: أن الأنبياء ضيقوا الطريق على الناس، وتعدَّوا عليهم المقصود.

وأما الجهمية: فالتوحيد عندهم: إنكار علو الله على خلقه بذاته، واستوائه على عرشه، فالتوحيد عندهم: هو المبالغة في إنكار التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه.

وأما القدرية: فالتوحيد عندهم: هو إنكار قدر الله، ومتأخروهم ضموا إلى ذلك: توحيد الجهمية...

وأما الجبرية: فالتوحيد عندهم: هو تفرد الرب تعالى بالخلق، والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا محدثين لأفعالهم.

وأما صاحب المنازل، ومن سلك سبيلهم فالتوحيد عندهم، نوعان:

أحدهما: غير موجود، ولا ممكن، وهو توحيد العبد ربه، فعندهم:

ما وحد الواحد من واحد ❖ إذ كل من وحده جاحد

والثاني: توحيد صحيح، وهو توحيد الرب لنفسه، وكل من ينعته سواه فهو ملحد. فهذا توحيد الطوائف".

وقد رد العلامة ابن أبي العز الحنفي # على من قسم التوحيد إلى الأقسام الآنفة الذكر فقال: "وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل، وأنزلت به الكتب فلا يلتفت إلى قول قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع...

وكل من له حس سليم، وعقل يميز به لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل، واصطلاحهم، وطرقهم البتة ؛ بل ربما يقع بسببها في شكوك، وشُبهٍ يحصل له بها الحيرة، والضلال، والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك، وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح إلا من أتى الله به، ولا شك أن النوع الثاني، والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة، وخاصة الخاصة ينتهي إلى الفناء الذي يشمر إليه غالب الصوفية، وهو درب خطر يُفضي إلى الاتحاد... فأين قال الرسول: هذا توحيد العامة، وهذا توحيد الخاصة، وهذا توحيد خاصة الخاصة؟. فأنت ترى أن كل طائفة ذهبت في تعريفها للتوحيد إلى ذوقها وهواها لكنها بعيدة عن التوحيد الصحيح بمراحل كما قيل:

وكل يدعي وصلاً بليلى ❖ وليلى لا تقر لهم بذاكا

إذاً: من زعم أن المراد بالتوحيد هو مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله تعالى هو الخالق الرازق موجد العالم كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف فقد بان غلطه، وضلاله في مسمى التوحيد وقد ضارع المشركين الأولين الذين قال عنهم القرآن: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] فإنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، ولكن إنكارهم لتوحيد الألوهية هو الذي جعلهم مشركين، "ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل، فقد أثبتوا غاية التوحيد، وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه فقد فنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما ينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شيء لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده... ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها ويتقرب إليها، ثم يقول إن هذا ليس بشرك إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك".

بيان فرض توحيد الألوهية، وفضلة وأهميته

إن الله تعالى قد فرض هذا التوحيد على الخلق أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

وبهذا التوحيد أرسل الله تعالى جميع الرسل من أولهم: نوح إلى خاتمهم: محمد -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [هود: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال يوسف: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

وهذا التوحيد هو الواجب فرضه الله ﷻ على خلقه، وأخذ عليهم الميثاق به، ثم فطرهم، شاهدين مقرين به، ثم أرسل رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولهذا لا يدخل العبد في الإسلام إلا به، ولا يخرج منه إلا بضده، ولم يزحزح عن النار ولا يدخل الجنة إلا به، ولا يخلد في النار ويحرم الجنة إلا بضده، ولم تدع الرسل إلى شيء قبله، ولم تنه عن شيء قبل ضده، والقرآن كله من أوله إلى أخره في تقرير هذا التوحيد؛ لأن القرآن إما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه، فهذا من حقوق الله تعالى وهو لب التوحيد، وإما

أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وما فعل بهم في الدنيا من النصر والتأييد وما يكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يفعل بهم في الآخرة من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم توحيده، فالقرآن كله في التوحيد، وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم، اقرأ في الأمر بالتوحيد ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ﴾ [النساء: ٣٦] واقرأ في إكرام أهل التوحيد في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١] واقرأ في إخزاء أهل الشرك في الدنيا والآخرة: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝٤١﴾ [القصص: ٤٠- ٤١]

يقول شارح الطحاوية # : "اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: من الآية٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: من الآية٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال المصطفى ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)) (متفق عليه)، ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم، بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان...

فالتوحيد أول ما يدخل في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي ﷺ: ((من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))، وهو أول واجب، وآخر واجب. فالتوحيد أول الأمر وآخره. أعني توحيد الألوهية". انتهى كلامه # .

ثانياً: مكانته وأهميته

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "اعلم أن أهم ما فُرِضَ على العباد معرفة أن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه، ومدبره بإرادته، فإذا عرفت هذا فانظر ما حق مَنْ هذه صفاته عليك بالعبودية بالمحبة والإجلال، والتعظيم والخوف والرجاء، والتأله المتضمن للذل والخضوع لأمره...

فالتوحيد أعظم الفرائض؛ أعظم من فريضة الصلاة والزكاة والصوم. كما أن الشرك أعظم المحرمات؛ أعظم تحريماً من الزنا، والسرقة، و الكبائر، والتوحيد رأس أعمال أهل الجنة، كما أن رأس أعمال أهل النار الشرك بالله تعالى.

والتوحيد هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

والتوحيد هو الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: من الآية١٥٣].

وهو شهادة الحق والعمل بمقتضاها.

وهو الإيمان بالله وملائكته و كتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وهو الذي بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ.

وهو ملة إبراهيم الذي كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين.

وهو الأسوة الحسنة التي أخبر بها الله في كتابه، فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾" (الممتحنة: من الآية٤]. انتهى كلامه رفع مقامه.

البداءة به في الدعوة إلى الإسلام، وأن من أتى به وأداه فقد أدى التوحيد كله بجميع أنواعه

قد تقدم معنا في العنصر الثاني -قبل هذا- والعنصر الأول ذكر الآيات الدالة على أن الله تعالى أول ما أوجب على عبيده هو التوحيد. أعني توحيد الألوهية الذي هو أساس الإسلام، وأن كل نبي كان يدعو قومه إلى التوحيد ونبذ الشرك، فكل واحد منهم قال لقومه: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩]، يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب # : "وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فالإله المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة، وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار، قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، فهذا أول أمر في القرآن، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [المؤمنون: من الآية٢٣]،

فهذه دعوة أول رسول بعد حدوث الشرك... وهذا التوحيد هو أول واجب على المكلف وآخر واجب، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا. وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث أن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد" انتهى كلامه # .

قال حافظ الحكمي:

أول واجب على العبيد ❖ معرفة الرحمن بالتوحيد

فضله:

لا شك أن من حقق هذا التوحيد، فقد أدى حق الله الذي جعله على العبيد.

ومن فضائله: أنه يصحح الأعمال، فالله ﷻ لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه؛ لأنه -جل وعلا- أغنى الشركاء عن الشرك. من أشرك معه غيره تركه وشركه.

ففضل التوحيد عظيم، ثوابه كثير، فهو يكفر الذنوب، كما قال تعالى في الحديث القدسي: ((يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة)) رواه الترمذي -عن أنس-، وحسنه، كما في حديث عتبان < : ((فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)) رواه البخاري ومسلم، ومعلوم أن قوله ﷺ في حديث عتبان < ((يبتغي بذلك وجه الله)) أنه ترك الشرك، وليس قولها باللسان فقط.

إذاً: فمن حق التوحيد دخل الجنة بغير حساب كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، وكما في حديث حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس } وذكر: عرض الأمم على النبي ﷺ ومنهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب؛ وهم الذين حققوا التوحيد بتركهم الاسترقاء والاكتواء والتطير متوكلين على الله تعالى. والحديث متفق عليه.

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قيل: لما نزلت شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: ((يا رسول الله. فأينا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] إنما هو الشرك)).

قال الحسن الكلبي # في معنى الآية: أولئك لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا، وبهذا تظهر مطابقة الآية لمعنى ما نحن بصدده، فدلت على فضل التوحيد وتكفيره للذنوب؛ لأن من أتى به تاماً فله الأمن التام والاهتداء التام، ودخل الجنة بلا عذاب.

وعن معاذ بن جبل > قال: "كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: ((يا معاذ أتدري ما هو حق الله على العباد؟ وما هو حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً. قلت: يا رسول الله أفلا أبشر الناس. قال: لا تبشرهم فيتكلوا)) متفق عليه.

وعن أبي سعيد الخدري > قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين في كِفَّةٍ، ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله)) رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

فقوله: ((مالت بهن لا إله إلا الله)) أي رجحت عليهن، وذلك لما اشتملت عليه من توحيد الله الذي هو أفضل الأعمال، وأساس الملة، ورأس الدين. فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها، واستقام على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

يقول ابن رجب الحنبلي # : "إذا كمل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه وقام بشروطه بقلبه ولسانه، وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله محبة وتعظيماً وإجلالاً ومهابة وخشية وتوكلاً، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم فلو وضع منه ذرة على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات". اهـ. كلامه # . فيما ذكرناه من الآيات والأحاديث كفاية للدلالة على فضل التوحيد وتكفير الذنوب.

بيان أن من أتى بتوحيد الألوهية وأدَّاه فقد أدّى التوحيد كله بجميع أنواعه

تقدم معنا: أن التوحيد إذا أطلق في عبارات السلف. فالمراد به: توحيد الألوهية؛ لأن هذا النوع من التوحيد هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل وأممهم، وبين المؤمنين والكافرين.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : "وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد كل الإفصاح، وأبدأ فيه وأعاد، وضرب لذلك الأمثال، بحيث إن كل سورة في القرآن فيها الدلالة على هذا التوحيد، ويسمى هذا النوع توحيد الإلهية؛ لأنه مبنيٍ على إخلاص التأله وهو أشد المحبة لله وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وتوحيد العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة؛ لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وتوحيد القصد؛ لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل؛ لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده، قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: من الآية٢]، وقال: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الزمر: ١١- ١٢]... وهذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وتوحيد الألوهية مستلزم لتوحيد الربوبية والأسماء والصفات متضمن لها". اهـ. كلامه # .

وقال الشيخ تقي الدين المقريزي # : "فلا ولي ولا حكم ولا رب إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته، ولو وحد ربوبيته. فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها، وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين، ولهذا كانت كلمة الإسلام لا إله إلا الله، ولو قال: لا رب إلا الله أجزأه عند المحققين، فتوحيد الألوهية هو المطلوب من العباد". اهـ. كلامه # .

وقال الشيخ حافظ حكمي # : "إن توحيد الإثبات هو أعظم حجة على توحيد الطلب، والقصد الذي هو توحيد الإلهية لتلازم التوحيدين، فإنه لا يكون إلهاً مستحقاً للعبادة إلا من كان خالقاً، رازقاً، مالكاً، متصرفاً، مدبراً

لجميع الأمور، موصوفاً بكل كمال، منزهاً عن كل نقص، غنياً عما سواه، مفتقراً إليه كل ما عداه.

وهذه صفات الله ﷻ لا تنبغي إلا له، ولا يشركه فيها غيره، فكذلك لا يستحق العبادة إلا هو، ولا تجوز لغيره، فحيث كان متفرداً بالخلق والإنشاء، والبدء والإعادة، لا يشركه في ذلك أحد وجب إفراده بالعبادة دون من سواه، لا يشرك معه في عبادته أحد... وعُبَّاد الأوثان مُقِرّون بتوحيد الربوبية وشاهدون بتفرد الله بذلك، وأنهم إنما أشركوا بالله تعالى في الألوهية، حيث عبدوا معه غيره، هذا في الظاهر، وإلا فأنواع التوحيد متلازمة. فمن أشرك مع الله غيره معه في شيء منها فقد أشرك فيما عداه". اهـ.

والمقصود أن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إلا مكابر؛ كفرعون ونمرود، والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقين للخير والشر.

بيان الأدلة على توحيد الألوهية

أما الأدلة على توحيد الألوهية فأكثر وأشهر من أن تحصى، فقد دل العقل، والنقل على تقريره تمام التقرير.

فمن الأدلة النقلية: قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣- ١٤]، وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا

﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: من الآيتين ٢- ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

يقول ابن أبي العز الحنفي # : "فالقرآن كله التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم فـ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] توحيد، ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] توحيد، ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] توحيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] توحيد، ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ [آل عمران: آية ١٨، ومن الآية ١٩] فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجلَّ شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها من أجلِ شاهدٍ بأجلِ مشهود به...

وأما آياته العيانية الخلقية: فالنظر فيها والاستدلال بها يدل على ما تدل آياته القولية السمعية والعقل يجمع بين هذه، ويجزم بصحة ما جاءت به الرسل فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة... فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدليل والمدلول عليه، والشاهد والمشهود له". اهـ. كلامه # .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # ، وهو بعدد الآيات الدالة على التوحيد: "الآيات بنحو هذا كثيرة جداً، ولأجل ذلك ذكرنا أن كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير براد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلومه الإقرار بالألوهية

ضرورة نحو قوله تعالى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ [إبراهيم: من الآية١٠]، وقوله: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا ﴾ [الأنعام: من الآية١٦٤]. اهـ - # .

ولا شك أن نوعي التوحيد الذي يقر به أكثر الناس وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات يعدان من أكبر البراهين وأصحها على توحيد الألوهية. فالمنفرد بالخلق والتدبير، والمتوحد في الكمال المطلق من جميع الوجوه هو الذي لا يستحق العبادة سواه.

أما الأدلة العقلية: فكثيراً ما يرشد الله تعالى عباده إلى الاستدلال على معرفته بآياته الظاهرة في الآفاق والمخلوقات العلوية والسفلية، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: من الآية٥٣].

فالله ﷻ يشهد بما جعل من آياته المخلوقة الدالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله، كما قيل:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه واحد

وقال آخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ❖ من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ❖ ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقال آخر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ❖ إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وجملة القول: أن من عبد غير الله تعالى وهو يَدَّعي الإيمان بالله -جل وعلا- نقول له: هذه العبادة المزعومة له -جل جلاله- هي عداوة في حقيقة الأمر، وما أحسن قول من قال:

إذا صافى صديقك من تعادي ❖ فقد عاداك وانقطع الكلام

العبادة وشرط قبولها، وذكر جملة من أفرادها

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تعريف العبادة في اللغة والشرع	١١٣
العنصر الثاني	:	أنواع العبادة، ومعنى توحيد الله بها	١١٦
العنصر الثالث	:	شرطا صلاح العبادة وقبولها	١١٩
العنصر الرابع	:	ذكر جملة من أفراد العبادة التي شرع الله لعباده وتعبدهم بها	١٢٠

تعريف العبادة في اللغة والشرع

أولاً: تعريف العبادة في اللغة:

مادة "العين والباء والدال" تدل على أصلين كأنهما متضادان:

أحدهما: اللين والذل.

والآخر: الغلظ والشدة. فمن الأول قول العرب: هذا عبد مملوك، وهذا بعير معبد، وهذا طريق معبد، ومن الثاني: قولهم: هذا ثوب له عَبَّدةٌ، وبتحريك الباء - إذا كان صفيقاً قوياً. فالعَبَدَةُ تعني القوة والصلابة.

ويقال: عبد الله يعبد عبادة ومعبداً ومعبدة. وعبودة، وعبودية إذا خضع له وانقاد له. وذل له وأطاعه. وتأله له وتنسك.

فالعبادة والعبودة والعبودية: الخضوع والتذلل والطاعة والانقياد والتأله والتنسك، يقال: طريق معبد، أي: متذلل وطئته الأقدام وذللته، قال طرفة بن العبد:

تُباري عِتاقاً ناجياتٍ وأَتْبَعَتْ ❖ وظيفاً وظيفاً فوق مور معبَّدِ

فالشاعر يعني بالمور: الطريق، والمعبد المذلل الموطوء، ومن ذلك قيل: المعبد المذلل بالركوب في الحوائج معبد كما يقال للبعير المطلي بالقطران: معبد، قال طرفة أيضاً:

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ❖ وأفردت إفراد البعير المعبَّدِ

فقولهم: للبعير المطلي بالقطران معبد؛ لأنه يتذلل لشهوته القطران فلا يمتنع، فعلم مما سبق أن العبادة في اللغة تعنى الخضوع والتذلل والطاعة، لكن هل يصح إطلاق العبادة على كل خضوع وتذلل؟ أم هناك تقييد؟.

يقول الزجاج # : "معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع". انتهى كلامه.
وقول ابن سيده # : "كل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة... لأن العبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم". أ.هـ.

وقسم الراغب العبادة في اللغة إلى قسمين: عبادة بالتسخير. وعبادة بالاختيار وهذه لأصحاب النطق، وهي التي جاءت الأوامر بها.

ثانياً: تعريف العبادة في الشرع:

عبارات العلماء كثيرة في بيان المعنى الشرعي للعبادة، ولذلك فإني سوف أذكر جملة من أهم تلك التعريفات:

١- عرفها الراغب الأصفهاني # بقوله: "العبادة فعل اختياري مناف للشهوات البدنية تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشريعة". انتهى كلامه.

٢- وعرفها البغوي # بقوله: "العبادة الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبداً لذلته وانقياده". انتهى كلامه.

٣- وعرفها الفخر الرازي # بقوله: "هي فعل، وقول، أو ترك فعل، أو ترك قول، ويؤتى به لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله". انتهى كلامه.

٤- وعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية # بقوله: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"، وقال أيضاً في تعريف آخر: "هي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن الذل، والذل الخلي عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين".

٥- وقال الإمام ابن كثير # : "وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف". انتهى كلامه.

٦- وقيل: العبادة: "ما أمر به شرعاً من غير اقتضاء عقلي ولا إطراء عرفي".

وقيل: العبادة هي: "فعل ما أمر الله به ورسوله وترك ما نهى الله عنه ورسوله ابتغاء وجه الله والدار الآخرة".

وقال الشيخ ابن عثيمين # : "العبادة تطلق على معنيين: على التعبد، وعلى المتعبد به. فعلى المعنى الأول يكون معنى العبادة: أن يتذلل الإنسان لربه بامتثال أمره. واجتناب نهيه محبة له، وتعظيماً فيكون هذا الوصف عائداً للإنسان العابد، أما على المعنى الثاني وهو: أن العبادة تطلق على معنى المتعبد به، فيمثلها تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية السابق. فالصلاة إذن عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة". انتهى كلامه.

وأحسن هذه التعريفات وأجلاها وأعلاها، وأولاها هو: تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية، والبغوي، وابن كثير -رحمهم الله جميعاً-؛ لأن تلك التعريفات تمثل حقيقة العبادة، وتوضحها بأدق تعبير، وأوجزه وأشمله وأحوطه، وجميع أنواع العبادة داخلة في دائرة تلك التعريفات من أعمال تعبدية، عملية أو اعتقادية.

فتبين من تعريف العبادة أن الدين كله داخل في مفهوم العبادة، بدون استثناء. فالأعمال الاعتقادية، واللفظية، والبدنية، والمالية، كلها من أنواع العبادة، وأجل ذلك دعاء المسألة فهو مع كونه داخلاً في العبادة وواحداً من أفرادها فهو من أجل تلك الأنواع، ودعاء العبادة يستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، فهما متلازمان.

أنواع العبادة، ومعنى توحيد الله بها

إن التعريف المختار للعبادة هو تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية # وهو أن العبادة: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال، والأعمال الظاهرة والباطنة" فالظاهرة؛ كالتلفظ بالشهادتين، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف، ونصر المظلوم، وتعليم الناس الخير، والدعوة إلى الله ﷻ... وغير ذلك، وأما الأعمال الباطنة؛ فكالإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خير وشره، وخشية الله تعالى وخوفه ورجائه، والتوكل عليه والرغبة والرهبة إليه، والاستعانة به والاستغاثة والحب والبغض في الله، والموالاة والمعاداة فيه... وغير ذلك.

قال الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبابطين # : "فالصلاة، والزكاة، والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة كذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين

له، والصبر لحكمه الشكر لنعمته والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك. فالدين كله داخل في العبادة". انتهى كلامه.

فإن قيل: فما الجامع لعبادة الله ﷻ؟

قلت: طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه مع كمال المحبة، وكمال الخضوع والخوف والذلة والجمع بين الخوف والرجاء في العبادة.

فالأعمال الظاهرة لا تقبل ما لم يساعدها عمل القلب، ومناط العبادة هي غاية الحب مع غاية الذل، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر، ولذا قال بعض السلف: "من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد". انتهى كلامه.

ولا شك أن معرفة محاب الله ومعاصيه إنما تتلقى من طريق الشرع وإنما تحصل بمتابعة الشارع. ولذا قال الحسن البصري # : "ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]". انتهى كلامه. فمن ادعى محبة الله تعالى ولم يكن متبعاً لرسوله ﷺ فهو كاذب. وقال الإمام الشافعي # : "إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، أو يطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ" انتهى كلامه # .

إذن: فلا بد في توحيد الله بالعبادة من أن تتحقق فيها أركان العبادة الثلاثة وهي: المحبة والرجاء والخوف. فالعبادة؛ كالطير قلبه الحب، وجناحاه الخوف والرجاء. فالأمن من مكر الله خسران، واليأس من روحه كفران، والقنوط من رحمة الله ضلال وطغيان، وعبادة الله ﷻ بالحب والخوف والرجاء توحيد وإيمان.

فهذه الثلاثة الأركان شروط في العبادة لا قوام لها إلا بها: فالعزيمة الصادقة شرط في صدورها، والنية الخالصة، وموافقة السنة شرط في قبولها، فلا تكون عبادة مقبولة إلا باجتماعها، فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمن على الله، وتسويف في العمل وتفريط فيه، وصدق العزيمة بدون إخلاص فيه يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص. وإخلاص النية مع صدق العزيمة إن لم يكن العمل على وفق السنة كان بدعة وحدثاً في الدين. وشرع ما لم يأذن به الله فيكون رداً على صاحبه ووبالاً عليه والعياذ بالله، فلا يصدر العمل من العبد إلا بصدق العزيمة، ولا يقبل منه ذلك إلا بإخلاص النية، واتباع السنة. قال العلامة ابن القيم # :

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التـ ❖ ـوحيد كالركنين للبنيان
وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ❖ د فلا يزاحمه مراد ثاني
والصدق توحيد الإرادة وهو بذ ❖ ل الجهد لا كسلاً ولا متواني
والسنة المثلى لسالكها فتو ❖ حيد الطريق الأعظم السلطاني

وقال الشيخ حافظ الحكمي # وهو يعدد أنواع العبادة:

وفي الحديث مخها الدعاء ❖ خوف توكل كذا الرجاء
ورغبة ورهبة خشوع ❖ وخشية إنابة خضوع
والاستعاذة والاستعانة ❖ كذا استغاثة به سبحانه
والذبح والنذر وغير ذلك ❖ فافهم هديت أوضح المسالك
وصرف بعضها لغير الله ❖ شرك وذاك أقبح المناهي

شرطا صلاح العبادة وقبولها

من ثمرات الاعتصام بالكتاب والسنة والتقيد بهما في الورود والصدور، فإن أهل السنة والجماعة خرجوا بمنهج واضح ودقيق أخذاً من آيات القرآن العظيمة وأحاديث السنة القويمة، وهو أن العبادة لا تكون صالحة مقبولة وواسطة شريعة يتقرب بها إلى الله تعالى حتى يتوفر فيها شرطان مهمان وركنان عظيمان وهما:

أولاً: أن يكون خالصاً بأن يقصد به وجه الله ﷻ.

ثانياً: أن يكون صواباً، أي موافقاً لما شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه، أو بينه رسوله ﷺ في سنته فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحاً ولا العبادة مقبولة. والدليل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، قال الحافظ ابن كثير # : "وهذان ركنا العمل المتقبل لابد أن يكون خالصاً لله صواباً على شريعة رسول الله ﷺ". انتهى كلامه.

وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقل أكثر عملاً؛ لأن العبرة ليست بكثرة الأعمال وإنما بالأعمال الصالحة المقبولة، ولهذا قال الفضيل بن عياض # في الآية: "أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة". انتهى كلامه رفع مقامه.

وقال العلامة ابن القيم # : "فلا يكون العبد متحققاً بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] إلا بأصلين عظيمين: أحدهما متابعة الرسول ﷺ، والثاني الإخلاص للمعبود". انتهى.

وقد ذكر بعضهم مثالاً للفرق بين العمل القليل الخالص والكثير المشوب بصندوق واحد وصناديق.

ذكر جملة من أفراد العبادة التي شرع الله لعباده وتعبدهم بها

لقد قدمنا أن العبادة إذا استوفت شرطي القبول كانت صالحة ومقبولة لدى المولى الكريم، وصح توحيد الله تعالى بها، وقلنا إن الدين كله داخل في العبادة، إلا أننا سوف نذكر جملة من أفراد هذه العبادة للتمثيل لا للحصر.

فمنها: "المحبة"، فمن أشرك بين الله تعالى وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله فهو مشرك قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥- ١٦٧].

ومنها: "التوكل"، فلا يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

ومنها: "الخوف"، فلا يخاف خوف السر إلا من الله تعالى، ومعنى خوف السر: أن يخاف العبد من غير الله تعالى أن يصيبه مكروه بمشيئته وقدرته وإن لم يباشره، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقاد للنفع والضر في غير الله، قال تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٨].

ومنها: "الرجاء"، فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو الغائبين راجياً حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وقال علي > : "لا يرجون عبد إلا ربه".

ومنها "الصلاة"، والركوع والسجود: فلا يركع ولا يسجد لغير الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الحج: ٧٧].

ومنها: "الدعاء" فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣- ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

وقال الشاعر:

الله يغضب إن تركت سؤاله ❖ وبنيُ آدم حين يسأل يغضبُ
لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجة ❖ وسل الذي أبوابه لا تحجبُ

وقال آخر:

ولأكتمنَّ عن البرية خلتي ❖ ولأشكونَّ إليك جهد زماني
ولأقصدنَّك في جميع حوائجي ❖ من غير قصد فلانة وفلان

ومنها: "الذبح"، فلا يجوز أن يذبح تقرباً لغير الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] ومن السنة: ((لعن الله من ذبح لغير الله)) رواه الإمام مسلم.

ومنها: "النذر"، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، فقد ثبت أنه عبادة بمقتضى مشروعية الوفاء به، وإذا ثبت كونه عبادة لله تعالى فصرفه لغيره شرك في العبادة.

ومنها: "التوبة"، فلا يتاب إلا لله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومنها: "الاستعاذة"، فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١].

ومنها: "الاستغاثة"، فيما لا يقدر عليه إلا الله. قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

ومنها: "الرغبة والرهبة والخشوع"، من أنواع العبادة الرغبة فيما عند الله تعالى من الثواب وهي راجعة إلى معنى الثواب، والرهبة مما عنده من العقاب وهي راجعة إلى معنى الخوف، والخشوع هو التذلل والانكسار لله ﷻ، قال تعالى في آل زكريا #: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشَّرح: ٧، ٨].

ومنها: "الاستعانة"، وهي طلب العون من الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] أي: لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك ونبرأ من كل معبود وعابديه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك فلا حول لأحد عن معصيتك ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك.

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس: ((إذا سألت فسأل الله، و إذا استعنت فاستعن بالله)) رواه الترمذي وصححه.

والخلاصة: أن جميع أنواع العبادة وأفرادها موضحة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لا تحتاج إلى زيادة ولا نقصان كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع، أو مدحه الشارع أو أثنى على من قام به فهو عبادة وقربة، وكل أمر ثبت النهي عنه من الشارع أو ذمه الشارع، أو ذم من قام به فإن الانتهاء عنه وتركه والبعد عنه عبادة أيضاً وقربة، وطاعة الله في جميع ذلك هي توحيد وإيمان وعبادة وإخلاص، وصرفه أو صرف نوع منه أو فرد من أفراده لغير الله شرك وعصيان؛ لأن الجامع لعبادة الله وحده طاعته بامتثال أوامره واجتناب مناهيه.

فمن صرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله تعالى فقد اتخذه رباً وإلهاً وأشرك مع الله غيره، وصرفُ شيء قل أو كثر من أنواع العبادة لغير الله ﷻ كصرف جميعها؛ لأن الله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك. ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم. قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٢، ٣].

وهذا الشرك في العبادة هو الذي كفَّر الله به المشركين وأباح دماءهم وأموالهم وأعراضهم وإلا فهم يعلمون أن الله هو الخالق الرازق المحي المميت ليس له شريك في ملكه وإنما كانوا يشركون به غيره من المعبودات والوسائط في هذه العبادات ونحوها كما يشهد عليهم بذلك قولهم في تلبيتهم:

لبيك لا شريك لك ❖ إلا شريكًا هو لك

تملكه وما ملك ... ...

فهذه العبادات وغيرها هي حق الله على عباده يختص بها دون غيره، ولا يجوز أن يشاركه فيها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل فضلاً عن غيرهما.

من نواقض التوحيد: الشرك، تعريفه، وأقسامه، وأفراده

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تعريف النواقض في اللغة والاصطلاح	١٢٧
العنصر الثاني :	تعريف الشرك في اللغة والشرع	١٣١
العنصر الثالث :	إطلاقات أهل العلم للشرك	١٣٣
العنصر الرابع :	أقسام الشرك	١٣٨
العنصر الخامس :	المراد بالشرك الأكبر	١٣٩
العنصر السادس :	المراد بالشرك الأصغر	١٤٤

تعريف النواقض في اللغة والاصطلاح

تمهيد :

لما تقدم معنا تعريف التوحيد، وبيان أنواعه بالتفصيل، وكان منهجنا الكلام بالتفصيل حول توحيد الألوهية، ومكانته، وفضله، والأدلة عليه، وتعريف العبادة، وبيان أنواعها، وشرطي صلاحها. لما كان الأمر كذلك، فإنه من المناسب أن نتناول بيان ما يناقض عقيدة التوحيد أو يناقض كمالها، والتحذير من تلك النواقض؛ لأن الضد يتميز بذكر نقيضه، كما قال الشاعر:

ضدان لما استجمعا حسنا ❖ والضِّدُّ يظهر حسنه الضِّدُّ

لأن هذا أمر عظيم يستحق الاهتمام كيف لا؟ وهو بيان ما ينقض البنيان من أساسه للحذر منه والتحرز عنه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢]، وكما قيل:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه ❖ إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

ولا ريبَ أن بيان هذه النواقض والتحذير منها حماية لبناء الإيمان من أن ينهدم، والحذر من الشر؛ مخافةَ الوقوع فيه من فعل السلف، رحمهم الله تعالى.

قال حذيفة بن اليمان < : "كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركني". رواه الإمام البخاري في كتاب "الفتن" باب: "كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟".

وقديما قيل:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه ❖ ومن لا يعرف الشر من الكبر يقع فيه

أولًا: تعريف النواقض لغة:

النواقض: جمع ناقض، والنقض: هو إفساد ما أبرم من عقد أو بناء، يقال: نقضت الحبل نقضًا إذا حللت بَرْمَه، أي: فتله، ونقضت البناء وانتقض، وتنقَّض كذلك. وأنقضت الفروجة والدجاجة عند البيض.

ويقال: نقض فلان العهد، وناقض قوله الثاني الأول، وفي كلامه تناقض، وهذا نقيض ذاك، أي: مناقضة، وتناقض القولان والشاعران: إذا كان أحدهما يأتي بما يبطل ما أتى به الأول. وانتقضت الطهارة، أي: بطلت، وانتقض الجرح بعد برئه والأمر بعد التئامه إذا فسد. فالنقض ضد الإبرام.

ثانيًا: تعريف النواقض اصطلاحًا:

إذا كنا نقول: انتقض الوضوء بأحد نواقضه المعروفة بمعنى فسد ولزمت إعادته. فنقول: إن المراد بالنواقض هنا: هي الأمور التي إذا فعلها الشخص فسد توحيدُه وانتقض.

فإذا عرفنا معنى التوحيد ومعنى النواقض، فَلْنَعْلَمْ أن من وقع في شيء مما يفسد التوحيد فقد انتقض توحيده، وقد يقع العبد -أحيانًا- في ارتكاب بعض ما ينافي كمال التوحيد فيقال: إنه نقض كمال توحيده.

وقد كان علماء السلف المتقدمون -رحمة الله عليهم- يعبرون عن النواقض بقولهم: خرج عن الإسلام، أو ارتد عن دينه، أو كفر، ونحو ذلك -والعِياذ بالله تعالى- ومن ذلك قول الإمام الطحاوي # : "ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه". انتهى كلامه.

وقد استعمل الشيخ محمد بن عبد الوهاب # هذه التسمية "نواقض" في رسالته (نواقض الإسلام)؛ ليكون لها وقع في نفوس العامة والخاصة، فيتصورون كما أن الوضوء إذا بطَلَ لم تصح الصلاة إلا بعد إعادته، كذلك التوحيد إذا نُقِضَ لم تصح العبادة والأعمال إلا بعد إعادته إلى القلب.

ومن ثم شاع استعمال مصطلح "نواقض التوحيد" بعد ذلك فاستعمله تلامذة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وأبناؤه وأحفاده -رحمهم الله- وأخيرًا ظهر استعمال هذا المصطلح عند المعاصرين، فألف الشيخ عبد المجيد الزنداني كتابًا في الإيمان، وعقَدَ فيه بابًا سماه: "نواقض الإيمان" كما ألف الشيخ محمد نعيم ياسين كتابًا في الإيمان وسماه: (الإيمان أركانه وحقيقته ونواقضه).

وإذا نظرنا إلى إطلاق هذا المصطلح -"نواقض التوحيد"- بجانب تعريف التوحيد الشامل لأنواعه الثلاثة:

١- توحيد الألوهية.

٢- توحيد الربوبية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

لزم أن يشمل مدلول هذه التسمية "نواقض" أنواع التوحيد الثلاثة.

لكن الذي اشتهر عند أهل العلم أنه إذا أطلق التوحيد -كما مر سابقًا- فإنما يقصد به عند الإطلاق توحيد الألوهية؛ لأن هذا النوع من التوحيد هو الذي كانت الخصومة فيه بين الأنبياء -عليهم السلام- وأممهم، واشتد فيه الخلاف والقتال بين أتباع الوحي والمكذبين به. يقول الشيخ حافظ الحكمي # : "قد قدمنا انقسام التوحيد إلى قسمين: توحيد المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية

والأسماء والصفات. وتوحيد الطلب والقصد: وهو توحيد الألوهية والعبادة. ولكل من هذه الأنواع ضد يُفهم من تعريفه. فإذا عرفت أن توحيد الربوبية هو: الإقرار بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمور، المتصرف في كل مخلوقاته، لا شريك له في مُلكه، فضد ذلك هو اعتقاد العبد وجود متصرف مع الله غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله، ﷻ.

وإذا عرفت أن توحيد الأسماء والصفات هو: أن يدعَى الله تعالى بما سمى به نفسه، ويوصف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله محمد ﷺ ويُنفَى عنه التشبيه والتمثيل، فضد ذلك شيئان ويعمهما اسم الإلحاد:

أحدهما: نفي ذلك عن الله ﷻ وتعطيله عن صفات كماله ونعوت جلاله الثابتة بالكتاب والسنة.

وثانيهما: تشبيه صفات الله تعالى بصفات خلقه، وقد قال تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١] وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

وإذا عرفت أن توحيد الألوهية هو: إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله -تبارك وتعالى- فضد ذلك هو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ﷻ وهذا هو الغالب على عامة المشركين، وفيه الخصومة بين جميع الرسل وأممها". انتهى كلامه.

وعليه فإن النواقض للتوحيد المقصودة في مفردات هذا المنهج، هي النواقض لهذا النوع من التوحيد، وهذه النواقض عشرة وهي:

١- الشرك في عبادة الله تعالى.

٢- من جعل بينه وبين الله تعالى وسائط يدعوهم، ويسألهم الشفاعة، ويتوكل عليهم، كفَرَ إجماعًا.

٣- من لم يكفِّر المشركين، أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم كفَرَ.

٤- من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه، فهو كافر.

٥- من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ ولو عمِل به كفر.

٦- من استهزأ بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثواب الله أو عقابه كفر.

٧- السحر ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به كفر.

٨- مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين.

٩- من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى -على نبينا و # - فهو كافر.

١٠- الإعراض عن دين الله تعالى، لا يتعلمه ولا يعمل به.

وسنتناول هذه النواقض تباعًا وتفصيلًا بعون الله تعالى.

تعريف الشرك في اللغة والشرع

أولًا: تعريف الشرك لغة:

اعلم أن الشرك في عبادة الله تعالى هو الناقض الأول، بل هو أعظم هذه النواقض ورأسها، ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم قد حذر منه، وكرر ذلك التحذير، وذم أهل الشرك وذكر مصيرهم المشين في آيات كثيرة حتى تكررت لفظة: الشرك، وما تصرف منها أكثر من مائة وخمس وستين مرة تقريبًا، أما الأحاديث

النبوية الشريفة ففيها من ذلك الشيء الذي يصعب حصرُه، ذلك أن الشرك أعظم مفسد للعلم والعمل المبتغي بهما رضوان الله والسعادة، وليس أضر على الإنسان من إفساد عمله وعلمه، ولذا كان من أشد الناس خسرانًا من اتصف بالناصية الكاذبة الخاطئة. فقوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ [العلق: ١٦] فيه الجمع بين الكذب والخطأ في وصف هذه الناصية، فدل على وصفه بفساد القول والعمل.

الشرك لغةً: اسم للشيء الذي يكون بين أكثر من واحد، تقول: قد أشرك الرجلان وتشاركا، وشارك أحدهما الآخر، وشركت الرجل في الأمر: أشْرَكه شَرِكا وشَرِكة: إذا صرتُ له شريكًا، وجمع الشريك: شركاء وأشراكٌ، والشَّرْك: النصيب، والشرك بالله: الكفر به.

ويقال: طريق مشترك، وأمر مشترك، قال زهير:

ما إن يكاد يخليهم لوجهتهم ❖ تَخَالُجَ الأمرِ إن الأمر مُشْتَرَكُ

وفي حديث معاذ بن جبل > أنه أجاز بين أهل اليمن الشرك، أي: الاشتراك في الأراضي، وهو أن يدفعها صاحبها إلى آخر بالنصف، أو الثلث، أو نحو ذلك.

وفي قول عمر بن عبد العزيز # : "إن الشرك جائز"، هو من ذلك.

ثانيًا: تعريف الشرك شرعًا:

هو مساواة غير الله بالله فيما هو حق الله. فقولهم: أشرك الرجل بالله، أي: جعل مع الله شريكًا، سواء كان في الربوبية أو الألوهية، إلا أنه يكثر في طلاقه على الشرك في الألوهية.

وعرفه الشيخ محمد بن عبد الوهاب # بقوله: "هو أن يدعو مع الله غيره أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها". فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، أو قصد غير الله بشيء من أنواع العبادة، فقد اتخذ هذا

الغير ربًّا وإلهًا من دون الله تعالى، وأشرك مع الله غيره الشرك الأكبر الذي نهى الله عنه وأنكره على المشركين، وأخبر أنه لا يغفره، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وصرف الشيء من العبادة لغير الله كصرف مجموعها؛ لأن الله ﷻ: ((أغنى الشركاء عن الشرك))، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجهه الكريم كما قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزُّمَر: ٢- ٣].

وعرفه الشيخ عبد الرحمن السعدي # بقوله: "فأما الشرك الأكبر: فهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، أو يخافه، أو يرجوه، أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة". انتهى كلامه.

إطلاقات أهل العلم للشرك

قد يطلق الشرك ولا ندري هل المراد به الشرك الأكبر المُخرج من الملة، أم المراد به الشرك الأصغر؟ إلا أن السياق قد يحدد أحد الإطلاقين، ولكي لا نحكم بالشرك الأكبر على من حكمه الأصغر وبالعكس. ينبغي أن نعرف أن الشرك في معناه الشرعي يطلق على ثلاثة معان:

أولها: الاعتقاد بوجود شريك مع الله تعالى في الملك والربوبية والخلق والرزق والتصرف في الكون، فمن اعتقد أن أحدًا غير الله يتصرف في هذا الكون ويدبر شئونه، فقد أشرك في الربوبية، وكفر بالله تعالى، والدلائل على بطلان الربوبية لغير الله تعالى كثيرة ظاهرة: مرئية، ومسموعة، أما المرئية فما نشاهده من آيات

في هذا الكون المنظم من أرض وسماء، وجبال وأشجار، ونجوم وكواكب، فإن هذه المخلوقات بما هي عليه من النظام والدقة، وحسن الخِلقة، وأساليب العيش، تقول بلسان حالها: آمنوا بخالقي العظيم الذي أبدعني ونظمني، وهذا الاستدلال يدركه كل ذي نظرة سليمة، وعقل سليم، وفي المثال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

ولقد أحسن القائل:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه واحدُ

وأما الأدلة السمعية فمنها: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

فأخبر ﷻ أن هؤلاء المدَّعى أنهم آلهة لا يملكون في الأرض والسماء ذرة من خير وشر، أو نفع وضر، ولم يشتركوا مع الله في شيء من خلق السماء والأرض، وأنه ﷻ لم يتخذ منهم معينًا، وبهذا يعرف أنه لا استحقاق لهم في الألوهية.

ومن الأدلة السمعية قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ [فاطر: ٤٠].

فإن الله ﷻ قد أمر نبيه ﷺ في هاتين الآيتين أن يوبخ الكفار ويبكتهم بأن يسألهم عن الشركاء الذين يدعونهم من دون الله ويعبدونهم: بأي شيء أوجبوا لهم الشركة في العبادة. هل ذلك بشيء خلقوه من الأرض أو شاركوا خالق السموات والأرض؟!

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ [الإسراء: ١١١] فذكر سبحانه أن من صفاته ألا مشارك له في ملكه وربوبيته، كما تزعمه الثنوية ونحوُهم من الفرق القائلة بتعدد الآلهة.

وهذا الشرك لم يكن عند جميع الكفار في عهد الرسالة، فقد كان بعضهم يُقِر بأن الله هو الخالق للكون المصرف لِمَا فيه. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ثانيها: الاعتقاد في غير الله النفع والضر، وأن هذا الغير واسطة بين الله والخلق، فيتوجه إليه، ويصرف له بعضَ أنواع العبادة، وهذا الشرك هو الشرك في الألوهية، وهو الذي كان عليه أكثر كفار قريش، فقد كانوا يقولون عن آلهتهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزُّمَر: ٣]. وقد كان هذا الشرك اعتقادهم السائد، كما قال تعالى عنهم: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

فإنهم كانوا إذا دُعِيَ الله وحده، أنكروا أن تكون له الألوهية خاصةً، وإن أشرك به مشرك صدقوه، يشهد لذلك قول الله تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٤].

وأخبر سبحانه أن توحيد الله تعالى وترك الشرك به، هو الأمر الذي من أجله بعث رسولَه محمدًا ﷺ فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴾ [الرعد: ٣٦]، وأن الشرك مقابل لذلك تمامًا، فإنه يهدم ويحبط العمل، وذلك في كل الأمم، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

ومن أجل ذلك أمر الله بعبادته ونهى عن الشرك به في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتحدى المشركين ويعجزهم بأن يقول لهم: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وأخبر سبحانه عن ضلال المشركين وسفه عقولهم باعتقادهم نفع غير الله أو ضره، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

ثالثها: المراءاة لغير الله في الأعمال والأقوال، وهو أن تَظهر من المسلم أمور فيها مراءاة غير الله معه فيما يستحقه وحدَه. وقد تكون هذه المراءاة في الأعمال: كالرياء في العمل، وقد تكون في الأقوال: كالتلفظ بأقوال فيها المساواة لغير الله بالله، وإن لم يعتقد معناها.

فأما المراءاة بالأعمال: فكالمراءاة بالعبادات الدينية، كمن يصلي، فيطيل القيام ويطيل الركوع والسجود، ويظهر الخشوع عند رؤية الناس له، ويصوم فيظهر للناس أنه صائم، فيقول -مثلًا- مخاطبًا غيره: اليوم الإثنين أو الخميس، ألا تعلم؟ ألست بصائم؟. ومثل ذلك يقال في الحج والجهاد، فيذهب إليهما ومقصِده المراءاة فحسب.

وهنا ذكر أهل العلم قصة ظريفة حصلت لمُراءٍ في أحد المساجد، وهو أن هذا المرائي كان مرة يصلي في مسجد فحسَّن صلاته، وأظهر خشوعه وهو يحس

برجل يرمقه ببصره، فلما انتهى من صلاته، سلَّم عليه ذلك الرجل الذي كان ينظر إليه وقال له: ما أحسنَ هذه الصلاة، وما أجمل خشوعَك فيها، فقال هذا المرائي: هل أعلمك بشيء آخر؟ فقال له الرجل: نعم. فقال: إني مع ذلك صائم أيضًا.

وأما المراءاة بالأقوال إظهارًا للتدين كمن يتصدر المجالس بالوعظ والتذكير، فيحفظ الأخبار والآثار الخاصة بالمناسبات؛ ليحاور بها الناس ويجادلهم، فيظهر لهم أنه على معرفة بها، فيظهر لهم غزارةَ العلم، وشدة العناية بأحوال السلف، وتجده بعيدًا عن حياة السلف وأخلاقهم مع أهله وخاصته. فكل هذه الأعمال ينافي فعلها كمال التوحيد والإخلاص.

وقد دل على ذم الرياء أدلة كثيرة؛ منها: ما رواه أبو هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال الله -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمِلَ عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)). (صحيح مسلم).

وقال النبي ﷺ: ((إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة لا ريب فيه، نادَى منادٍ: من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابَه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)). رواه ابن ماجه.

ومما يدل على ذلك أيضًا: ما رواه عمرو عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: ((إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، ويقول الله ﷻ لهم يوم القيامة إذا جزَى الناسَ بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا: هل تجدون عندهم جزاء؟)) رواه الإمام أحمدُ.

ومن الأدلة الجامعة لذم الأعمال والأقوال التي فيها رياء: ما روى ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ: ((من سَمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومن راءى راءى الله به)) رواه مسلم.

اللهم ارزقنا إيمانًا دائمًا، وعلمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملًا صالحًا متقبلًا، لا رياء فيه ولا شوبًا. إنك أنت ولي ذلك والقادرُ عليه.

أقسام الشرك

لقد تقدم معنا أن الشرك هو أعظم الحرمات وأخطرها، وهو لا يغفره الله لمن مات عليه، ولكونه من أعظم الذنوب وتفشيه يدمر المجتمعات والحضارات، فإنه ينبغي أن نذكر أنه أقسام.

فنقول:

إذا نظرنا إلى تقسيم أهل العلم للشرك، فإننا سوف نلاحظ أن تقسيمهم لا يخرج عن كون الشرك نوعين: أكبر وأصغر، إلا أن العلماء يختلفون في العبادة والتنويع. فتراهم يقسمون الشرك عدة تقسيمات، وأكثرهم ينظر في تقسيمه إلى الشرك في الألوهية، فنجد منهم من يقسمه إلى شرك أكبر وأصغر، ومنهم من يقسمه إلى ثلاثة أقسام: شرك أكبر، وشرك أصغر، وشرك خفي. ومنهم من يقسمه على حسب تقسيم أنواع التوحيد الثلاثة: فيقول: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية، وشرك في الأسماء والصفات. ومن العلماء من يقسم الأكبر إلى أربعة أقسام، ومنهم من يقسمه إلى قسمين: قسم يتعلق بذات الله، وقسم يتعلق بعبادته.

إلا أن التقسيم الذي يجمع كل هذه التقسيمات، ويؤلف بينها أن نقول:

الشرك نوعان: شرك أكبر وشرك أصغر.

يقول الشيخ حافظ الحكمي # :

والشرك نوعان فشرك أكبر ❖ به خلود النار إذ لا يغفر
وهو اتخاذ العبد غير الله ❖ ندًّا به مسويًا وضاهي
يقصده عند نزول الضر ❖ لجلب خير ولدفع الشر
أو عن أي غرض لا يقدر ❖ عليه إلا المالك المقتدر
مع جعله لذلك المدعو ❖ أو المعظم أو المرجو
في الغيب سلطانًا به يطلع ❖ على ضمير من إليه يفزع
والثاني شرك أصغر وهو الريا ❖ فسَّرهُ به خاتم الأنبياء
ومنه إقسام بغير الباري ❖ كما أتى في محكم الأخبار

المراد بالشرك الأكبر

الشرك الأكبر نوعان:

الأول: شرك يتعلق بذات الله تعالى.

الثاني: شرك يتعلق بعبادته.

النوع الأول:

ما يتعلق بذات الله، فهو الشرك في الربوبية، وهو نوعان:

١- شرك في التعطيل:

كشرك فرعون، وشرك المَلاحدة. والتعطيل ثلاثة أقسام: تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه. وتعطيل الصانع سبحانه عن كماله المقدس، وهذا هو الشرك في الأسماء والصفات. وتعطيل معاملته عما يجب على العبد حقيقة التوحيد.

٢- شرك مَن جعل مع الله إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءه وصفاته وربوبيته:

كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، حيث جعلوا المسيح إلهًا، وأمه إلهًا، وأمثالهم كثير.

النوع الثاني:

ما يتعلق بعبادة الله، وهو الشرك في الألوهية، فهو أربعة أنواع:

١- شرك الدعوة بأن يتوجه بالدعاء الذي هو العبادة لغير الله تعالى.

٢- شرك النية والإرادة والقصد، فإن إرادة غير الله بالعمل يبطل ثوابه ويحبطه.

٣- شرك الطاعة، بأن يطيع العبد مخلوقًا في معصية الله تعالى.

٤- شرك المحبة، بأن يحب العبد مخلوقًا كمحبة الله تعالى.

ومثال الشرك الأكبر: كاتخاذ ند يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يذبح له، أو يصرف له أي نوع من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء:٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة:٧٢].

ومن أمثلة الذبح لغير الله تعالى: كمن يذبح للجن أو القبر، وقد عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب # بابًا في كتاب (التوحيد)، وعنوانه: "باب ما جاء في الذبح لغير الله تعالى"، وذكر من أدلة ذلك، قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ [الكوثر:١].

وعن علي بن أبي طالب > قال: ((حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله مَن ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوَى محدثًا، لعن الله من غيَّرَ منارَ الأرض)). رواه الإمام مسلم، # .

وفي قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، قال شيخ الإسلام ابن تيمية # : "أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع والافتقار، وحسن الظن وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عبادته، عكس حال أهل الكبر والنعرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم يسألونهم إياها، والذين لا يتجرون له خوفًا من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ الآية، والنسك: الذبيحة لله تعالى وحده ابتغاء وجهه. فإنها أجَلّ ما يتقرب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر.

وأجَلّ العبادات البدنية الصلاة، وأجَلّ العبادات المالية النحر، وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن أمر عجيب، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة كثير النحر". انتهى كلامه، # .

وقال الإمام النووي # : "المراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن يذبح للصنم، أو للصليب، أو لموسى، أو لعيسى - صلى الله عليهما وسلم - أو للكعبة، ونحو ذلك، فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًّا أو يهوديًا، نص عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا، فإن

قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك، صار بالذبح مرتدًّا". انتهى كلامه رفع مقامه.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # وهو يذكر أقسام الشرك: "اعلم، أن الشرك ينقسم ثلاثة أقسام بالنسبة إلى أنواع التوحيد، وكل منها قد يكون أكبر وأصغر مطلقًا، وقد يكون أكبر بالنسبة إلى ما هو أصغر منه، ويكون أصغر بالنسبة إلى ما هو أكبر منه:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

وهو نوعان:

النوع الأول: شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك. كشرك فرعون.. إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ومن هذا شرك الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأبديته، وأنه لم يكن معدومًا أصلًا، بل لم يزل ولا يزال، والحوادث بأسرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها، يسمونها العقول والنفوس.

ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود؛ كابن عربي، وابن سبعين، والعفيف التلمساني، وابن الفارض، ونحوهم من الملاحدة الذين كسوا الإلحادَ حِلية الإسلام، ومزجوه بشيء من الحق، حتى راج أمرهم على خفافيش البصائر. ومن هذا شرك مَن عطَّلَ أسماءَ الرب وأوصافه من غُلاة الجهمية والقرامطة.

النوع الثاني: شرك من جعل معه إلهًا آخر، ولم يعطل أسماءه وصفاته، وربوبيته: كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين: إسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها مدبرة لأمر هذا العالم، كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم.

قلت -والكلام للشيخ سليمان # : ويلحق به من وجه غلاة عباد القبور الذين يزعمون أن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت؛ فيقضون الحاجات، ويفرِّجون الكربات، وينصرون مَن دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بِجماهم، فإن هذه من خصائص الربوبية كما ذكره بعضهم في هذا النوع.

القسم الثاني: الشرك في توحيد الأسماء والصفات:

وهو أسهل مما قبله. وهو نوعان:

النوع الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق كمن يقول: يد كيدي، وسمع كسمعي، وبصر كبصري، واستواء كاستوائي، وهو شرك المشبهة.

النوع الثاني: اشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. قال ابن عباس { : "يلحدون في أسمائه: يشركون، وعنه: سموا اللات من الإله، والعزَّى من العزيز".

القسم الثالث: الشرك في توحيد الإلهية والعبادة:

قال القرطبي: "أصل الشرك المحرم: اعتقاد شريك لله تعالى في الإلهية. وهو الشرك الأعظم، وهو شرك الجاهلية، ويليه في الرتبة اعتقاد شريك لله تعالى في الفعل، وهو قول من قال: إن موجودًا غير الله تعالى يستقل بإحداث فعل وإيجاده، وإن لم يعتقد كونه إلهًا". هذا كلام القرطبي.

وهو -أي: شرك الألوهية- نوعان:

النوع الأول: أن يجعل لله ندًّا يدعوه كما يدعو الله، ويسأله الشفاعة كما يسأل الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويحبه كما يحب الله، ويخشاه كما يخشى الله،

وبالجملة فهو أن يجعل ندًّا يعبده كما يعبد الله، وهذا هو الشرك الأكبر، وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

النوع الثاني: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنيع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة". انتهى كلامه، # .

المراد بالشرك الأصغر

هو الشرك غير المخرج من الملة، عكس الأكبر، وجده بعضهم بأنه: كل ما ورد في النصوص تسميته شركًا، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر؛ كقول الرجل: ما شاء الله أو شئت، ولولا الله وأنت لم يكن كذا، والحلف بغير الله. وحَدَّه بعضُهم: بأنه كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الأكبر فهو الأصغر.

ومثال الأصغر هذا -كما قدمنا- يسير الرياء، والتصنع للمخلوق، فيعمل لِحَظِّ نفسه تارةً، ولطلب الدنيا تارةً، ولطلب المنزلة والجاه عند المخلوق تارةً، فله من عمله نصيب ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ؛ كالحلف بغير الله تعالى، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ومالي إلا الله وأنت، وأنا في حسب الله وحسبك، ونحوه.

وقد يكون ذلك شركًا أكبر بحسب حال قائله وتوحيده.

والشرك الأصغر نوعان:

ظاهر، وخفي، و قد يكون كل من النوعين في الألوهية أو الربوبية.

النوع الأول: شرك ظاهر: يكون بعمل الرياء؛ كالتصنع لغير الله تعالى بعمل في ظاهره أنه لله وفي باطنه عدم الإخلاص، ويكون اللفظ؛ كالحلف بغير الله، وقول الرجل: ما شاء الله وشئت، وقد سبقت الإشارة إليه.

النوع الثاني: شرك خفي: فهو الذي ينتاب الإنسان في أقواله وأعماله في بعض الفترات من غير أن يعلم أنه شرك، ويدل عليه حديث ابن عباس } أن النبي ﷺ قال: ((الشرك في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا)). أخرجه الهيثمي في (مجمع الزوائد)، وأبو يعلى في مسنده، وصححه الشيخ الألباني.

ولما كان هذا النوع من الشرك بهذا القدر من الخفاء، فقد سأل الصحابة } النبي ﷺ عن الخَلاصِ منه، فقالوا: ((كيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟ فقال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك به شيئًا نعلمه ونستغفرك لِمَا لا نعلمه)). رواه الإمام أحمد والطبراني.

أنواع الشرك وأفراده:

ثم لما ذكرنا أقسام الشرك، وبينا المراد بالشرك الأكبر، والمراد بالشرك الأصغر، يحسن بنا أن نذكر أفراد الشرك بنوعيه مما ينافي التوحيد أو ينافي كماله.

فنقول: قد تتبع الشيخ محمد بن عبد الوهاب # أنواع الشرك وأفراده في كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، فَبَوَّبَ أبوابًا كثيرة لتلك الأفراد. فمن تلك الأبواب: "باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه". واستدل عليه بقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزُّمَر:٣٨]، وقد دخل في ذلك كل من دُعِيَ من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين، فضلًا عن غيرهم، فلا يقدر أحد

على كشف ضر ولا إمساك رحمة، كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢]، وإذا كان كذلك، بطلت عبادتهم من دون الله، وإذا بطلت عبادتهم فبطلان دعوة الآلهة والأصنام أبطل وأبطل، ولبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه كذلك. بهذا يظهر وجه استدلال المصنف # بالآية.

وباب: "ما جاء في الرقى والتمائم"، ودليله في الصحيحين عن أبي بشير الأنصاري > : ((أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولًا: ألا يُبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قُطعت))، وعن ابن مسعود > قال: ((سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شركٌ)). رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وإنما كان ذلك من الشرك؛ لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله تعالى.

ومن ذلك: "باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما"، كالبقاع والغبران والعيون والقبور، ونحو ذلك، مما يعتقد كثير من الناس من عباد القبور والأضرحة فيه البركة، فيقصدونه لأجل ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٣] فالشاهد أن مَن تبرك بحجر أو شجر فقد ضاهى المشركين في عبادتهم الأوثان، حيث كانت ثقيف تعبد اللات، وتعبد قريش وبنو كنانة العُزَّى، وبنو هلال، وقيل: هذيل وخزاعة يعبدون مناة.

وعن أبي واقد الليثي < قال: ((خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر! إنها السُّنَنُ. قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، قال إنكم قوم تجهلون. لتركبن سنن من كان قبلكم)). رواه الترمذي وصححه.

قال الشيخ حسن آل الشيخ # : "فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها، اتخاذ إله مع الله مع إنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة، والذبح، والنذر لهم، والطواف بقبورهم، وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجُدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها؟! وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركًا؟!". انتهى كلامه.

ومن تلك الأبواب: "باب ما جاء في الذبح لغير الله"، و"باب من الشرك النذر لغير الله". و"باب من الشرك الاستغاثة بغير الله"، و"باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره"، و"باب ما جاء في السحر"، و"باب ما جاء في الكُهان ونحوهم"، و"باب ما جاء في النشرة وهي حَل السحر بسحر مثله"، و"باب ما جاء في التطير"، وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع، وغيرها، و"باب ما جاء في التنجيم"، وهو زعم تأثير الأحوال الفلكية في الحوادث الكونية. و"باب ما جاء في الاستستار بالأنوار"، أي: نسبة السقي ومجيء المطر إليها. و"باب قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

[البقرة:١٦٥]". فاتخاذ الأنداد التي تجذب بمحبتها عن محبة الله من الشرك. و"باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:١٧٥]".

ومن ذلك: "باب قول الله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحِجر:٥٦]"؛ لأن الأمن من مكر الله والقَنوط من رحمة الله من شِعب الشرك.

ومن ذلك: ما جاء في الرياء، و"باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا"، و"باب مَن أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله".

ومن ذلك: "باب قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:٦٠]"، الآية. لأن الله تعالى له الحكم القدري، وله الحكم الشرعي، وكذلك الحكم الجزائي له وحده لا شريك له، فإذا قدم العبد طاعة الأمراء والعلماء على طاعة الله ورسوله ﷺ وتحاكم إلى الطاغوت، وترك التحاكم إلى شريعة الله، فهذا من شعب الشرك.

إلى غير ذلك من الأبواب التي تعدد أفراد الشرك وأنواعه.

ونكتفي بهذا القدر من ذكر تلك الأنواع والأفراد؛ لأنه المقصود التمثيل لا الحصر.

خامسًا: بيان أن الشرك أول المحرمات، وأعظمها:

يعتبر الشرك أول خطر حصل للبشرية وغيَّر فطرتها، فقد كان الناس أمة واحدة على التوحيد حتى اجتالتهم الشياطين، وزينت لهم الشرك، حتى صار لكل أمة بعد ذلك طقوسها التي تدعي أنها تعبد الله عن طريقها، وتلك الطقوس عبارة عن خرافات وأوهام تقوم على الشرك، وكان الأنبياء يُبعثون لذلك، وكل نبي يركز في دعوته قومه إلى نبذ الشرك وتوحيد الله سبحانه وتعالى في العبادة حتى ختمهم الله ببعثة نبينا محمد ﷺ فجاء بالحنيفية السمحة والتوحيد الخالص، وخلص العقيدة من براثن الشرك، وهربت الخرافة تجر أذيال الهزيمة؛ خوفًا من أنوار التوحيد الساطعة.

ولهذا كان أول أمر في القرآن بالتوحيد، ومفهومه النهي عن الشرك، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ﴾ [البقرة: ٢١].

وذلك لخطورة الشرك؛ لأنه يحبط العلم ويوقع العامل في الحيرة ولا شك والضياع، والحكمة في أن الله سبحانه يغفر الكبائر ولا يغفر الشرك؛ لأنه أقبح المسبة لله تعالى، وهو الذي لا يبرأ من السوء والنقص والعيب سواه، ولا ينبغي الحمد والثناء مطلقًا إلا له سبحانه لكماله، فالشرك أعظم الظلم، ولا تسعه المغفرة التي هي صفة كماله. سبحانه وتعالى عما يشركون.

فالشرك إذا دخل في أي عبادة بطلت تلك العبادة ولم تقبل، وكل ذنب يرجى له العفو إلا الشرك، والدليل قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ

﴿بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾

[المائدة: ٧٢].

فالعبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها، وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار.

عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك بالله تعالى.

ومما يبين خطورة الشرك أن الإنسان إذا لم يجتنب الشرك فهو كافر، ولو كان من أعبد الناس يقوم الليل ويصوم النهار، قال الله تعالى في الأنبياء: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وتصير عبادته كلها كمن صلى ولم يغتسل من الجنابة، أو كمن يصوم في شدة الحر وهو يزني في أيام الصوم.

ولهذا كان الشرك من أظلم الظلم، وأول ذنب عُصي الله به، ولهذا كان النبي ﷺ يخاف على أمته، وقال في التحذير منه: ((من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار)). رواه الإمام مسلم.

فالشرك خطير ينافي التوحيد، ويوجب دخول النار، والخلود في دار البَوار، والعياذ بالله تعالى.

الشرك أسبابه وحكمه وخطورته

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول :	مبدأ ظهور الشرك	١٥٣
العنـــصر الثـــاني :	أسباب ظهور الشرك	١٥٨
العنـــصر الثالـــث :	حكم الشرك	١٦٤
العنـــصر الرابـــع :	ضرر الشرك و خطورته	١٦٦

مبدأ ظهور الشرك

لقد ذكرنا -فيما مضى- أن الله ﷻ خلق عباده حنفاءَ على فطرة التوحيد حتى اجتالتهم الشياطين، ولعبت بعقائدهم، فظهر الشرك في الناس. من أجل ذلك بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ليتم الإعذار إلى الخلق -ولا أحد أعذر من الله- ولتقوم الحجة على الخليقة، فكان كل نبي من هؤلاء المرسلين يأمر قومه بتحقيق التوحيد، وينهاهم عن الشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وأول ما ظهر الشرك في قوم نوح # ، على المشهور- وقد كان بنو آدم على ملة أبيهم # نحو عشرة قرون، كما قال ابن عباس وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]؛ وذلك لأن الشيطان -لعنه الله- لم يزل دائبًا جادًّا مشمرًا في عداوة بني آدم # منذ كان أبوهم طينًا، فلما نفخ الله فيه الروح وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلهم إلا إبليس أَبى واستكبر، وكان من الكافرين، وقال: ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحِجر: ٣٣].

فلما سأله الله ﷻ عن سبب امتناعه من السجود واستكباره عن أمر ربه، والله تعالى أعلم به، فقال سبحانه له: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢]،

فأجاب الخبيث مفتخرًا بأصله، طاعنًا على ربه تعالى في حِكمته وعدله: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [ص: ٧٦]، فعامله الجبار بنقيض ما قصده، وأذاقه وبالَ حسدِه، وأثمر له استكباره الذل الأبدي الذي لا عِز بعده ﴿ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال: ﴿ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ [الأعراف: ١٨]، وقال: ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحِجر: ٣٤، ٣٥]، فطلب الإنظار ليأخذ بزعمه من آدم وذريته بالثأر، ولا يعلم أنه بذلك إنما يُراد من غضب الجبار، وقد علم أنه لا سبيل إلا على حزبه وتابعيه من الكفار الذين هو إمامهم في الخروج عن طاعة الله والاستكبار: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ [ص: ٧٩ - ٨١].

أجابه الله تعالى إلى طلبه؛ ليمتحن عبادَه اختبارًا وابتلاءً: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴾ [المُلك: ٢]، فقابل بالكفران وجدد صفة الخسران، وأقسم ليستعملن مدته، وليستغرقن حياته في إغواء ذرية آدم الذين كان طَرْده وإبعاده بسببهم، إذ لم يسجد لأبيهم، ولا رأى أن ذلك باستكباره عن أمر ربه، بل قدس نفسه اللئيمة، وأسند الإغواء إلى ربه مخاصمةً ومحادةً، ومشاقةً: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ولم يقل اللعين: "من فوقهم" لعلمه أن الله تعالى من فوقهم. قال الله تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحِجر: ٤١، ٤٢]، وقد علم الرجيم ذلك، فقال آيسًا منهم: ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، ثم لما سعى إلى آدم وحواء زوجه في الجنة، ودلهما على تلك الشجرة التي نهاهما الله ﷻ عنها أن يقربوها، وأباح لهم ما سواها من الجنة، فاستدرجهم اللعين بخداعه وحيلته البائرة،

وغـــرهم بتلــــك الــــيمين الفـــاجرة: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]، فنفذ قضاء الله وقدره بأكلهما منها، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وظن اللعين أنه قد أخذ بثأره من آدم، وأنه قد أهلكه معه، ولم يعلم بفضل الله وسعة رحمته الذي لا يقدر أحد على شيء منه: ﴿ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢٩]، فلما عاتبهما الله -تبارك وتعالى- على ذلك بقولـــــــــه: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ثم أراد الله سبحانه أن يهبطهم إلى دارٍ أخرى، هي دار الامتحان والابتلاء؛ ليتبين حزبه الذين يتبعون رسله، ويتبين حزب عدوه الذين اتبعوه وأطاعوه وصاروا من خَيله ورَجله.

ولما مات آدم # كان وصيه شيئًا # ومضت تلك المدة التي ذكرنا والناس كلهم على شريعة من الحق، كما ورد عن ابن عباس } أنه قال: "وكان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين". وزين الشيطان -لعنه الله- لقوم نوح عبادة الأصنام، وكان أول ذلك أن زين لهم تعظيم القبور والعكوف عليها. وبيان ذلك ما روى البخاري # عن ابن عباس } أنه قال في: وَد، وسُواع، ويَغوث، ويعوق، ونسر: "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما أهلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك وتُنوسي العلم، عُبِدَتْ". انتهى.

فلو جاءهم اللعين وأمرهم من أول وهلة بعبادتهم، لم يقبلوا ولم يطيعوه. بل أمر الأولين بنصب الصور؛ لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم، ثم تكون عبادة

الله عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يخلفهم، فلما أرسل الله سبحانه إليهم نوحًا # فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى الله تعالى وهم مستكبرون عن الحق حتى أهلكهم الله تعالى بالطوفان. ثم بَعْدَهم عَادٌ عبدوا آلهة مع الله منها: "هَدَا، وصَدَى، وصَمُودا" فأرسل الله ﷻ إليهم هودًا # فلبث فيهم ما لبث يدعوهم إلى توحيد الله ﷻ فلما حق عليهم العذاب أهلكهم الله تعالى بالريح، ثم ثمود كذلك، وأرسل الله إليهم صالحًا # فكذبوه، فأُهلكوا بالصيحة، ثم قوم إبراهيم عبدوا الشمس والقمر والنجوم، وعبدوا الأصنام وغير ذلك، وقد قص الله تعالى في كتابه كل ذلك مفصلًا عن الأمم ورسلهم، وعبد أول بني إسرائيل العجل وآخِرُهم عبدوا عزيرًا، وعبدت النصارى المسيح # وعبدت المجوس النار، وعبد قوم الماء، وعبد كل قوم ما زينه الشيطان لهم على قدر عقولهم.

هذا في الأمم الأولى، وكل منها له وارث من الأمم المتأخرة. فالأصنام التي في قوم نوح قد انتقلت إلى العرب في زمن عمرو بن لُحَي -قبحه الله تعالى- كما ذكر ذلك ابن عباس } فيما رواه عنه الإمام البخاري # حيث قال ابن عباس: "أما "ودٌّ" فكانت لكلب بدومة الجندل، و"سُواع" كانت لهذيل، وأما "يغوث" فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ. وأما "يعوق" فكانت لهمذان، وأما "نسرا" فكانت لحمير لآل ذي الكلاع". انتهى.

وقصة تلك الأصنام التي قدم بها عمرو بن لُحَي ذكرها الكلبي في كتابه (الأصنام) حيث قال: "كان عمرو بن لحي كاهنًا وله رِئي من الجن، فقال له: عجل السير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة، ائت جدةَ تجدْ فيها أصنامًا معدَّة، فأوردها تهامة، ولا تهب، ثم ادع العرب إلى عبادتها تُجبْ. فأتى نهر جدة فاستثارها، ثم حملها حتى ورده تهامة، وحضر الحج فدعا العرب إلى

عبادتها قاطبةً، فأجابه عوف بن عدن بن زيد اللات فدفع إليه "ودًّا" فحمله، فكان بوادي القرى بدومة الجندل، وسمى ابنه "عبد ود"، فهو أول من سُمِّي به، وكان صن "ود" تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد نقش عليه حلتان، متزر بحلة ومُرتد بأخرى، عليه سيف قد تقلده، وقد تنكب قوسًا وبين يديه حربة فيها لواء ثم دفع عمرو بن لُحي "سُواعًا" إلى رجل من هذيل، فكان بأرض نخلة، وفيه يقول رجل من العرب:

تراهم حول قبلتهم عكوفًا ❖ كما عكفت هَذيلُ على سُواعِ

ثم دفع "يغوث" إلى رجل من مذجح، فكان بأكمة باليمن تعبده مذجح ومَن والاها.

ثم دفع "يعوق" إلى رجل من همدان فعبدته مع مَن والاها من اليمن، وأجابته حمير فدفع إلى رجل منها يدعى معد يكرب "نسرًا" فكان بموضع من أرض سبأ يقال له: "بلخع".

فلم تزل هذه الأصنام تعبد حتى بعث الله نبيه محمدًا ﷺ فهدمها وكسرها. وثبت أنه ﷺ حطم ثلاثمائة وستين صنمًا كانت حول الكعبة المشرفة في فتح مكة حَرَّمَها الله تعالى.

وذكر ابن هشام # عن بعض أهل العلم: "أن عمرو بن لُحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مُآب -من أرض البلقان- وبها يومئذ العماليق- وهم ولد عملاق، ويقال: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح- رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي آراكم تعبدون؟ فقالوا: هذه أصنام نعبدها، ونستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا

تعطونني منها صنمًا، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه؟ فأعطَوْه صنمًا يقال له: "هُبَل" فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه".

وقال ابن إسحاق: "ثم اتخذوا "إسافًا ونائلةً" على موضع زمزم، ينحرون عندهما، وكان إساف ونائلة رجلًا وامرأة من جُرهم: هو إساف بن بغي، ونائلة بنت ديك، فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجرين، قال أبو طالب في ذلك:

وحيث يُنيخُ الأشعرون ركابهم ❖ بِمَفْضى السيول من إساف ونائل

وكان لبني كنانة صنم يقال له: "سعدٌ" وهو صخرة بفلاة من أرضهم، فأقبل رجل بإبل له مؤبلة؛ ليقفها عليه التماسًا لبركته فيما يزعم، فلما رأته الإبل وهو ملطخ بالدماء لكثرة ما يهراق عليه، نفرت الإبل، وذهبت في كل وجه، فغضب الرجل وأخذ حجرًا ورماه به وقال: "لا بارك الله فيك نفَّرت عليَّ إبلي" ثم خرج في طلبها حتى جمعها، وقال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا ❖ فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعدِ

وهل سعدُ إلا صخرة بتنوفة ❖ من الأرض لا تدعو لغي ولا رشد

أسباب ظهور الشرك

يقول العلامة ابن القيم # : "وتلاعبُ الشيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسباب عديدة، تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم؛ فطائفة دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم كما تقدم عن نوح # ولهذا لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج، ونهى عن الصلاة إلى القبور، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد، ونهى أمته

أن يتخذوا قبره عيدًا، فأبى المشركون إلا خلافه في ذلك كله إما جهلًا وإما عنادًا لأهل التوحيد، ولم يضرهم ذلك شيئًا، وهذا السبب هو الغالب على عوام المشركين، وأما خواصهم فقد اتخذوها -بزعمهم- على صور الكواكب المؤثرة في العالم عندهم، وجعلوا لها بيوتًا وسَدنة وحجابًا وحجًا وقربانًا، ولم يزل هذا في الدنيا وحديثًا...

فمنهم عبَّاد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لها نفس وعقل، وهي أصل نور القمر والكواكب، فتستحق التعظيم والسجود والدعاء، وطائفة اتخذت للقمر صنمًا، وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة، ومنهم من يعبد أصنامًا اتخذوها على صورة الكواكب وروحانياتها بزعمهم، وبنَوا لها هياكل، ومتعبدات، لكل كوكب منها هيكل يخصه، وصنم يخصه، وعبادة تخصه، ومن هاهنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصنامًا، وزعموا أنها على صورتها، ومن أسباب عبادتها أن الشياطين تدخل فيها، وتخاطبهم منها، وتخبرهم ببعض المغيبات، وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم، وهم لا يشاهدون الشياطين، فجهلتهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب، وعقلاؤهم يقولون: إن تلك روحانيات الأصنام، وبعضهم يقول: إنها الملائكة.

وبالجملة: فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم # كما تقدم.

السبب الأول: الغُلو في المخلوقين وعبادة الأصنام:

الغلو في المخلوق وإعطاؤه منزلة فوق منزلته حتى جُعل فيه حظٌ من الإلهية وشبهوه بالله ﷻ وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسله وأنزل كتبه؛ لإنكاره والرد على أهله، ومن كيد الشيطان وتلاعبه

ما تلاعب بعباد النار حتى اتخذوها إلهًا ومعبودة، وسرى هذا المذهب في المجوس، فبنوا لها بيوتًا كثيرة واتخذوا لها الوقوف -جمع وقف- والسدنة والحجاب، فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة، وعباد النار يفضلونها على التراب، يعظمونها ويصوبون رأي إبليس.

وقد رمي الشاعر بشار بن سرد بهذا المذهب؛ لقوله:

الأرض سافلة سوداء مظلمة ❖ والنار معبودة مذ كانت النار

ومن تلاعب الشيطان وكيده، تلاعبه بطائفة أخرى تعبد الماء من دُون الله وتسمى: "الجلمانية"، وتزعم أن الماء لما كان أصل كل شيء، وبه كل ولادة، ونمو ونشوء وطهارة وعمارة، وما من عمل في الدنيا إلا ويحتاج إلى الماء، فكان حقه أن يُعبد، ومن شريعتهم في عبادته: أن الرجل منهم إذا أراد عبادته تجرد وستر عورته، ثم دخل فيه حتى يصير إلى وسطه، فيقيم هناك ساعتين أو أكثر بقدر ما أمكنه، ويكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين، فيقطعها صغارًا، فيلقيها فيه شيئًا فشيئًا وهو يسبحه ويمجده، فإذا أراد الانصراف حرك الماء بيديه، ثم أخذ منه فيضعه على رأسه ووجهه وجسده، ثم يسجد وينصرف.

ومن تلاعبه تلاعبه بعباد الحيوانات؛ فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر: الأحياءَ والأمواتِ، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

انتهى كلامه.

ولبيان أسباب الشرك، عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب # عدة أبواب في كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، وذلك لتتضح أسباب الشرك ووسائله للحذر منها.

ومن تلك الأبواب:

"باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين".

و"باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تُعبد من دون الله".

و"باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟".

ولا شك أن أكبر أسباب الشرك هو الغلو في المعبودات من دون الله تعالى، فالغلو كثير في النصارى، فإنهم غَلَوْا في عيسى # فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهًا من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله، بل غلوا فيمن زعم أنه على دينه من أتباعه، فادعوا فيهم العصمة، فاتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقًّا أو باطلًا، وناقضتهم اليهود في أمر عيسى # فغلوا فيه، فحطوه من منزلته حتى جعلوه ولد بغي، وهذا هو الغلو الذي نهى الله عنه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء: ١٧١].

وفي بيان أن من أسباب الشرك الغلو، يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب #: "لأن الناس يعرفون الرجل الصالح وبركته ودعاءَه، فيعكفون على قبره، ويقصدون ذلك، فتارةً يسألون، وتارةً يسألون الله عنده، وتارةً يصلون ويدعون الله عند قبره، ولَمَّا كان هذا بدء الشرك سَدَّ النبي ﷺ هذا الباب. ففي الصحيحين

أنه قال في مرض موته: "((لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد))، يحذر ما صنعوا". انتهى كلامه.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي # : "والغلو في الصالحين لا شك أنه هو الباب المفضي إلى الشرك قديمًا وحديثا، فالغلو فيهم هو مجاوزة الحد بأن يجعل للصالحين من حقوق الله الخاصة به شيئًا، فإن حق الله الذي لا يشاركه فيه مشارك هو الكمالُ المطلقُ، والغِنى المطلقُ، والتصرفُ المطلقُ من جميع الوجوه، وأنه لا يستحق العبادة والتأله أحدٌ سواه". انتهى كلامه.

السبب الثاني: آراء الفلاسفة الفاسدة:

شرك انتشار آراء الفلاسفة التي تبعد بالناس مراحل عن الوحي والتشريع إلى زبالات الآراء الفاسدة، والمقالات الكاسدة، فقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن أصل كل شيء في العالم إنما حدث برأي أئمة هؤلاء المتكلمين أصحاب المقاييس المعارضة للوحي، منهم الآمرون بالشرك والفاعلون له، ومن لم يأمر منهم بالشرك، فلم ينه عنه، بل يقر هؤلاء وإن رجح الموحدين ترجيحًا ما، فقد يرجح في غيره المشركين، وقد يعرض عن الأمرين جميعًا.

السبب الثالث: التبرك بالقبور، والصلاة عندها:

ومن أسباب الشرك ووسائله التي يجب القضاء عليها ومنعها: لمس القبر والتمسح به، وبناء القباب على القبور والصلاة عندها، وقصدها لأجل الدعاء عندها معتقدًا أن الدعاء هناك أفضل من الدعاء في غيره، أو النذر لله في هذا المكان، ونحو ذلك فهذا ليس من دين المسلمين، بل هو مما أحدث من البدع القبيحة التي هي من شعب الشرك.

وانتشار الشرك الأكبر بين بعض المسلمين سببه الغلو سواء كان الشرك في الربوبية، أو الألوهية، أو الأسماء والصفات. فالشرك في الربوبية حصل بينهم بسبب الغلو في معرفة الله تعالى، حيث تركوا الهدي النبوي لذلك، واتخذوا مناهج أخرى، فخلوا في الكلام وأجاعوا أنفسهم، وجعلوا لهم أذكارًا خاصة، فنشأت من ذلك الاتحادية والوجودية ونحوها بتلبيس الشيطان عليهم.

والشرك في الأسماء والصفات حصل بالغلو في الوصف والإثبات أو النفي والتنزيه، فإن قومًا وصل بهم غلوهم في الإثبات والوصف لله تعالى أن وصفوه فشبهوه بخلقه، وآخرون غَلَوْا في التنزيه، فأنكروا صفات الله أو بعضها؛ ظنًّا منهم أنهم يقدسون ويعظمون الرب، سبحانه وتعالى.

وأما الشرك في توحيد الألوهية فسببه الغلو في الصالحين، وقد نهى الله عن الغلو في الدين فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

فالطغيان والغلو معناهما مجاوزة الحد في الدين، وقد تكون هذه المجاوزة سلبًا، وقد تكون إيجابًا. فالنصارى غلوا في عيسى # فرفعوه من حيز النبوة إلى الألوهية، وبمقابلتهم اليهود غلوا فيه سلبًا، فحطوه من مكانته، فجعلوه ولد بغي -عليهم لعائن الله- وقد كان في المسلمين مَن تشبه بهؤلاء في الرسول، صلى الله عليه وسلم.

حكـــــــم الـــــــــشرك

لا ريبَ أن الشرك أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ الله به وأكبر شيء نهَى الله عنه، قال الله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾، وهو أول المحرمات، كما يدل عليه قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فمن أشرك بالله تعالى بأن جعل لله ندًّا يدعوه كما يدعوا الله، أو يخافه، أو يرجوه، أو يحبه كحب الله، أو يصرف له نوعًا من أنواع العبادة، فحكمه حكم الكافر الذي يُستباح دمه وماله وعرضه. وهذا الشرك ناقض للعبادة، ومفسد لها، ومحبط لأي عمل، وظلم عظيم، وهو أقبح مسبة لله تعالى. ولهذا رتب الله عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه من إباحة دماء أهله وأموالهم وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال تعالى عن الخليل # أنه قال يدعو ربه: ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فمن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ولو كان في الدنيا من أعبد الناس. فالشرك خطير، وحكمه ظاهر فإنه ينافي التوحيد، ويوجب دخول النار والخلود في دار البوار، والحرمان من الجنة إذا كان أكبر، ولا

تتحقق وتكمل السعادة إلا بالسلامة منه. فكان حقًّا على العبد أن يخاف منه أعظم خوف، وأن يسعى في الفرار منه كما يسعى في الفرار من الأسد وأشد، ويحذر من طرقه ووسائله، وأسبابه، ويسأل الله تعالى العفوَ والعافية منه، كما فعل ذلك الأنبياء والأصفياء، وخيار الخلق، وعقلاء البشر؛ لأن صَرْفَ شيء من العبادة لغير الله كصرف مجموعها؛ لأن الله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا لوجه الكريم، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزُّمَر: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، إلى غير ذلك من الآيات التي توضح حكم الشرك، وأنه أقبح ذنب عصي الله به، وأنه أظلم الظلم: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأنه إذا خالط عملًا أو قولًا أو اعتقادًا، أحبط ذلك كلَّه وأصبح هباء منثورًا.

كما أن الله تعالى لا يغفره لمن مات عليه ولم يتب منه، وصاحبه في الدنيا حلال الدم والمال، وهو معرض لسبي نسائه وأولاده. وأما حكمه في الآخرة؛ فالخلود في النار -والعياذ بالله تعالى- فوضح بذلك قبحه، واتضح حكمُه.

ضـــرر الــــشرك وخطورتـــه

خطورة الشرك :

عندما نتأمل في كثير من الآيات التي ذكر فيها الشرك، نجد أن في إطلاقها تحذيرًا وتخويفًا من الشرك بكل أنواعه وأفراده، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء: ٤٨] فهذه الآية وإن كان المراد فيها بالشرك الشرك الأكبر المخرج من الملة كما عليه جمهور أهل العلم، إلا أن الآية تخوف من الشرك بكل أنواعه، ولهذا وجد من أهل العلم من يرى أن الشرك الأصغر لا يغفر لهذه الآية.

ومن الآيات التي تحذر من الشرك، وتبين خطورته قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]. ولما كان التوحيد أعظم شُعب الإيمان، وهو اعتقاد ما اشتملت عليه الكلمة العظيمة: "لا إلهَ إلا اللهُ"، فإن الشرك بالمقابل يكون أعظم شعب الكفر، فإنه اعتقاد وتصديق من القلب لما ينافي مدلول كلمة التوحيد من إشراك بالله أو تكذيب بمدلولها. فالشرك أخطر الموبقات، وأكبر الكبائر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وقال النبي ﷺ: ((ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق

الوالدين...)). الحديث رواه البخاري ومسلم، ولهذا كانت عقوبة الشرك أعظم عقوبة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

يقول الإمام المقريزي # مبينًا خطورة الشرك: "اعلم، أن حقيقة الشرك تشبيه الخالق بالمخلوق، وتشبيه المخلوق بالخالق. أما الخالق: فإن المشرك شبه المخلوق بالخالق في خصائص الإلهية وهي التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق تعالى، وسوى بين التراب ورب الأرباب، فأي فُجور وذنب أعظم من هذا؟

واعلم أن من خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه. بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة له وحده عقلًا وشرعًا وفطرةً، فمن جعل ذلك لغيره فقد شبه الغيرَ بمن لا شبيه له، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر مَن كتب على نفسه الرحمة أنه لا يغفره أبدًا، ومن خصائص الإلهية والعبودية التي لا تقوم إلا على ساق الحب والذل، فمن أعطاهما لغيره فقد شبهه بالله ﷻ في خالص حقه، وقبح هذا مستقر في العقول والفطر، لكن لما غيرت الشياطين فطرَ أكثر الخلق، واجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، كما روي عن أعرف الخلق به وبخلقه عموا عن قبح الشرك حتى ظنوه حسنًا.

ومن خصائص الإلهية السجود، فمن سجد لغيره فقد شبهه به، ومنها التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به. هذا في جانب التشبيه.

وأما في جانب التشبه: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه، ورجائه ومخافته، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته، وهو حقيق بأن يهينه الله غاية الهوان ويجعله كالذر تحت أقدام خلقه.

ففي (صحيح الإمام مسلم) من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة ﴿ أن النبي ﷺ قال: ((يقول الله ﷻ: العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فَمَن نازعني في واحد منهما عذبته))...

وبالجملة: فالتشبيه والتشبه هو حقيقة الشرك، ولذلك كان مَن ظن أنه إذا تقرب إلى غيره بعبادة ما يقربه ذلك الغير إليه تعالى، فإنه يخطئ؛ لكونه شبهه به وأخذ ما لا ينبغي أن يكون إلا له، فالشرك منعه سبحانه حقه، فهذا قبيح عقلًا وشرعًا. ولذلك لم يشرع ولم يغفر لفاعله...

وبالجملة:

فهذا باب واسع والمقصود أن من عبد مع الله غيره فإنما عبد شيطانًا، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، فما عَبَدَ أحد أحدًا من بني آدم كائنًا من كان إلا وقد وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول غرضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله تعالى، وذلك غاية رضا الشيطان.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]أي: من إغوائهم وإضلالهم. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يُغفر بغير التوبة، وأنه موجب للخلود في العذاب

العظيم، وأنه ليس تحريمه قبحُه بمجرد النهي عنه فقط، بل يستحيل على الله ﷻ أن يشرع لعباده عبادة إلهٍ غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله، ونعوت جلاله".

انتهى كلامه، # .

إذن: فالشرك أعظم ذنبٍ عُصِيَ الله تعالى به، ولهذا أخبر ﷻ أنه لا يغفره، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار محجوب عن رؤية الغفار، لا نصير له، ولا حميم لديه، ولا شفيع يطاع، وأنه لو قام لله تعالى قيام السارية ليلًا ونهارًا، ثم أشرك مع الله تعالى غيره لحظة من اللحظات ومات على ذلك، فقد حبطَ عمله كله بتلك اللحظة التي أشرك فيها، ولو كان نبيًّا رسولًا، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾، وقال لصفوة خلقه -عليهم السلام- بعد أن أثنى عليهم: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال لخاتمهم محمد ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾.

وعن أنس > قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك. يا ابن آدم، لو لقيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة)). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وعن معاذ بن جبل > قال: ((كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله ﷻ؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا. وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا)). رواه البخاري ومسلم.

فالمقصود:

أن الشرك أعظم ما نَهَى الله عنه، كما أن التوحيد أعظم ما أمر به، ولهذا أول دعوة الرسل كلهم إلى توحيد الله ﷻ ونفي الشرك، فلم يأمروا بشيء قبل التوحيد، ولم ينهوا عن شيء قبل الشرك، وما ذكر الله تعالى التوحيد مع شيء من الأوامر إلا جعله أولها، ولا ذكر الشرك مع شيء من النواهي إلا جعله أولها، كما في آية النساء: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكما في آية الأنعام، التي طلب النبي ﷺ البيعة عليها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ

﴿هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

وكما في آية الإسراء: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، فابتدأ تلك الأوامر والنواهي بالتوحيد، والنهي عن الشرك، وبيان خطورته، وختمها بذلك.

ولما كان الشرك بهذه الخطورة، وجب على أهل العلم تحذير الناس منه، والخوف من تلبسه.

ولهذا عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب # بابًا لهذا الغرض في كتاب (التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)، بعنوان: "باب الخوف من الشرك"، ثم أورد تحت هذا الباب الأدلة من الكتاب والسنة، نقلنا بعضها سابقًا.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : "فتبين بهذا أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره، أي: إلا بالتوبة منه، وما عداه فهو داخل تحت مشيئة الله إن شاء غفره بلا توبة وإن شاء عذب به، وهذا يوجب للعبد شدة الخوف من هذا الذنب الذي هذا شأنه عند الله، وإنما كان كذلك؛ لأنه أقبحُ القبحِ، وأظلمُ الظلمِ، إذ مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدل غيره به كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالَم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب، وقامت القيامة،

كما قال ﷺ: ((لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله)). رواه الإمام مسلم # ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق -تعالى وتقدس- في خصائص الإلهية من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع الذي يوجب تعلق الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علَّقَ ذلك بمخلوق، فقد شبهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا حياةً ولا نشورًا، فضلًا عن غيره شبيهًا بمن له الخلق كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله.

فَأَزِمَّةُ الأمور كلها بيديه سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم، فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات.

ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية، والدعاء، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والتوبة، والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل، كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون لله وحدَهُ، ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون لغيره، فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له ولا نِد له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله.

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه أنه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة".

انتهى كلامه.

ضرر الشرك:

لما كان الشرك بهذه الخطورة التي وصفنا، وبينا حكمه، وهو أنه يُخلد صاحبه في النار -إذا مات ولم يتب منه- وأنه في الدنيا حلال الدم والمال والعرض. لما كان الأمر كذلك، فإن أمرًا هذا حكمُه، وهذه خطورته ونتائجه، فإن ضرره عظيم وعاقبته وخيمة.

وبيان ذلك فيما يأتي:

أ- الشرك يوقع صاحبه في نجاسة اعتقادية أشد من النجاسة الحسية:

فقد وسم الله ﷻ الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه العزيز دون سائر الذنوب، وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ ﴾ [التوبة:٢٨]، وقوله في اللواطة: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقالت جماعة اللواطة: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله متطهرون من ذلك باجتنابهم له، وقال تعالى في حق الزناة: ﴿ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

وأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

النجاسة المغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﻷ فإن الله لا يغفر أن يُشرك به.

النجاسة المخففة: الشرك الأصغر؛ كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به، وخوفه، ورجائه.

ونجاسة الشرك عينية، ولهذا جعل الله سبحانه الشرك نَجَسًا -بفتح الجيم- ولم يقل: إنما المشركون نجِس -بالكسر- فإن النَّجَس عين النجاسة، والنَّجِس هو المتنجس، فالثوب إذا أصابه بَوْل أو خمر نَّجِس -بالكسر- والبول والخمر نَّجَس بالفتح. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم، فإن النَّجَس في اللغة والشرع: هو المستقذر الذي يطلب مباعدته والبعد عنه، بحيث لا يُلمس، ولا يُشم، ولا يُرى فضلًا عن أن يخالط ويلابس لقذارته، ونفرة الطِّباع السليمة عنه، وكلما كان الحي أكمل حياة، وأصح حياء، كان إبعاده لذلك، ونفرته منه أقوى.

والنجاسة تارةً تكون محسوسة ظاهرة، وتارةً تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتى إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها كما يتأذى من شم رائحة النتنة، ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق، وكان رسول الله ﷺ أطيبَ الناس عَرَقًا.

والمقصود:

أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى، وأكرهها له، وأشدها مقتًا لديه، ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنبٍ سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك.

ب- يلزم منه تنقص الرب ﷻ:

فالشرك ملزوم لتنقص الرب ﷻ والتنقص لازم له ضرورةً شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده ﷻ وكمال ربوبيته ألا يغفره وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية، فلا تجد مشركًا قط إلا وهو متنقص لله ﷻ وإن زعم أن يعظمه بذلك، كما أنك لا تجد مبتدعًا إلا وهو متنقص للرسول ﷺ وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة.

فالمتنقصون المنقوصون عند الله تعالى ورسوله وأوليائه هم أهلُ الشرك والبدعة.

ج- أنه سبب للهلاك:

يقول الشيخ حافظ الحكمي # : "من هنا يتبين لك عظم ذنب الشرك، وأنه أقبح الذنوب، وأظلم الظلم، وأكبر الكبائر، وأن الله تعالى لا يغفره ولا يقبل لأحد معه عملًا، وأنه لا أشد هلكةً منه، وما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب إلا بالنذارة عن الشرك، والدعوة إلى التوحيد، ولا نَجَّا الرسل وأتباعهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، إلا بالتزام التوحيد والبراءة من الشرك، فما هلك قوم نوح بالطوفان، ولا عاد بالريح العظيم، ولا ثمود بالصيحة، ولا أهل مدين بعذاب يوم الظُّلة، إلا بالشرك وعبادة الأصنام.

وهكذا الأمم من بعدهم بأنواع العذاب، ولم يخرج عصاة الموحدين من النار في الآخرة إلا بالتوحيد، ولم يخلد غيرُهم فيها أبدًا مؤبدًا إلا الشرك". انتهى.

الرد على الشبهتين الأولى والثانية في تعلق الغلاة بالشرك

عناصر الدرس

العنصر الأول :	استعراض هاتين الشبهتين	١٧٩
العنصر الثاني :	الجواب المجمل على هاتين الشبهتين	١٨١
العنصر الثالث :	الجواب المفصل على هاتين الشبهتين	١٨٣
العنصر الرابع :	الرد على الصورتين الفلسفية والعامية للشبهة الأولى	١٩٥

استعراض هاتين الشبهتين

أولًا: استعراض الشبهة الأولى:

يقول أهل الأهواء في تقريرهم لهذه الشبهة: نحن لا نشرك بالله بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا فضلًا عن غيره من المقصودين. ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله وأطلب من الله بهم وبتوسيطهم.

وهذه الشبهة من أكبر الشبهات التي يتعلق بها أهل الأهواء -عمومًا- ويستدلون بها على جواز دعاء غير الله تعالى في الشدائد والاستغاثة به وزعمهم أنهم إذا توجهوا إلى الأنبياء والصالحين بالدعاء والاستغاثة والتوسل بهم وتوسيطهم في العبادات أنهم لا يعبدونهم بذلك وإنما يعبدون الله تعالى ويتوجهون بهؤلاء المحبوبين ليقربوهم إلى الله زلفى.

ولهذه الشبهة صورتان:

١- صورة فلسفية منطقية كلامية.

٢- صورة أمية عامية.

أما الصورة الأولى؛ فتقريرها عندهم: أن النفوس التي فارقت أبدانها أقوى من النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه؛ لأنها حين فارقت تلك الأبدان زال عنها الغطاء والوطاء، وانكشف لها عالم الغيب. فالزائر إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر شديد التأثير ووقف عند قبره ساعة، وتأثرت نفسه من

تلك التربة حصل لنفس الزائر تعلق بتلك التربة التي عرفنا أن لنفس الميت المزور تعلقًا بها أيضًا، فحينئذ يحصل لنفس الحي ولنفس الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما على تلك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، وبهذا السبب ينعكس النور من نفس الميت المزور إلى نفس هذا الحي الزائر، وبهذه الطريقة الفلسفية تصير تلك الزيارة سببًا لحصول المنفعة الكبرى، فهذا هو السبب الأصلي في شرعية الزيارة، ولهذا يُنتفع بزيارة القبور والاستعانة بنفوس الأخيار من الأموات في استمطار الرحمات، ودفع المضرات. هذه سفسطة المتفلسفة منهم.

وأما الصورة الثانية للواسطة؛ فتقريرها - عند العامة - : على جواز الاستغاثة بالأموات واستمداد الفيوضات منهم، بل وجوبها عندهم. أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام- والأولياء، كما يزعمون واسطة في العون والمدد والإغاثة بين الله تعالى وبين المكروبين المضطرين لعلو شأنهم ورفيع منزلتهم عند الله تعالى، وأن المكروب المستغيث يرى نفسه ملطخًا بالذنوب فهو بعيد عن الله تعالى لا يصل إليه إلا بواسطة أحبابه من الأولياء المقربين الذين يشفعون له عند الله تعالى، فكما أنه لا يمكن للعامة الوصول إلى الملوك إلا بواسطة الأمراء والوزراء والمقربين، كذلك لا يمكن الوصول إلى الله لقضاء الحوائج وتحقيق الآمال إلا بواسطة المعظمين المقربين من الأنبياء والأولياء.

ثانيًا: استعراض الشبهة الثانية:

يقول المدافعون عن الشرك من أهل الأهواء والبدع: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، فكل من شهد بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولًا لا يُتوقع منه الوقوع في الشرك. فمن وجدناه يتلفظ بالشهادتين وهو يعتقد أن الأولياء والصالحين ينفعونه أو

يضرونه فهو يقصدهم بالدعاء والرجاء والاستعانة والاستغاثة طالبًا منهم المدد والعون خاشعًا متذللًا من فعل ذلك ينبغي أن لا نحكم عليه بأنه وقع في الشرك؛ لأن الشرك إنما يحكم به على من قصد الأصنام والأوثان بالدعاء والذبح والنذر وأصناف العبادات الأخرى، أما الأولياء والصالحون فليسوا مثل الأصنام والأوثان فمن يدعوهم أو يستغيث بهم أو يقصدهم بشيء من تلك العبادات لا يحكم عليه بالشرك؛ لأنه ليس مثل من يدعو الأصنام والأوثان!!

الجواب المجمل على هاتين الشبهتين

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # في كتابه: (كشف الشبهات):

"جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل، ومفصل، أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها. وذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم)). رواه الإمام البخاري ومسلم -رحمهما الله-، مثال ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢]، وأن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره. فجاوبه بقولك: إن الله ذكر في كتابه: إن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، هذا أمر محكم بين

لا يقدر أحد أن يغير معناه، وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله.

وهذا جواب جيد سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهين به، فإنه كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]". انتهى كلامه.

وقال الشيخ ابن عثيمين # في تعليقه على هذا الرد المجمل. من شرحه لـ(كشف الشبهات):

أجاب الشيخ على هذه الشبهات بجوابين: أحدهما مجمل عام صالح لكل شبهة، والثاني مفصل. وهكذا ينبغي لأهل العلم في باب المناظرة والمجادلة أن يأتوا بجواب مجمل حتى يشمل ما يحتمل أن يورده الملبسون المشبهون، ويأتي بجواب مفصل لكل مسألة بعينها، قال الله تعالى: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] فذكر في الجواب المجمل # : "أن هؤلاء الذين يتبعون المتشابه هم الذين في قلوبهم زيغ كما صح ذلك عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ...﴾ الآية. (آل عمران: ٧). ولهذا تجد أهل الزيغ والعياذ بالله يأتون بالآيات المتشابهات ليلبسوا بها على باطلهم فيقولون مثلًا. قال الله تعالى كذا، وقال في موضع آخر كذا..." فالرجل الذي يتبع المتشابه من القرآن أو من السنة وصار يلبس به على باطله فهو من الذين سماهم الله ووصفهم بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] الآية. ثم أمر النبي ﷺ بالحذر منهم فقال: ((احذروهم من أن يضلوكم عن سبيل الله باتباع هذا المتشابه، واحذروا طريقتهم أيضًا)). فالتحذير هنا يشمل التحذير عن طريقتهم، والتحذير منهم أيضًا، ثم ضرب المؤلف لهم مثلًا، بأن يقول لك المشرك: أليس الله يقول:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] أو ليس للأولياء جاه عند الله تعالى؟، أو ليست الشفاعة ثابتة بالقرآن والسنة؟ وما أشبه ذلك من هذه الأشياء. فقل: نعم كل هذا حق، ولكن ليس فيه دليل على أن تشرك بهؤلاء الأولياء أو بهؤلاء الرسل، أو بهؤلاء الذين عندهم شفاعة عند الله ﷻ، ودعواك له أن هذا يدل على ذلك دعوى باطلة لا يحتج بها إلا مبطل، وما أنت إلا من الذين قال الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، ولو أنك رددت هذا المتشابه إلى المحكم لعلمت أن هذا إلا دليل لك فيه". انتهى كلامه.

الجواب المفصل على هاتين الشبهتين

المفصل يتناول كل شبهة على حدة ويدحض أدلتها وينسف حجتها..

ومفصل من جهتين:

الأولى: أنه مفصل، أي: مميز بعضه عن بعض.

والثانية: مفصل في تناول الأدلة والتفريعات.

أولًا: الجواب المفصل على الشبهة الأولى:

ولنعد الآن إلى جواب الشيخ المفصل، حيث قال # :

وأما الجواب المفصل: فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه -ثم ذكر تقريرهم للشبهة الماضية، ثم قال: فجاوبه بما تقدم، وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت، ومقرون بأن

أوثانهم لا تدبر شيئًا وإنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليهم ما ذكر الله في كتابه ووضحه، فإن قال: هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصنامًا؟. فجاوبه بما تقدم فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكره فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويدعون عيسى بن مريم وأمه، وقد قال الله تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٥- ٧٦]، واذكر له قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠- ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]. فقل له: أعرفت أن الله كَفَّر من قصد الأصنام وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين وقاتلهم الرسول ﷺ؟ فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار المدبر لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم. فالجواب: أن هذا قول الكفار سواء بسواء، واقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]. واعلم أن هذه الشبه الثلاث، هي أكبر ما عندهم، فإذا عرفت أن الله وضحها لنا في كتابه وفهمتها فهمًا جيدًا فما بعدها أيسر. فإن قال: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا الالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم ليس بعبادة.

فقل له: أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة لله، وهو حقه عليك. فإذا قال: نعم. فقل له: بين لي هذا الذي فرض عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهو حقه عليك فإن كان لا يعرف العبادة ولا أنواعها، فبينها له بقولك: قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥] فإذا أعلمته بهذا، فقل له: هل علمت هذا عبادة لله فلابد أن يقول نعم. والدعاء مخ العبادة. فقل له: إذا أقررت أنها عبادة ودعوت الله ليلًا ونهارًا خوفًا وطمعًا. ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًا، أو غيره هل أشركت في عبادة الله غيره؟. فلابد أن يقول: نعم. فقل له: إذا علمت بقول الله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر:٢]، وأطعت الله ونحرت له هل هذا عبادة؟ فلابد أن يقول: نعم. فقل له: إذا نحرت لمخلوق: نبي، أو جني، أو غيرهما. هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلابد أن يقر ويقول: نعم. وقل له أيضًا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلابد أن يقول: نعم؟. فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء، ونحو ذلك. وإلا فهم مقرون أنهم عبيده وتحت قهره، وأن الله هو الذي يدبر الأمر، ولكن دَعَوْهُمْ والتجئوا إليهم للجاه والشفاعة. وهذا ظاهر جدًا". انتهى كلامه.

ثانيًا: الجواب المفصل على الشبهة الثانية:

الجواب المفصل على هذه الشبهة من وجوه:

الوجه الأول:

إذا قال المشرك: أنا لا أشرك بالله شيئًا حاشا وكلا ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك. يقال له: إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا وتقر أن الله لا يغفره. فما هذا الأمر الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره. فإنه لا يدري. فقل له: كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفه؟ أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟. فإن قال: الشرك عبادة الأصنام، ونحن لا نعبد الأصنام. فقل له: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم يعتقدون أن الأخشاب والأحجار تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟ فهذا يكذبه القرآن، وإن قال: هو من قصد خشبة أو حجر أو بنية على قبر أو غيره يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى، وينفعنا الله ببركته أو يضرنا ببركته. فقل له: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجار والأبنية التي على القبور وغيرها. فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام، فهو المطلوب، ويقال له أيضًا: قولك الشرك عبادة الأصنام، هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا. وأن الاعتماد على الصالحين ودعائهم لا يدخل في ذلك؟. فهذا يرده ما ذكر الله في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة، أو عيسى أو الصالحين، فلابد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن، وهذا هو المطلوب.

الوجه الثاني:

ذكر الشيخ تقي الدين المقريزي # :

أن شرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية. فالشرك في الإلهية والعبادة: هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عباد الأصنام وعباد الملائكة، وعباد الجن، وعباد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات الذين قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]. ويشفعون لنا عنده وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة كما هو المعهود في الدنيا من حصول الكرامة والزلفى لمن يخدم أعوان الملك وأقاربه وخاصته: والكتب الإلهية كلها من أولها إلى آخرها تبطل هذا المذهب وترده وتقبح أهله وتنص على أنهم أعداء الله تعالى، وجميع الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- متفقون على ذلك من أولهم إلى خاتمهم، وما أهلك الله تعالى من أهلك من الأمم السالفة إلا بسبب هذا الشرك، ومن أجله: وأصله الشرك في محبة الله. قال تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر ﷻ أنه من أحب مع الله شيئًا غيره كما يحبه فقد اتخذ ندًا من دونه، وهذا على أصح القولين في الآية أنهم يحبونهم كما يحبون الله، وهذا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] والمعنى على أصح القولين: أنهم يعدلون به غيره في العبادة فيسوون بينه وبين غيره في الحب والعبادة. ومعلوم أن هذه التسوية لم تكن بينهم وبين الله تعالى في كونه ربهم وخالقهم فإنهم كانوا -كما أخبر الله عنهم- مقرين بأن الله تعالى و حده هو ربهم وخالقهم وأن الأرض ومن فيها لله وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه ﷻ هو الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وإنما كانت هذه التسوية بينهم وبين الله تعالى في المحبة والعبادة فمن أحب غير الله تعالى وخافه ورجاه، وذل له كما يحب الله ويخافه ويرجوه، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، فكيف بمن كان غير

الله آثر عنده وأحب إليه وأخوف عنده وهو في مرضاته أشد سعيًا منه في مرضاة الله ، فإذا كان المسوي بين الله وبين غيره في ذلك مشركًا فما الظن بهذا. فعياذًا بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام كانسلاخ الحبة من قشرها ، وهو يظن أنه مسلم موحد ، فهذا أحد أنواع الشرك ، والأدلة الدالة على أنه تعالى يُحب أن يكون وحده هو المألوه يبطل هذا الشرك ويدحض حجج أهله ، وهي أكثر من أن يحبط بها إلا الله بل كل ما خلق الله تعالى فهو آية شاهدة بتوحيده ، وكذلك كل ما أمر به فخلقه وأمره وما فطر عليه عباده وركبه فيهم من القوى شاهد بأنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن كل معبود سواه باطل وأنه هو الحق المبين. ولقد أحسن القائل :

فواعجبًا كيف يعصى الإله ❖ أم كيف يجحده الجاحدُ
ولله في كل تحريكة ❖ وتسكينة أبدًا شاهدُ
وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه احدُ

الوجه الثالث :

ما ذكره الأمير الصنعاني # حيث قال : "قد عرفت في هذا كله أن من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت ، أنه ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع به والتوسل إلى الرب تعالى... فإنه قد أشرك مع الله تعالى غيره ، واعتقد ما لا يحل اعتقاده كما اعتقده المشركون في الأوثان فضلًا عمن ينذر بماله وولده لميت أو حي أو يطلب من ذلك الميت ما لا يطلب إلا من الله تعالى من الحاجات : من عافية مريضه أو قدوم غائبه أو نيله لأي مطلب من المطالب فإن هذا هو الشرك بعينه الذي كان

ويكون عليه عباد الأصنام. والنذر بالمال على الميت ونحوه والنحر على القبر والتوسل به مطلب الحاجات منه هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثنًا وصنمًا، وفعله القبوريون لما يسمونه وليًا وقبرًا ومشهدًا والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني ضرورته لغوية وعقلية وبلاغية وشرعية. فإن من شرب الخمر وسماها ماءً ما شرب إلا خمرًا، وعقابه عقاب شارب الخمر، ولعله يزيد عقابه للتدليس وللكذب في التسمية كما يعرفه من شم رائحة الكتاب والسنة، وكل ذلك مأخوذ عن إبليس حيث سمى الشجرة المنهي عنها شجرة الخلد، وكذلك تسمية القبر مشهدًا ومن يعتقدون فيه وليًا لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحاج ببيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها، وكل قوم لهم رجل يناودنه. فأهل العراق والهند يدعون عبد القادر الجيلاني، وأهل التمائم لهم في كل بلد ميت يهتفون باسمه، يقولون: يا زيلعي يا ابن العجيل، وأهل مكة والطائف: يا ابن العباس، وأهل مصر: يا رفاعي ويا بدوي، والسادة البكرية، وأهل الجبال: يا أبا طير، وأهل اليمن: يا ابن علوان، وفي كل قرية أموات يهتفون بهم وينادونهم ويرجونهم لجلب الخير ورفع الضر، وهذا هو بعينه فعل المشركين في الأصنام كما قلنا في الآبيات النجدية:

أعادوا بها معنى سواع ومثله ❖ يغوث وود ليس ذلك من ودي
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ❖ كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

وكم نحروا في سوحها من نحيرة ❖ أهلت لغير الله جهلًا على عمد

وكم من طـائف حول القبور مقبلًا ❖ ويلتمس الأركان منهن بالأيدي

فإن قال: إنما نحرت لله وذكرت اسم الله عليه. فقل: إن كان النحر لله فلأي شيء قربت؟.

فقل له: هذا النحر لغير الله، بل أشركت مع الله تعالى غيره.. ثم كذلك دعاؤك لهم.

فهذا الذي عليه هؤلاء شرك بلا ريب... فإن قلت: أفيصير هؤلاء الذين يعتقدون في القبور والأولياء والفسقة والخلعاء مشركين؛ كالذين يعتقدون في الأصنام؟ قلت: نعم قد حصل منهم ما حصل من أولئك، وساووهم في ذلك بل زادوا في الاعتقاد والانقياد والاستعباد فلا فرق بينهم. فإن قلت: هؤلاء القبوريون يقولون: نحن لا نشرك بالله تعالى ولا نجعل له ندا والالتجاء إلى الأولياء ليس شركًا. قلت: نعم ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [الفتح: ١١] هذا جهل منهم بمعنى الشرك، فإن تعظيمهم الأولياء ونحرهم النحائر لهم شرك فهذا الذي يفعلونه لأوليائهم هو عين ما فعلوه المشركون وصاروا به مشركين، ولا ينفعهم قولهم: نحن لا نشرك بالله شيئًا، لأن فعلهم أكذب قولهم". انتهى كلامه رفع مقامه.

الوجه الرابع:

ويقال لأصحاب هذه الشبهة: لقد سوى الله تعالى بين من يعبد الأصنام وبين من يعبد الأنبياء والصالحين والملائكة، فإن من الكفار من كان يدعو الأصنام، ومنهم من كان يدعو الأنبياء، ومنهم من كان يدعو الأولياء، ومنهم من كان يدعو الملائكة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]. قال الإمام ابن كثير # في تفسيره: "أخبر تعالى عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ ،

أي: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم، وما ينوبهم من أمور الدنيا". انتهى كلامه.

ويدل أيضًا عليه قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ [الإسراء: ٥٧] وقد فسر هؤلاء المزعومون بالجن، والملائكة وعيسى والعزير والشمس والقمر، وقد بين سبحانه وتعالى ضلال من يعبد عيسى وأمه فقال: ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٥- ٧٦].

كما بين سبحانه وتعالى كيف أن عيسى -على نبينا و # - يبرأ إلى الله من فعلهم يوم القيامة فقال: ﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٧]. ثم بين سبحانه وتعالى ضلال من يعبد الملائكة، وكيف أنهم يبرءون إلى الله من عبادة هؤلاء، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾

[سبأ: ٤٠- ٤١].

ويقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ في رده على شبهات داود بن جرجيس: "ثم هذا القول الذي قاله العراقي رجوع إلى عبادة الملائكة والنجوم والأنفس المفارقة هذا حقيقة دين الصائبة أوقع العراقي فيه ظنه أن العبادة لا تكون عبادة وشركًا إلا إذا اعتقد التأثير من دون الله. وهذا الشرط هو الذي أوقعه فيما وقع فيه من تجويز عبادة الملائكة والنجوم والأنفس المفارقة. وهذه المسألة غلط فيها كثير من الضالين مع أن الله تعالى وضحها في كتابه توضيحًا كافيًا شافيًا. فالشرك جعل شريك لله تعالى فيما يستحقه ويختص به من العبادة الباطنة والظاهرة؛ كالحب والخضوع والتعظيم والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والنسك والطاعة ونحو ذلك من العبادات. فمتى أشرك مع الله غيره في شيء من ذلك فهو مشرك بربه قد عدل به سواه وجعل له ندًا في خلقه، ولا يشترط في ذلك أن يعتقد له شركة في الربوبية أو استقلالًا بشيء منها، والعجب كل العجب أن مثل هؤلاء يقرءون كتاب الله ويتعبدون بتلاوته، وربما عرفوا شيئًا من قواعد العربية وهم في هذا الباب من أضل خلق الله وأبعدهم عن فهم وحيه وتنزيله. ومن الأسباب المانعة عن فهم كتاب الله أنهم ظنوا أن ما حكى الله عن المشركين وما حكم عليهم به ووصفهم به خاص بقوم مضوا، وأناس سلفوا وانقرضوا لم يعقبوا وارثًا. وربما سمع بعضهم قول من يقول من المفسرين: هذه نزلت في عباد الأصنام، هذه نزلت في النصارى، هذه في الصائبة، فيظن الغمر أن ذلك مختص بهم، وأن الحكم لا يتعداهم، وهذا من أكبر الأسباب التي تحول بين العبد وبين فهم القرآن والسنة". انتهى كلامه.

الوجه الخامس:

أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب # كشف هذه الشبهة وذلك بالباب الذي عقده في كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد وهو باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبدون الأوثان. حيث أراد بهذه الترجمة الرد على عباد القبور الذين يفعلون الشرك، ويقولون: إنه لا يقع في هذه الأمة المحمدية، وهم يقولون: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبين في هذا الباب من كلام الله وكلام رسوله ﷺ ما يدل على تنوع الشرك في هذه الأمة ورجوع كثير منها إلى عبادة الأوثان، وإن كانت طائفة منها لا تزال على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله - تبارك وتعالى. وقد ذكر الله ورسوله ﷺ في الكتاب والسنة من الحكم بكفر جميع من يدعو غير الله تعالى مهما كان هذا الغير سواء كان نبيًا أو ملكًا من دونهما أو دعا طاغوتًا أو صنمًا. فالحكم على من دعا غير الله واحد، ولم يفرق الله ولا رسوله ﷺ بين من يعبد الأصنام وبين من يعبد الصالحين في الحكم. بل الجميع يحكم عليهم بأنهم مشركون بالله تعالى، يقول الشيخ في قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٤- ٦٥].

فيه مسائل: فيها أنواع من بُطلان الشرك وتقبيحه:

الأولى: الجواب عن قول المشركين: هذا في الأصنام، وأما الصالحون فلا، وقوله: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ ﴾ عام فيما سوى الله سواء بسواء كان صالحًا أو غير صالح.

الثانية: أن المسلم إذا أطاع من أشار عليه في الظاهر كفر، ولو كان باطنه يعتقد الإيمان فإنهم لم يريدوا من النبي ﷺ تغيير عقيدته، ففيه بيان لما يكثر وقوعه ممن ينتسب إلى الإسلام في إظهار الموافقة للمشركين خوفًا منهم، ويظن أنه لا يكفر إذا كان قلبه كارهًا له.

يقول الشيخ: فإن قال قائل من المشركين: نحن نعرف أن الله هو الخالق الرازق المدبر، لكن هؤلاء الصالحين مقربون ونحن ندعوهم وننذر لهم وندخل عليهم ونستغيث بهم ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة وإلا فنحن نفهم أن الله هو الخالق الرازق المدبر. فقل: كلامك هذا مذهب أبي جهل وأمثاله، فإنهم يدعون عيسى وعزيرًا والملائكة والأولياء يريدون ذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ومن الأدلة النقلية على بطلان هذه الشبهة قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴾ [المائدة: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١].

وعن أبي سعيد الخدري < أن رسول الله ﷺ قال: ((لتتبعن سَنَن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟)). رواه البخاري ومسلم.

وبهذا القدر نكتفي في الرد على هذه الشبهة الواهية كالتي قبلها، ولا يسعنا ونحن ننتهي من الرد على هذه الشبهة إلا أن ندعو الله أن يجنبنا الشرك والوسائل المفضية إليه، ولا يسعنا إلا أن نتمثل بقول الشاعر:

إذا عدد الناس أربابهم ❖ فنحن لنا ربنا الواحدُ

والله أعلم.

الرد على الصورتين الفلسفية والعامية للشبهة الأولى

إن هذه العقيدة هي بعينها عقيدة المشركين الأولين. عباد الأصنام السابقين في تعلقهم بالمخلوقين من دون الله تعالى، كما قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، والشفاعة حق، ولكنها ملك لله وحده: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فلا يجوز طلبها من الأموات سواء كانوا أنبياء أو أولياء ولا من غيرهم. وإنما تطلب ممن بيده الأمر كله.

وقد أخبرنا الله تعالى أنها لا تحصل إلا بشرطين:

الأول: إذن الله للشافع أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والثاني: أن يكون المشفوع فيه ممن رضي الله قوله، وعمله وهو المؤمن الموحد، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال أيضًا: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فالله لم يرخص في طلب الشفاعة من الملائكة والأنبياء والأصنام؛ لأنها ملكه وحده، منه تطلب، فهو الذي يأذن للشافع أن يشفع، وإن لم يأذن له لم يتقدم في الشفاعة بين يديه، وليس الأمر كما يحصل عند المخلوقين من تقدم الشفعاء إليهم وإن لم يأذنوا لهم، ويقبلون شفاعتهم ولو لم يرضوا بها، فإن المشفوع

عنده من المخلوقين يحتاج إلى الشافع ومعاونته فيضطر لقبول شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما الله سبحانه فهو الغني عما سواه فليس بحاجة إلى أحد بل كل أحد محتاج إليه. وأيضًا المخلوق لا يدري عن كل أحوال الرعية حتى يبلغه عنها الشفعاء لديه، والله سبحانه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء من أحوال خلقه فليس بحاجة إلى من يبلغه. وحقيقة الشفاعة عند الله سبحانه أن الله تعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيعفو عنهم ويغفر بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك.

وقد بين الفخر الرازي # :

"أن الأشياء التي عبدها الكفار من دون الله تعالى في القديم شيئان:

أ- عقلاء.

ب- وغير عقلاء.

أما العقلاء؛ فكالمسيح، وعزير، والملائكة، فإن قومًا منهم عبدوا هؤلاء، وكثير من الناس كانوا يعبدون الشمس، والقمر، والنجوم، ويعتقدون فيها أنها أحياء عاقلة ناطقة.

وأما الأشياء التي عُبِدَت، مع أنها ليست موصوفة بالحياة ولا بالعقل؛ فهي كالأصنام، ومراد الكفار من عبادتها أنها تقربهم إلى الله زلفى، فالعاقل لا يعبد الصنم، والوثن من حيث إنه خشب أو حجر، وإنما يعبده لاعتقاده أن هذه الأصنام تماثيل الكواكب، أو تماثيل الأرواح السماوية، أو تماثيل الأنبياء والصالحين الذين سلفوا ومقصودهم من عبادتها توجيه تلك القربات إلى تلك الأشياء التي جعلوا هذه التماثيل صورًا لها.

وتقرير الجواب: أن هؤلاء الكفار إما أن يطمعوا بتلك الشفاعة من هذه الأصنام أو من أولئك العلماء والزهاد الذين جعلت هذه الأصنام تماثيل لها.

والأول باطل؛ لأن هذه الجمادات وهي الأصنام لا تملك شيئًا ولا تعقل شيئًا، فكيف يعقل صدق الشفاعة عنها؟.

والثاني باطل؛ لأن في يوم القيامة لا يملك أحد شيئًا ولا يقدر أحد على الشفاعة، فكان الانشغال بعبادته أولى من الانشغال بعبادة غيره" انتهى بمعناه من التفسير الكبير للفخر الرازي.

إذا تبين هذا، فالمشركون قد كانت عبادتهم لآلهتهم هذا الالتجاء والرجاء والدعاء لأجل الشفاعة معتقدين أنها المقربة لهم. فبسبب هذا الاعتقاد والالتجاء أرتقت دماؤهم واستبيحت أموالهم.

فهذا الالتجاء من أجل طلب شفاعة الأصنام ورجائها هو في واقع الأمر لا تصلح إلا لله ﷻ، وهي تعتبر صرفًا لحقوقه تعالى وتعد من الشرك.

وقال العلامة شكري الآلوسي # في رده على هذه الشبهة: "وسمعت من بعض أغبياء الغلاة وجهلتهم من أهل الثياب المعلمة والأقفاء المورمة والألقاب المفخمة، قال: فإذا قال القائل مستغيثًا بأحد من الأموات: يا فلان افعل كذا وكذا. فالمقصود الطلب من الله أن يقضي حاجته، وبعد أن فرغ من هذا الهذيان وسكت، قلت له: وينبغي على قولك هذا أن يطلب من المخلوق كل شيء يطلب من الخالق، وينبغي ألا يعترض على عبدة الأصنام وطلبهم ما يطلب من الله فإنهم أيضًا كانوا يعتقدون أن أصنامهم وسائط ووسائل وشفعاء وكانوا: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس:18]، ويقولون: ﴿نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:3]، ونحو ذلك من الكلام، وإذا سئلوا: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يونس:31] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:25]، وقد

سبق بيان أن كلام الغلاة هذا وكلام عبدة الأصنام من واد واحد، وقد تشابهت قلوبهم". انتهى كلامه.

وقد حقق العلامة ابن أبي العز الحنفي # : أن هذا النوع من الشفاعة والتوسل والتوسيط هو أصل شرك العرب وغيرهم من مشركي الهند والترك والبربر.

وهذه الشبهة حصلت نتيجة لتصور أهل الأهواء البدائي للواسطة حيث حارت أفئدة كثيرين منهم في تصور إله لا تدركه الأبصار، فالتمسوا الخلاص من هذه الحيرة في حل وسط وشبهة فلسفية تتمثل في وجود شخصية بشرية ينسبون إليها الألوهية، وتكون برزخًا بين الطرفين. فكانت هذه الحاجة لوجود إله قريب من الأبصار هي التي ألجأت النصارى إلى تصور مثل أعلى أطلقت عليه اسمًا وكسته لحمًا ودمًا وعبدته بوصفه إلهًا بشريًا.

وبالجملة: فقد أبطل الله تعالى هذه الشبه وهي بعينها شبهة المشركين.

وذلك ببرهانين عقليين:

أولهما: أنه ليس في آلهة المشركين التي اتخذوها شيء من خصائص الألوهية؛ لأنها مخلوقة، فهي لا تخلق ولا تجلب لعابديها نفعًا ولا تدفع عنهم ضرًا، ولا تملك لهم حياة، ولا موتًا، ولا نشورًا، ولا تملك شيئًا من ملكوت السموات والأرض، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا

تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٢- ٢٣] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١- ٣٢].

خامسًا: الرد على الصورة العامية لهذه الشبهة

قدمنا أن ملخص هذه الشبهة من هذه الصورة، يقول: إن الإنسان العادي غير مهيأ لمناجاة ربه والطلب منه؛ لأنه موقر بالسيئات وملطخ بالمعاصي، فلابد أن يتجه إلى من يرى أنه أهل لقضاء حاجاته، وتفريج كرباته، لأن هذا الغير -وليًا كان أو نبيًا- نظيف الظاهر مصقول الباطن، وهو الذي يصلح لمباشرة المناجاة ودعاء الله تعالى والطلب منه.

وللرد على هذه الصورة وهذه الشبهة، ننقل كلامًا نفيسًا للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ # حيث يقول: "فالقول بجواز الاستغاثة بغير الله ودعاء الأنبياء والصالحين وجعلهم وسائط بين العبد وبين الله والتقرب إليهم بالنذر والنحر والتعظيم بالحلف وما أشبهه مناقضة ومنافاة لهذه الحكمة التي هي المقصودة بخلق السموات والأرض وإنزال الكتب وإرسال الرسل وفتح لباب الشرك في المحبة والخضوع والتعظيم، ومشاقة ظاهرة لله ورسوله ولكل نبي كريم.

والنفوس مجبولة على صرف ذلك المذكور من العبادات إلى من هو أهل لكشف الشدائد وسد الفاقات، وقضاء الحاجات من الأمور العامة التي لا يقدر عليها إلا فاطر الأرض والسموات إلى أن قال: - الوجه الثاني: أن هذا بعينه قول عُبَّاد الأنبياء والصالحين من عهد قوم نوح إلى أن بعث إليهم خاتم النبيين، ولم يزيدوا على ما ذكره هؤلاء الغلاة فيما انتحلوه من الشرك الوخيم، والقول الذميم كما حكى الله عنهم ذلك في كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]. فهذه النصوص المحكمة صريحة في أن المشركين لم يقصدوا إلا الجاه والشفاعة والتوسل بمعنى جعلهم وسائط تقربهم إلى الله وتقضي حوائجهم منه تعالى، وقد أنكر القرآن هذا أشد الإنكار وأخبر أن أهله هم أصحاب النار وأن الله تعالى حرم عليهم الجنة دار أوليائه الأبرار وجمهور هؤلاء المشركين لم يَدَّعوا الاستقلال ولا الشركة في توحيد الربوبية بل أقروا واعترفوا بأن ذلك لله وحده كما حكى سبحانه إقرارهم واعترافهم بذلك في غير موضع من كتابه، فحاصل ما ذكر من جواز الاستغاثة والدعاء والتعظيم بالنذر والحلف مع نفي الاستقلال وأن الله يفعل لأجله هو عين دعوى المشركين وتعليلهم وشبههم، لم يزيدوا عليه حرفًا واحدًا، إلا أنهم قالوا: قربان وشفعاء، والغلاة سموا ذلك توسلًا فالعلة واحدة، والحقيقة متحدة".

ثم ذكر الشيخ الوجه الثالث الذي أثبت فيه أن الله ﷻ أمر عباده بإفراده بالدعاء والاستغاثة وإنزال الحاجات وجميع العبادات دون غيره كائنًا من كان.

واستدل بآيات وأحاديث كثيرة تؤيد ما ذكره، ثم قال: "وعلى القول بجعل الوسائط بين العباد وبين الله تقطع أصول هذا الأصل العظيم الذي هو قطب رحى الإيمان، وينهدم أساسه الذي ركب عليه البنيان، فأي فرج وأي نعيم وأي

فاقة سُدت وأي ضرورة دُفعت، وأي سعادة حُصِّلت، وأي أنس واطمئنان إذا كان التوجه والدعاء والاستغاثة والذبح والنذر لغير الملك الحنان المنان؟! فصلاح السموات والأرض بأن يكون الله سبحانه هو إلهها دون ما سواه، ومستغاثها الذي تفزع إليه وتلجأ إليه في مطالبها وحاجاتها وأن الشرع الذي جاء به محمد ﷺ والسنة التي سنها في قبور الأنبياء والصالحين وعامة المؤمنين تنافي هذا القول الشنيع، ومن شم رائحة العلم وعرف شيئًا مما جاءت به الرسل عرف أن هذا الذي قاله الغلاة من جنس عبادة الأصنام والأوثان مناقض لما دلت عليه السنة والقرآن، ولا يستريب في ذلك عاقل من نوع الإنسان". انتهى كلامه # .

ويحسن بنا أن نختم هذه المحاضرة بأبيات رائعة لأحد علماء السلف المتأخرين تبين فساد هذه الشبهة، يقول الشيخ حافظ الحكمي # :

وإن دعا المقبور نفسه فقد ❖ أشرك بالله العظيم وجحد
لن يقبل الله تعالى منه ❖ صرفًا وعدلًا فيعفو عنه
إذ كل ذنب موشك الغفران ❖ إلا اتخاذ الند للرحمن

وبهذا يتم الرد على الشبهة، والله أعلم. "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم".

الرد على الشبهتين الثالثة والرابعة في تعلق الغلاة بالشرك

عناصر الدرس

العنصر الأول :	استعراض هاتين الشبهتين	٢٠٥
العنصر الثاني :	تعريف التوسل في اللغة والشرع	٢٠٧
العنصر الثالث :	المراد بالتوسل المشروع والممنوع مع بيان الواجب نحو الأولياء والصالحين	٢٠٩
العنصر الرابع :	تعريف الشفاعة في اللغة والشرع	٢٢٠
العنصر الخامس :	أنواع الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية	٢٢٢

استعراض هاتين الشبهتين

ما زلنا أمام المعاذير الواهية والتبريرات الخاطئة لما يقع فيه أهل الأهواء من المخالفات الشرعية والممارسات الشركية ومن ذلك:

أ- (الشبهة الثالثة):

يقول الغلاة:

نحن إذا قصدنا الأولياء والصالحين بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة، والذبح، والنذر، والخضوع، والخنوع، والتذلل، والاضطرار، والانكسار، والطواف حول أضرحتهم، والتمسح بها والعكوف حولها والصلاة عندها، ونحو ذلك من أصناف العبادات، وأنواع القربات لا نكون مشركين بتلك الممارسات، ولا يعد فعلنا شركًا؛ لأننا وإن قصدناهم بذلك، وطلبنا منهم تلك الطلبات، فإنما نطلب من الله تعالى بشفاعتهم، ووساطتهم ومنزلتهم، وقربهم من الله العلي الكبير، وهذا هو التوسل بهم وتشفيعهم وتوسيطهم.

ثم قالوا: وكل ما في الأمر أن المتوسِّلَ بهم يرى نفسه ملطخًا بقاذورات المعاصي، وقد أبعدته الغفلات عنه تعالى أيما إبعاد، فصار جديرًا بالحرمان من تحقيق مطالبه وقضاء حاجاته إن دعا الله مباشرة بسبب هذه الذنوب، فلأجل هذا يتقدم المتوسل إليه تعالى بأحبابه الذين لا يعرفون إلا طاعته مبتهلًا إليه بجاههم عنده، وحرمتهم لديه أن يقضي له حاجته لأجل هؤلاء الأحباب الذين يدعون

الله تعالى بهم أن لا يردهم خائبين. فإذا كان هذا هو السر في التوسل بهم فلا أثر -إذن- فيه لحياة المتوسل بهم أو موتهم؛ فهم أحباب الله تعالى على أي حال وهم ينفعون الملتجئ إليهم وطالب المدد منهم؛ لأنهم هم أبواب الله تعالى، وبواسطتهم تحصل الخيرات، وبشفاعتهم تستمطر الرحمات، وعن طريقهم يتقرب المتقربون، ويدلف الدالفون، ويسترفد المسترفدون.

هذه هي فلسفتهم في عرض هذه الشبهة.

ب- (الشبهة الرابعة):

يقول الغلاة:

إن قصد الصالحين والأولياء بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة، والذبح، والنذر، والطواف، حول أضرحتهم وقبورهم، ونحو ذلك لا يعد شركًا؛ لأن قاصدهم بذلك إنما يطلبهم مما أعطاهم الله تعالى وقد أعطاهم الشفاعة والجاه والقرب؛ ولاسيما رسول الله ﷺ، فكيف تحكمون على من أتى شيئًا من ذلك بالشرك؟. والمفروض: أن تحكموا بالشرك على من قصد الأصنام والأوثان بذلك، وأنتم في حكمكم هذا علينا بالشرك لفعلنا هذا تجعلون الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم- وكذلك الأولياء والصالحين مثل الأصنام والأوثان. وهم أحباب الله وأصفياؤه والمقربون لديه.

هذه فلسفتهم في عرض هذه الشبهة، وهي كما ترى شبهة واهية كسابقاتها من الشبهات -والحمد لله أولًا وآخرًا.

تعريف التوسل في اللغة والشرع

١ - الرد على شبهات في الشرك: (الشبهة الثالثة):

لما كان المتشبثون بهذه الشبهة -التي سبق استعراضها- يدافعون عن الأفعال والأقوال الشركية، والممارسات المرفوضة شرعًا التي يقعون فيها -لما كانوا يدافعون عن ذلك بدعوى التوسل بالأولياء والصالحين وجميع أحباب الله المقربين- ناسب أن نذكر تعريفًا واضحًا للتوسل في اللغة والشرع، حتى يتبين ما يصح التوسل به وما لا يصح، فنقول وبالله التوفيق:

أ- التوسل في اللغة:

التوسل: مصدر لتوسله تعالى: توسلت إلى فلانٍ بكذا، أي: تقربت إليه بذلك الشيء، وتوسلت إلى الله وسيلة: أي: عملت عملًا أتقرب به إليه.

فمعناه التقرب، ويأتي -أيضًا- بمعنى: الرغبة والطلب، يقال: وسل فهو واسل، أي: رغب فهو راغب إلى الله تعالى، ومنه قول الشاعر:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ❖ بلى كل ذي لب إلى الله واسِلُ

ويقال أيضًا: وسَّل فلان إلى ربه وسيلةً، بمعنى أنه عمل عملًا تقرب به إليه، ومنه قول عنترة بن شداد -الشاعر الجاهلي-:

إن الرجال لهم إليك وسيلة ❖ إن يأخذوك تَكَحَّلِي وتَخَضَّبي

يعني الوسيلة: القربة، وفيها معنى الرغبة، والحاجة، قال الراغب الأصفهاني # : "الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة لتضمنها لمعنى الرغبة". انتهى كلامه.

قال الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا ❖ وعاد التصافي بيننا والوسائلُ

وتطلق الوسيلة على المنزلة العَلِيَّةِ عند الملك، ومنه الحديث: ((اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ...))

الحديث رواه الإمام البخاري # ويمكن رد معنى الوسيلة هنا أيضًا إلى القربة.

وجمع التوسل: توسلات، وتجمع الوسيلة على وزن فعائل وسائل، وعلى فُعُل بضمتين: وُسُل. وعلى فعيل وَسِيل. فتحصل من هذا أن التوسل يطلق في اللغة على المعاني التالية:

١- القربة. ٢- والحاجة. ٣- والرغبة. ٤- والمنزلة.

ب- التوسل في الشرع:

أما التوسل: فهو مأخوذ من المعنى اللغوي، فهو التقرب إلى الله تعالى بالإيمان بنبيه ﷺ وبطاعته أو بدعائه، وشفاعته ﷺ ومعنى ذلك -كما يقول الشيخ محمد نسيب الرفاعي-: التوسل: "التقرب إلى الله بطاعته وعبادته واتباع أنبيائه ورسله، وبكل عمل يحبه الله تعالى ويرضاه". انتهى كلامه.

فالتوسل المشروع الذي شرعه الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: إنما هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه من علمٍ أو عملٍ قلبي أو بدني أو ترك، وكفٍّ عن عملٍ

محظورٍ، فيدخل فيه جميع الطاعات، وترك جميع المعاصي؛ امتثالًا لأمر الشارع -جل وعلا.

يقول الشيخ محمد بن عثيمين # : "التوسل المشروع: عبادةٌ يراد بها التوصل إلى رضوان الله والجنة. ولهذا نقول: إن جميعَ العبادات وسيلةٌ إلى النجاة من النار، ودخول الجنة". انتهى كلامه.

فالتوسل الصحيح: هو الطلب من الله تعالى بواسطةٍ مشرعةٍ كقولك مثلًا: اللهم بحبك وحبنا لنبيك ﷺ وحبنا لأوليائك فرج كربنا واغسل حوبنا، واقض حوائجنا، ويسرْ لنا أمرنا.

المراد بالتوسل المشروع والممنوع مع بيان الواجب نحو الأولياء والصالحين

قَسَّمَ المحققون من العلماء التوسل إلى قسمين:

توسل مشروع: وهو ما كان بوسيلة جاءت بها الشريعة.

وتوسل ممنوع: وهو التوسل إلى الله تعالى بما لم يثبت في الشرع أنه وسيلة صحيحة.

أولًا: التوسل المشروع:

فالمراد به كل توسل جاءت الشريعة به، وهو الذي سبق تعريفه.

وهذا النوع من التوسل أنواع، وإن اختلف العلماء في تعدادها، إلا أنها ترجع عند التأمل إلى ثلاثة أقسام:

١- التوسل بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته العليا.

٢- التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه.

٣- التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

فالنوع الأول: التوسل بأسماء الله وصفاته:

مثاله: قول المسلم في دعائه: "اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أسألك أن تغفر لي وترحمني". ومثل قوله أيضًا: "يا غفار اغفر لي، ويا رزاق ارزقني، ويا نصير انصرني، ويا حفيظ احفظني، والدليل على مشروعية هذا النوع من التوسل، قول الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته يأتي على وجهين:

الوجه الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته على سبيل العموم:

مثال ذلك: الحديث الصحيح، عن ابن مسعود > : أن النبي ﷺ كان يقول في دعاء الهم والغم: ((اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي)). رواه الإمام أحمد، والحاكم في (المستدرك)، وصححه ووافقه الشيخ الألباني.

فالشاهد من الحديث قوله: ((أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك)).

وأما الوجه الثاني: فهو التوسل إلى الله باسم خاص أو صفة خاصة: مثال ذلك:

(يا غفار اغفر لي، يا رحمن ارحمني، اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني)

ومثاله أيضًا ما جاء في حديث أبي بكر < : أنه قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)). رواه البخاري ومسلم.

ومن التوسل بالأسماء والصفات، قول الشاعر مستغيثًا بها:

بأسمائك الحسنى دعوتك سيدي ❖ وجئت بها يا خالقي متوسِّلا

ومبتهلًا ربي إليك بفضلها ❖ وأرجو بها كل الأمور مُسَهِّلا

فقابل إلهي بالرضا منك واكفني ❖ صروف زماني مكثرًا ومقَلِّلا

وأما النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح الذي ترجى إجابة دعائه:

قبل أن نشرع في بيان هذا النوع من التوسل المشروع يحسن بنا أن نعرف الدعاء في الشرع، فنقول:

الدعاء شرعًا هو: الرغبة إلى الله تعالى والتوجه إليه في تحقيق المطلوب، أو دفع المكروه، والابتهال إليه في ذلك إما بالسؤال أو بالخضوع والتذلل والرجاء والخوف والطمع. والدعاء من أهم أنواع العبادة، بل هو العبادة نفسها، كما ثبت في حديث النعمان بن بشير < أن النبي ﷺ قال: ((الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ)).

وهو حديث صحيح، وفي رواية فيها، فقال: "الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ". ولأهمية الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية فقد أمر الله تعالى به وندب عباده إليه، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

ومما يبين صورة هذا النوع من التوسل الصحيح، وهو التوسل إلى الله تعالى بدعاء المؤمن لأخيه المؤمن بشرط أن يكون الداعي حيًا، حاضرًا. فقد صحت هذه الصورة من فعل الصحابة } حيث كانوا يسألون النبي ﷺ أن يدعو لهم بدعاءٍ عام ودعاء خاص، ففي الصحيحين من حديث أنس بن مالك > :

((أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ مِنْ بَابٍ كَانَ وِجَاهَ الْمِنْبَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ؛ فَاسْتَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الْمَوَاشِي، وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُغِيثُنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، اللَّهُمَّ اسْقِنَا، قَالَ أَنَسٌ: وَلَا وَاللَّهِ مَا نَرَى فِي السَّمَاءِ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَزَعَةً وَلَا شَيْئًا، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ سَلْعٍ مِنْ بَيْتٍ وَلَا دَارٍ، قَالَ: فَطَلَعَتْ مِنْ وَرَائِهِ سَحَابَةٌ مِثْلُ التُّرْسِ فَلَمَّا تَوَسَّطَتْ السَّمَاءَ، انْتَشَرَتْ ثُمَّ أَمْطَرَتْ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا الشَّمْسَ سِتًّا ثُمَّ دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَابِ فِي الْجُمُعَةِ الْمُقْبِلَةِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ، فَاسْتَقْبَلَهُ قَائِمًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَتْ الْأَمْوَالُ وَانْقَطَعَتْ السُّبُلُ فَادْعُ اللَّهَ يُمْسِكْهَا قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلَا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الْآكَامِ وَالْجِبَالِ وَالْآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالْأَوْدِيَةِ وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ، قَالَ: فَانْقَطَعَتْ وَخَرَجْنَا نَمْشِي فِي الشَّمْسِ))

والظراب: (جمع ظرب، وهو الجبل الصغير) رواه البخاري ومسلم

وقد بين الحافظ ابن حجر # : "أن من فوائد هذا الحديث سؤال الدعاء من أهل الخير، ومن يرجى منهم القبول، وإجابتهم لذلك". انتهى.

وتحت هذا النوع من التوسل بدعاء الحي الحاضر صورتان:

إحداهما: أن يطلب المرء من الحي الحاضر الدعاء فيستجيب له، ويدعو له، دون أن يدعو الطالب المتوسل، ومثال هذه الصورة ما حصل من النبي ﷺ من الدعاء للأعرابي في حديث الاستسقاء السابق.

وثانيهما: أن يطلب الدعاء من حي حاضر، ثم يدعو هو بنفسه أن يتقبل الله دعاء المتوسل به، أو يُؤَمِّن على دعائه، وفي هذه الصورة يوجد دعاءان:

أحدهما: من الحي الحاضر المطلوب منه الدعاء، والثاني: من المتوسِّل نفسه.

ويصح في هذا النوع من التوسل بالدعاء أن يتوسل الأفضل بدعاء المفضول. فقد طلب النبي ﷺ من عمر بن الخطاب > أن يدعو له لما أراد الخروج لأداء العمرة، وطلب عمر > ومعه السابقون الأولون من العباس بن عبد المطلب الاستسقاء، ومثل ذلك فعل معاوية > مع يزيد بن الأسود الجرشي # .

وأما النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح، فأمر مشروع ووسيلة صحيحة:

لأن الطريق الوحيدة الموصلة إلى رضا الله تعالى ونيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة هي العمل الصالح المبني على وفق ما جاء به النبي ﷺ بإجماع العلماء؛ لأنه لا وسيلة إلى الله تعالى إلا باتباع رسوله ﷺ وهذا هو المراد بالوسيلة في قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، فكل عمل حسن ومشروع قام به المسلم ينفعه التوسل به وهو وسيلة

صحيحة بينه وبين ربه تبارك وتعالى سواء كان العمل الصالح من أعمال القلب أم من أعمال الجوارح.

وإذا كانت الأعمال الصالحة متنوعة فإنها ترجع في الأساس إلى ثلاثة أضْرُب:

منها ما يختص بالقلب.

ومنها ما يختص بالبدن.

ومنها ما يتشارك فيه البدن والقلب.

والدليل على التوسل بالعمل الصالح قوله الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، فهؤلاء الراسخون في العلم توسلوا إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذه من الوسائل التي يحبها الله تعالى. وقال الله تعالى: ﴿جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، فالعمل الصالح يُرْفَعُ مع كلام العبد الطيب فإذا لم يكن للمرء عمل صالح لم يُرْفَعْ له قولٌ إلى الله تعالى؛ لأن الأعمال الصالحة هي التي ترفع إلى الله ﷻ ويرفع الله تعالى صاحبها ويعزه ويقربه.

ومما يوضح أن التوسل بالعمل الصالح الذي قام به العبد من أنجع أنواع التوسل، وأنفعها للمتوسل: قصة أصحاب الغار التي رواها البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر } قال: ((بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَرٍ يَمْشُونَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا؛ لَعَلَّهُ يُفَرِّجُهَا عَنْكُمْ، قَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ كُنْتُ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا رُحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ

أَسْقِيهِمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَإِنِّي اسْتَأْخَرْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّهُ فَرَأَوْا السَّمَاءَ، وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ مِنْهَا فَأَبَتْ عَلَيَّ حَتَّى أَتَيْتُهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ فَبَغَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُهُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً فَفَرَجَ، وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ، قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا، فَجَاءَنِي، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ، فَقُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى ذَلِكَ الْبَقَرِ وَرُعَاتِهَا فَخُذْ، فَقَالَ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْ فَأَخَذَهُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ مَا بَقِيَ فَفَرَجَ اللَّهُ، وخرجوا يمشون)).

الفرق: بفتح الراء وإسكانها: إناء يسع ثلاثة آصع.

يتضاغون: أي: يبكون ويصيحون.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "فهؤلاء الثلاثة سألوا الله بأعمال البر. فالأول أخبر عن بره بوالديه برًّا عاليًا تامًّا أكمل البر وأحسنه، والآخر: أخبر عن عفته التامة الكاملة وعن همته العالية، والآخر: أخبر عن أداء الأمانة الأكمل الأتم". انتهى كلامه.

وقال الحسن البصري # : "إن العبد إذا قال قولًا حسنًا، وعمل عملًا صالحًا رفع الله تعالى قوله بعمله". انتهى كلامه.

وقال وهب بن منبه # : "مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر". انتهى.

وقال الربيع بن أنس # : "في الحكمة إن العمل الصالح يرفع ربه إذا عثر". انتهى.

ثانيًا: التوسل الممنوع:

المراد بالتوسل الممنوع: وهو التوسل إلى الله تعالى بوسيلة لا تثمر، أي: بوسيلة لم يثبت في الشرع أنها وسيلة.

وهو نوعان:

النوع الأول: أن يكون بوسيلة سكت عنها الشرع، وهذا من التوسل المحرم، بل إنه قد يجر إلى الشرك.

ومثاله: أن يتوسل إنسان بجاه شخص ذي جاهٍ عند الله تعالى؛ كالتوسل بجاه الأنبياء -عليهم السلام- لأنه إثبات لسبب لم يعتبره الشرع، ولأن جاه ذي الجاه ليس له أثر في قبول الدعاء، لأنه لا يتعلق بالداعي، وإنما هو من شأن ذي الجاه وحده. فالتوسل تجاه الشخص توسل بدعي من وجه، وشركي من وجه آخر، فكونه من البدع؛ لأنه لم يكن معروفًا عند النبي ﷺ وأصحابه { وكونه من الشرك؛ لأن كل من اعتقد في أمر من الأمور أنه سبب في جلب الخير، ودفع الشر فقد أتى نوعًا من أنواع الشرك، من أجل ذلك فإنه يحظر التوسل بذوات الأولياء والصالحين إلا إذا كان قول الشخص: "أسألك بنبيك محمد ﷺ" على

تقدير أن هذا الشخص يتوسل بالإيمان بالرسول ومحبته ؛ فإن ذلك عمل صالح ووسيلة شرعية.

النوع الثاني : هو توسل المشركين بأصنامهم وأوثانهم، وتوسل أهل الأهواء الجاهلين بالأولياء والصالحين.

يقول الشيخ الشقيري في كتابه "القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي" : "فالتوسل الممنوع هو الواقع من بعض العوام بسؤاله تعالى بأشخاص الأنبياء والأولياء والصالحين مما لا يعد قربة ولا وسيلة لهم إلى الله تعالى ؛ لأنه لا عمل لهم فيه، فإنه بدع من القول وزور، وضلال من اللعين وغرور وهو قطعًا غير مشروع بل هو من عمل المشركين الذي سرى إلى بعض المسلمين من أهل الكتاب كما سرى إليهم من الوثنيين، وذلك كقولهم : أسألك بحق النبي عليك، بحق قبره المعظم أو قبته عليك، أو بجاهه أو بركته عليك، يا نبي الله سقتك على ربك". انتهى.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية # : "ولفظ التوسل يراد به ثلاثة أمور : التوسل بالإيمان بالنبي ﷺ وهذا أصل الإيمان والإسلام. والثاني : دعاؤه وشفاعته، وهذا النوع أيضًا ينفع المتوسل الذي يدعو له النبي ﷺ ويشفع فيه. والثالث : التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذات النبي والسؤال بذاته، وهذا النوع من التوسل الممنوع هو المشتهر عند كثير من المتأخرين، وقد يُوَسعون دائرته ؛ فيدخلون فيها غير النبي ﷺ من سائر إخوانه من المرسلين والصالحين، وكل من يعتقد فيه الولاية والصلاح، وهذا النوع لم يكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء، ونحوه لا في حياة النبي ﷺ ولا بعد مماته لا عند قبره ولا قبر غيره، ولا يعرف في شيء من الأدعية المشهورة المروية عنهم". انتهى كلامه # .

وعلى منع هذا النوع من التوسل أفتت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالرياض، حيث ورد إليها تساؤل من بعض الأشخاص: هل يجوز التوسل بجاه بعض الصحابة { أثناء الدعاء؟ فأجابت اللجنة قائلة:

"الدعاء بجاه رسول الله أو بجاه فلانٍ من الصحابة وغيرهم أو بحياته لا يجوز؛ لأن العبادات توقيفية، ولم يشرع الله ذلك، وإنما شرع لعباده التوسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته وبتوحيده والإيمان به، وبالأعمال الصالحات، وليس جاه فلان وفلان وحياته من ذلك، فوجب على المكلفين الاقتصار على ما شرع الله سبحانه، وبذلك يعلم أن التوسل بجاه فلان وحياته وحقه من البدع المحدثة في الدين، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ))..والله أعلم. وبالله التوفيق".

ومما رسخ هذه العقيدة الفاسدة عند الناس أبيات يحفظها الناس، وهي نماذج لهذه التوسلات البدعية، والعبارات الشريكة؛ كقول بعضهم عنه نفسه:

نحن الغياث لمن ضاقت مذاهبه ❖ فاهتف بنا إن تضق أو إن تكن تُضمَ
نحن الذين لهذا الكون ذو مدد ❖ يناله من رآنا أو نأى فَعَمِيَ

وقال آخر:

أنا لمريدي جامع لشتاته ❖ إذا ما سطا جور الزمان بنكبةِ
وإن كنتَ في ضيق وكربٍ ووحشةٍ ❖ فناد بيا زورق آتِ بسرعةِ

وقال آخر وهو يخاطب الشيخ عبد القادر الجيلاني # :

أيدركني ضيم وأنت ذخيرتي ❖ وأظلم في الدنيا وأنت نصيري؟

وعار على راعي الحمى وهو في الحمى ❖ إذا ضاع في البيداء عقال بعير!

الواجب نحو الأولياء والصالحين:

وبعد أن بينا أن التوسل بهؤلاء الأولياء والصالحين في دعاء الله تعالى وعبادته لا يجوز، وأنه من القسم الثاني من التوسل الممنوع؛ لأن الله تعالى لم يجعل بينه وبين خلقه حجابًا يتوسطون للناس ويشفعون لهم عند الله تعالى حال الدعاء والتضرع والرجاء.

نقول: إن الواجب نحو الأولياء والصالحين هو محبتهم وزيارة قبورهم الزيارة الشرعية التي تذكر بالآخرة، والدعاء لهم، وعدم التمسح بقبورهم أو استلامها، أو العكوف عندها أو التذلل والخضوع عندها، وندائهم والتشفع والتوسل بهم في الدعاء، وجعلهم واسطة بينهم وبين الله تعالى، والأشد من ذلك حرمة، وهو من أنواع الشرك الذي حرم الله تعالى أن يتوجه إليهم بالدعاء والاستغاثة والاستعانة والرجاء حال دعائه وتضرعه ورجائه؛ طالبًا منهم المدد والفيوضات واستمطار الرحمات؛ فهذه الأشياء المحرمة والممارسات من الداعين للأولياء والصالحين لا يرضى بها الوليُّ الولايةَ الصحيحةَ الشرعيةَ ولا يقبلها؛ لأن الأولياء والصالحين عباد الله تعالى، عرفوه حق المعرفة ولا يقبلون الشرك، ولو نطق الولي المقبور تحت الثرى، ورأى ما يفعله هؤلاء الذين يقفون عند قبره ويدعونه ويستغيثون به لقال لهم بلسان الحال:

ومن عجب أني لغيرك شافع ❖ إليك وبي فقر إلى ألف شافع

وبهذا القدر نكتفي في الرد على هذه الشبهة الواهية مثل الشبهات السابقة.

تعريف الشفاعة في اللغة والشرع

٢ - الرد على شبهات في الشرك: (الشبهة الرابعة):

لقد تقدم سالفًا استعراض هذه الشبهة الواردة من الغلاة المدافعين عن الشرك وهي أن قصد الصالحين والأولياء بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة، والذبح، والنذر، والطواف، حول أضرحتهم وقبورهم، ونحو ذلك لا يعد شركًا؛ لأن قاصدهم بذلك إنما يطلبهم مما أعطاهم الله تعالى، وقد أعطاهم الشفاعة والجاه والقرب ولاسيما رسول الله ﷺ.

ولما كان المدافعون عن الشرك بهذه الشبهة يدعون أن توجههم إلى الأولياء والصالحين بقصد الدعاء والاستغاثة والرجاء والاستعانة بسبب وجاهتهم، ومنزلتهم والشفاعة التي أعطيت لهم، وخصوصًا ما ثبت من شفاعة نبينا محمد ﷺ.

لما كان الأمر كذلك يستحسن أن نقدم تعريفًا للشفاعة في اللغة والشرع فنقول، وبالله التوفيق:

أ) الشفاعة في اللغة:

الشفاعة في اللغة: قال ابن فارس: "الشين والفاء والعين أصل صحيح يدل على مقارنة الشيئين. ومن ذلك الشفع خلاف الوتر". انتهى.

والشفع: الزيادة، فالشفاعة: الوسيلة والطلب، وشفع الوتر من العدد: صَيَّره زوجًا، ويقال أيضًا: ناقة شفوع للتي يجمع منها محلبان في حلبة واحدة.

وشاة شافع للتي معها ولدها، ويقال: شفع لي يشفع شفاعة، وتشفع بمعنى طلب، ومعنى استشفعه: أي: طلب منه الشفاعة، وقال له: كن لي شفيعًا، والشفاعة: كلام الشفيع للمليك في حاجة يسألها لغيره.

والشافع: الطالب لغيره فيشفع به إلى المطلوب، قال الأعشى:

واستشفعت من سراة الحي ذا شرف ❖ فقد عصاها أبوها والذي شفعا

ويقال: تشفعت بفلانٍ إلى فلانٍ فشفعني فيه، واسم الطالب: شفيع واشفع، والجمع: شفعاء. قال الشاعر:

مضى زمن والناس يستشفعون بي ❖ فهل لي إلى ليلى الغداة شفيع؟

والمشَفَّع: الذي يقبل الشفاعة، والمشفع الذي تقبل شفاعته.

ويتحصل مما تقدم أن الشفاعة في اللغة هي: الانضمام إلى آخرَ من أجل نصرته، وأن الشفاعة تدل على ضم شيئين، ومقارنتهما، وأن اشتقاقها من الشفع الذي هو ضد الوتر، وأنها تنقسم إلى عناصر ثلاثة:

١- شافع: وهو صاحب الشفاعة التي يطلبها لغيره، ويسمى شفيعًا أيضًا، فإن قبلت شفاعته فهو مشفَّع بفتح الفاء.

٢- ومشفوع له: وهو صاحب الطلب، وهو المنتفع بالشفاعة.

٣- ومشفوع إليه: وهو من تطلب منه الشفاعة، فإن قبلها فهو مشفِّع بالكسر.

ب) الشفاعة في الاصطلاح: عرف ابن الأثير # الشفاعة بقوله: "هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم". انتهى. وبمثل ذلك عرف الشريف الجرجاني، حيث قال: "هي السؤال في التجاوز عن الذنوب من الذي وقع بالجناية في حقه". انتهى.

ونقل السفاريني # في تعريفها أنها: "سؤال الخير للغير". انتهى.

وبتأمل يسير لهذه التعريفات نجد أن التعريفين الأولين حصرا الشفاعة في جلب المنافع، وأن التعريف الثالث حصرها في درء المفاسد، وكل واحد منها ليس جامعًا، بل الحقيقة أن طلب الشفاعة لا يقتصر على أحد الأمرين، بل يتعلق بأحدهما تارة، وبالآخر تارة أخرى.

وقيل في تعريف الشفاعة هي: "طلب الرسول ﷺ أو غيره من الله في الدار الآخرة حصول منفعة لأحد من الخلق". انتهى.

والتعريف المختار للشفاعة أنها: "التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة". انتهى.

أنواع الشفاعة المثبتة، والشفاعة المنفية

أولًا: الشفاعة المثبتة:

وبعد أن عرفنا الشفاعة في اللغة، وفي الاصطلاح يحسن بنا أن نبين:

أن الشفاعة، نوعان: شفاعة مثبتة، وشفاعة منفية.

فأما المثبتة: فهي التي ثبتت بالنصوص الشرعية.

وأما المنفية: فهي الشفاعة التي يذكرها الغلاة والمدافعون عن الشرك، وهي التي لم يصح شرعًا ثبوتها، وهي التي ذكرها أصحاب هذه الشبهة.

أنواع الشفاعة المثبتة

أما الشفاعة المثبتة: فهي الشفاعة يوم القيامة، فقد ثبت أن النبي محمدًا ﷺ يشفع يوم القيامة، ومرة يشفع غيره من الشفعاء؛ كالملائكة والنبيين، والمؤمنين، وتارة يشفع القرآن والصيام.

ولهذه الشفاعة شرطان: إذن الله للشافع. ورضاه عن المشفوع.

وفيما يلي بيان لهذه الشفاعات الصحيحة:

أ) شفاعات النبي ﷺ:

للنبي ﷺ شفاعات في الآخرة بعضها خاص به ﷺ، ويشاركه الملائكة والنبيون -عليهم السلام- في بعضها الآخر.

وفيما يلي بيان لتلك الشفاعات:

١- الشفاعة العظمى:

وهذه الشفاعة خاصة بخاتم النبيين ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك حين يجمع الله الخلائق في عرصات القيامة، ويشتد الموقف فتفزع الأمم إلى الأنبياء تطلب منهم التوسل من أجل الشفاعة عند الله تعالى ليقضي بينهم ويريحهم من مقامهم ذلك، وما هم فيه من شدة وكرب، فتفزع إلى آدم، ونوح ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى -عليهم الصلاة والسلام- فيتدافع الشفاعة -بعد آدم- أولو العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: ((أنا لها)) ويشفع لأهل الموقف عند ربه ﷻ، وهذه

الشفاعة هي أعظم الشفاعات، ولهذا تسمى الشفاعة العظمى؛ لأنها شاملة لجميع الأمم على اختلاف أديانهم، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود -على رأي جمهور العلماء- الذي وعد الله ﷻ به خاتم النبيين ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، والدليل على هذه الشفاعة ما أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة > قال: ((أُتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس -أخذ اللحم بأطراف الأسنان- منها نهسة، فقال: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنْ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ فَيَأْتُونَ آدَمَ # فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ؛ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا؛ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الْحَدِيثِ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا

مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ؛ نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ؛ اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي ، ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي ، فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى)).

المصراع : أحد شقي الباب ، إذا كان له شقان.

هجر : قصبة بلاد البحرين.

٢- الشفاعة في استفتاح باب الجنة لأهلها :

ورد في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ هو أول من يشفع لأهل الجنة في دخولها من ذلك ما رواه أنس بن مالك > قال : قال النبي ﷺ : ((أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ

لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ، وَإِنَّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ)). رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أيضًا، أن النبي ﷺ قال: ((آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ)). رواه مسلم.

فيستدل بهذه الأحاديث ونحوها على أن النبي ﷺ أول الشفعاء، حيث يشفع لأهل الجنة في دخولها، وعليه فهذه الشفاعة -أيضًا- خاصة به ﷺ. ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن هذه الشفاعة والتي قبلها: "وهاتان الشفاعتان خاصتان به ﷺ". انتهى.

٣- الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحق:

وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ لعمه أبي طالب، ودليلها ما جاء في الصحيحين عن العباس بن عبد المطلب > قال: ((يا رسول الله، مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ، وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)).

وعن أبي سعيد الخدري > أن رسول الله ﷺ **ذُكِرَ عِندَه عَمه فقَـال:** ((لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ)). رواه البخاري ومسلم.

٤- الشفاعة في رفع درجات أقوام من أهل الجنة:

ودليل هذا النوع ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري > ((أن أبا عامر عم أبي موسى الأشعري > أمر أبا موسى الأشعري أن يطلب من النبي ﷺ أن يدعو له، فأخبر أبو موسى النبي ﷺ دَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ رَفَعَ

يديْهِ، فقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِرٍ، وَرَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ مِنْ النَّاسِ فَقُلْتُ: وَلِي، فَاسْتَغْفِرْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ ذَنْبَهُ وَأَدْخِلْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُدْخَلًا كَرِيمًا)).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ وقيل: إنها ليست خاصة به؛ لكنه المقدم فيها.

٥- الشفاعة في دخول الجنة بلا حساب:

ودليل هذا النوع من الشفاعة:

ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عبد الله بن عباس } قال: قال النبي ﷺ: ((عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمْ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ؛ فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلَأُ الْأُفُقَ ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلَأَ الْأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، ثُمَّ دَخَلَ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ فَأَفَاضَ الْقَوْمُ وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ، وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ أَوْ أَوْلَادُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ فَقَالَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ)).

٦- الشفاعة لأهل الكبائر:

المراد بأهل الكبائر: العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بسبب ذنوبهم، فيشفع فيهم الرسول ﷺ لإخراجهم من النار بعد دخولها.

ودليل هذا النوع من الشفاعة: حديث أنس بن مالك > قال: حدثنا محمد ﷺ قال: ((إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ لَهُ: اشْفَعْ لِذُرِّيَّتِك؛ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ # فَإِنَّهُ خَلِيلُ اللَّهِ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى # فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيُؤْتَى مُوسَى، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى # فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ؛ فَيُؤْتَى عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ فَأُوتَى فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، فَأَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ الْآنَ، يُلْهِمُنِيهِ اللَّهُ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ بُرَّةٍ أَوْ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْهَا، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَبِّي فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ لِي: انْطَلِقْ فَمَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِنْ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ)). رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك > أن النبي ﷺ قال: ((شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي)) رواه أبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه الإمام أحمد والحاكم في (المستدرك).

قال ابن كثير: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وصححه الشيخ الألباني.

يقول ابن أبي العز # :

"ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال:

أ- فالمشركون والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في المشايخ، وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله؛ كالشفاعة المعروفة في الدنيا.

ب- والمعتزلة، والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر.

ج- أما أهل السنة والجماعة: فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكن لا يشفع لأحد حتى يأذن الله له ويحد له حدًّا". انتهى.

وبعد أن ثبتت شفاعة نبينا وحبيبنا محمد ﷺ ينبغي التنبيه هنا على أنه لا يجوز أن نتوجه إليه ﷺ الآن بطلبها منه في الدنيا، وإنما نتوجه إلى المولى ﷻ في طلبها فنقول: "اللهم شفع فينا نبيك وخاتمة رسلك محمدًا ﷺ واجعلنا نَرِدُ حوضه، ونشرب منه شربةً هنيئةً لا نظمأ بعدها أبدًا، واجزه عنا أفضل ما جزيت نبيًّا عن أمته، وصلى اللهم عليه أفضل وأكمل ما صليت على أحد من النبيين والمرسلين من قبله وسلم تسليمًا".

ب) شفاعة غير النبي ﷺ من الملائكة والنبيين والمؤمنين:

والدليل على شفاعة الملائكة الكرام عليهم السلام: قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، ونحوها من الآيات.

أما الدليل على شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين من السنة، ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري > الطويل مرفوعًا، وفيه: ((فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: شَفَعَتْ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)).

ومما يستدل به على شفاعة المؤمنين -أيضًا- ما ورد عن أبي سعيد الخدري > أن النبي ﷺ قال: ((إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَشْفَعُ لِلْفِئَامِ مِنْ النَّاسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْقَبِيلَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلْعَصَبَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْفَعُ لِلرَّجُلِ حَتَّى يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ))..

الفئام: الطائفة. والعصبة: ما دون العشرة.

رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن. والإمام أحمد في (مسنده) وابن خزيمة في (كتاب التوحيد).

وعن عبد الله بن أبي الجدعاء > أنه سمع النبي ﷺ يقول: ((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سِوَاكَ؟ قَالَ: سِوَايَ)). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في سننه والإمام أحمد في المسند والحاكم في (المستدرك). وصححه ووافقه الذهبي كما صححه الشيخ الألباني.

ج) شفاعة الشهداء:

جاء في بعض السنة أن الشهداء يشفعون يوم القيامة لأقاربهم، فعن المقدام بن معد يكرب > قال: قال رسول الله ﷺ: ((لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ - وذكر منها: - وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ)). رواه الترمذي، وقال هذا حديث

حسن صحيح غريب. وابن ماجه في سننه، والإمام أحمد في (المسند) وصححه الشيخ الألباني.

د) شفاعة أولاد المؤمنين:

أولاد المسلمين إذا ماتوا قبل الحُلُم شفعاء وأفراط لوالديهم يوم القيامة؛ لطلب المغفرة لهم والتجاوز عنهم، وبإدخالهم الجنة مع أولادهم. فعن أبي هريرة > ((أن رجلًا قال له: أنه قد مات لي ابنان، فهل أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديثٍ تطيب له أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم، قَالَ: مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَمُوتُ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُمَا اللَّهُ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ الْجَنَّةَ، قَالَ: يُقَالُ لَهُمْ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى يَدْخُلَ آبَاؤُنَا، فَيُقَالُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ))

رواه الإمام أحمد في (المسند)والنسائي في "سننه" والبيهقي في "الشعب" وصححه الشيخ مقبل الوادعي.

يقول الشيخ السفاريني # : "يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ من سائر الرسل والأنبياء والملائكة والصحابة والشهداء والصديقين والأولياء على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون وبقدر جاههم ووجاهتهم يشفعون لثبوت الأخبار بذلك وترادف الآثار على ذلك هو أمر جائز غير مستحيل فيجب تصديقه والقول بموجبه لثبوت الدليل". انتهى كلامه.

ثانيًا: الشفاعة المنفية:

وبعد أن بينا المراد بالشفاعة المثبتة، وذكرنا أنواعها وشرطاها: نذكر هنا المراد بالنوع الثاني من الشفاعة، وهي الشفاعة المنفية.

أي التي نفاها القرآن الكريم ودل النقل الصحيح والعقل الصريح على نفيها. وهي التي يتشبث بها الغلاة من القبوريين ومن شابههم وكذلك الشفاعة التي يدعيها أهل الشرك لأصنامهم، وهي المذكورة أيضًا في هذه الشبهة التي نحن بصدد دحضها والرد على القائلين بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية # عند بيان افتراق الناس في مسألة الشفاعة: "وهذا الموضوع افترق الناس فيه ثلاث فرق: طرفان ووسط. فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب؛ كالنصارى، ومبتدعة هذه الأمة أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن". انتهى كلامه.

وقد أخبرنا الله تعالى عن المشركين الذين زعموا أن أصنامهم وتماثيلهم تشفع لهم عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

وهذه الشفاعة تختلف عن الشفاعة المثبتة؛ لأن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر؛ لأن الشفاعة عند البشر قد تحصل بدون إذن المشفوع إليه أو دون رضاه عن المشفوع له لسبب من الأسباب بخلاف الشفاعة عند الله تعالى كما سبق بيان ذلك. كما أن الله تعالى نفى هذا النوع من الشفاعة بقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١]. وبقوله ﷻ: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤]. إلى غير ذلك من الآيات، هذا، والله أعلم.

الرد على الشبهتين الخامسة والسادسة
في تعلق الغلاة بالشرك

عناصر الدرس

العنصر الأول :	استعراض هاتين الشبهتين	٢٣٥
العنصر الثاني :	المراد بالشفاعة يوم القيامة وصورتها	٢٣٧
العنصر الثالث :	قصة إبراهيم حين ألقي في النار مع جبريل -عليهما السلام- وبيان الاستغاثة الجائزة والممنوعة	٢٤٢
العنصر الرابع :	الرد على الشبهة السادسة من وجوه	٢٤٨

استعراض هاتين الشبهتين

أولًا: (الشبهة الخامسة):

"أن النبي ﷺ ذكر أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى؛ حتى ينتهوا إلى خاتمهم ﷺ وكذا في قصة إبراهيم حين عرض عليه جبريل الإغاثة لما ألقي في النار؛ فدل هذا على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا".

اعلم أن الغلاة ركزوا في عرضهم لهذه الشبهة على مسألة واحدة: ألا وهي الاستغاثة:

فقالوا: لما كان النبي ﷺ ذكر أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثم بنوح، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى؛ حتى ينتهوا إلى خاتمهم -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- وكذلك في قصة إبراهيم حين عرض عليه جبريل الإغاثة لما ألقي في النار؛ فدل هذا على أن الاستغاثة بغير الله ليست شركًا، وبالتالي فالاستغاثة بالأولياء والصالحين، والطلب منهم، ودعاؤهم، ورجاؤهم، والاستمداد منهم لا يُعدُّ من قبيل الشرك؛ لأن الناس ثبت أنهم يوم القيامة يستغيثون بالأنبياء نبيًّا نبيًا، حتى ينتهوا إلى خاتم النبيين محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- فيتقدم للشفاعة فيشفع لهم، ثم إن جبريل # عرض على نبي الله إبراهيم # الإغاثة حين ألقي في النار.

إذن فلماذا تنكرون علينا لجوءنا للأولياء والصالحين، واستغاثتنا بهم وطلبنا للمدد منهم؟ أليس هذا الفعل الذي فعلناه والتوجه الذي قمنا به هو من قبيل الاستغاثة الصحيحة؟!.

هذه هي دعوى أصحاب هذه الشبهة.

ثانيًا: (الشبهة السادسة):

إن المشركين هم الذين نزل فيهم القرآن أولًا، وهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويكذبون الرسول ﷺ وينكرون البعث ويكذِّبون القرآن ويجعلونه سحرًا، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونصدِّق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي ونصوم؛ فكيف تجعلوننا مثل أولئك المشركين؟ لأننا قصدنا أولياء الله بالدعاء ليشفعوا لنا عند الله فحسب!.

صورة هذه الشبهة عند الغلاة: أنهم يقولون: إن المشركين هم الذين نزل فيهم القرآن الكريم أيام الجاهلية الأولى، وهم لا يشهدون أن لا إله إلا الله، ولا يؤمنون برسالة النبي محمد ﷺ بل يكذِّبون الرسول ﷺ ويرفضون ما جاء به من عند الله ﷻ وينكرون البعث والمعاد، ويكذِّبون القرآن، ويصفونه بالسحر، أما نحن فعكس ذلك كله؛ نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ونصدق القرآن، ونتلوه ونحفظه، ونؤمن بالغيب، ومن ذلك إيماننا بالبعث، ونصلي ونصوم مثل عموم المسلمين، ونأتي بالشعائر التعبدية، فكيف تجعلوننا مثل عبدة الأصنام المشركين الذين يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأصنام، ويقفون في وجه الدعوة ويفعلون الأفاعيل من أجل ذلك؟! فالمشركون عبدوا الأصنام،

ونحن إنما قصدنا أولياء الله تعالى المقربين منه المحبوبين لديه بدعائهم ورجائهم واستغاثتهم والاستعانة بهم، والنحر من أجلهم، والنذر لهم، وطلب المدد منهم ليشفعوا لنا عند الله تعالى، فنحن بعيدون عن الله تعالى أوقرتنا ذنوبنا، وتلطخنا بمعاصينا، فنحن -إذن- غير مهيئين لمناجاة ربنا ودعائه ورجائه مباشرة، من أجل ذلك توجهنا إلى الأولياء المقربين الذين نَظُفَتْ ظواهرهم، وصفت بواطنهم، واستغثنا بهم وطلبنا منهم المدد ليشفعوا لنا عند الله تعالى فحسب، ونحن لا نعبدهم من دون الله تعالى، وليس لنا إله غير الله ﷻ كل ما في الأمر أنهم يُعتبرون واسطة بيننا وبين ربنا تعالى ليجيب دعاءنا ويحقق آمالنا، ويقضي حوائجنا؛ فكيف تحكمون علينا بالشرك، وتقولون: إنه لا فرق بين ما فعلناه، وما فعله المشركون عَبَدَةُ الأصنام في الجاهلية الأولى؟!.

المراد بالشفاعة يوم القيامة، وصورتها

ما زلنا أمام اعتذارات الغلاة عن الشرك بالشبهات التي يتشبثون بها مدَّعين أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وقد تقدم قبل شبهات في الشرك، وبعد استعراضنا لتلك الشبهات نقوم بالكر عليها بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة حتى تتلاشى وتضمحل -ولله الحمد- وهكذا كل منهج لا يستنير بنور الوحي، ولا يتقيد بمصدري التشريع: الكتاب، والسنة، فتناقضه حتم وتهدمه واجب، وتهافته لازم.

وكما قلنا -سابقًا- في ردنا على بعض تلك الشبهات:

أن الغلاة يستدلون لإثبات شبهاتهم بشيئين:

أحدهما: نصوص شرعية صحيحة لا مستند لهم فيها؛ بل إنها عند الاستعراض تكون عليهم وليست لهم.

الثاني: أمور عقلية وخيالات وهمية لا زمام لها ولا خطام، كما قيل: "من تعلق بالكرامات بالكرى مات".

أولًا: المراد بالشفاعة يوم القيامة:

تقدم تعريف الشفاعة وذكر أنواعها، وبيان الشفاعة الجائزة والممنوعة، إلا أن الذي يهمنا الآن هو بيان المراد بالشفاعة يوم القيامة، فنقول:

من المعلوم بالنقل أن الله ﷻ يحاسب العباد يوم القيامة بنفسه كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] إلا أنه ورد في السنة المطهرة أنواع من الواسطة في حالات معينة تقع في ذلك اليوم تكريمًا للواسطة، ولتقوم الحجة، ويتم الإعذار بتقدير العزيز الغفار، فقد ورد أن النبي ﷺ يكون واسطة بين الأمم يوم القيامة وبين الرب -جل وعلا- وكما كان جبريل # واسطة من الملائكة بين الله تعالى وبين الواسطة من الأنبياء والرسل في تبليغ الرسالات في الدنيا، فقد ورد كذلك في بعض الأحاديث أن جبريل # يكون واسطة بين الله تعالى وبين خاتم النبيين محمد ﷺ في الآخرة، وذلك في الموقف عندما يشتد الكرب، ويفرق القلب، وتذهب الأمم إلى الأنبياء والرسل تطلب منهم الشفاعة، ثم يعتذر الأنبياء واحدًا بعد واحدٍ؛ حتى ينتهوا إلى خاتمة الوسائط من النبيين محمد ﷺ وعلى سائر إخوانه المرسلين؛ فيقول: ((أنا لها))

حتى يأذن الله لمن يشاء ويرضى، ثم ينطلق ﷺ فيأتي تحت العرش ويقع ساجدًا لربه ويحمده بمحامد يفتح الله عليه بها في ذلك اليوم، عند ذلك يرسل الله ﷻ جبريل، ويقول له: ((اذهب إلى محمد ﷺ وقل له: ارفع رأسك؛ سل تعطه، واشفع تشفّع)) فروى الإمام أحمد في "مسنده" من حديث أبي بكر > أن النبي ﷺ قال: ((إني لقائم أنتظر حتى يعبر الصراط إذ جاءني عيسى فقال: هذه الأنبياء جاءتك -يا محمد- يسألونك ويدعون الله أن يفرق جميع الأمم إلى حيث يشاء الله إلى غير ما هم فيه؛ فالخلق ملجمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر. فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقي ما لم يلقَ ملك مصطفى، ولا نبي مرسل، فأوحى الله إلى جبريل أن اذهب إلى محمد وقل له: ارفع رأسك؛ سل تعطه، واشفع تشفّع)) فالمراد أن للنبي ﷺ شفاعات في الآخرة بعضها خاص به ﷺ ويشاركه الملائكة والنبيون في بعضها الآخر فيكون واسطة بين الله تعالى وخلقه في تلك الشفاعات، إلا أن أهم ذلك هو الشفاعة العظمى، وهذه الشفاعة خاصة بخاتم النبيين ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وذلك حين يجمع الله الخلائق في عرصات القيامة، ويشتد الموقف، فتفزع الأمم إلى الأنبياء تطلب منهم التوسل من أجل الشفاعة عند الله تعالى ليقضي بينهم، ويريحهم من مقامهم ذلك، وما هم فيه من شدة وكرب فتفزع إلى آدم ونوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى -عليهم الصلاة والسلام- فيتدافع الشفاعة -بعد آدم- أولو العزم من الرسل -عليهم الصلاة والسلام- حتى ينتهي الأمر إلى نبينا محمد ﷺ فيقول: ((أنا لها)) ويشفع لأهل الموقف عند ربه ﷻ وهذه الشفاعة هي أعظم الشفاعات؛ ولهذا تسمى الشفاعة العظمى؛ لأنها شفاعة لجميع الأمم على اختلاف أديانهم، وهذه الشفاعة هي

المقام المحمود على رأي جمهور العلماء الذي وعد الله ﷻ به خاتم النبيين ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ثانيًا: صورة الشفاعة يوم القيامة:

والدليل على هذه الشفاعة يوم القيامة -وبيَّن صورتها-: ما أخرجه البخاري ومسلم في (صحيحيهما) من حديث أبي هريرة > قال: أُتيَّ رسول الله ﷺ بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة، فقال: ((أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وتدنو الشمس، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بَلَغْكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بلغْنا؟! فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته؛ نفسي، نفسي؛ اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحًا، فيقولون: يا نوح: أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بَلَغْنا؟! فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي؛ نفسي، نفسي؛ اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله

من أهل الأرض ؛ اشفع لنا إلى ربك ، إلا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بَلَغنا؟! فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضب لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله -وذكر كذباته- نفسي ، نفسي ؛ اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى ﷺ فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله فضلك الله برسالاته ، وبتكليمه على الناس ؛ اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بَلَغْنا؟! فيقول لهم موسى ﷺ إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضبه بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ؛ نفسي ، نفسي ؛ اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلّمت الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه ؛ فاشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما قد بَلَغْنا؟! فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله -ولم يذكر ذنبًا- نفسي ، نفسي ؛ اذهبوا إلى غيري ؛ اذهبوا إلى محمد ﷺ فيأتون ، فيقول : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بَلَغْنا؟! فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ، ثم يفتح الله عليّ ، ويلهمني من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ؛ سل تعطه ، اشفع تشفّع. فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي ، أمتي ؛ فيقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ؛ والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى)).

قصة إبراهيم حين ألقي في النار مع جبريل - عليهما السلام - وبيان الاستغاثة الجائزة والممنوعة

أولًا: قصة إبراهيم حين ألقي في النار مع جبريل - عليهما السلام - :

مجمل قصة نبي الله إبراهيم # مع نمرود: أن القوم لما أرادوا الخروج في أحد أعيادهم؛ حلف إبراهيم ليفعلن بأصنام ما يسوؤهم، ثم برّ بيمينه فكسر أصنامهم إلا صنمهم الكبير علّق عليه الفأس، فلما سألوه: من فعل هذا بأصنامنا؟ قال: فعله كبيرهم هذا، ثم قالوا له: لقد علمت أن الأصنام لا تسمع ولا تنطق؛ فلما حجهم رجعوا إلى عقولهم، ثم نكصوا وعاندوا وتآمروا على إبراهيم # وقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم، ويقال: إنهم بنوا بنيانًا عظيمًا وألقوه في النار وكانت تلك النار عظيمة بحيث إن الطير كلما طار في الجو سقط فيها. وأن كل حيوان شارك في إطفائها إلا الوزغ.

وبعض المفسرين يذكرون أنهم لما كتّفوه مجردًا ورموه في النار قال له جبريل: ((هل لك حاجة؟ قال: إما إليك فلا، وأما إلى الله؛ فنعم)) وأن جبريل عرض على إبراهيم الإغاثة، ثم إن الله تعالى أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون بردًا وسلامًا، فأنجاه الله من تلك النار، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠] وفي القصة أن الله سلّط على نمرود وقومه خلقًا من أضعف خلقه - وهو البعوض - فأهلكهم.

ثانيًا: الاستغاثة الجائزة والممنوعة:

الاستغاثة: هي الالتجاء والاعتصام، وطلب الغوث: وهو إزالة الشدة؛ كالاستنصار: طلب النصر، والاستعانة: طلب العون، وقيل: الفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ١٠]، والدعاء أعم من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره، وقيل: إن الإغاثة هي الإعانة، فعلى هذا تكون الاستغاثة هي الاستعانة، ولا ريب أن من استغاثك فأغثته فقد أعنته، إلا أن لفظ الاستغاثة مخصوص بطلب العون في حالة الشدة، بخلاف الاستعانة. والفرق بين العياذ واللياذ أن العياذ يكون لدفع الشر واللياذ لطلب الخير قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ [الجن: ٦].

والاستغاثة أنواع:

أولها: الاستغاثة الواجبة:

وهي التي تطلب من الله تعالى، ودليلها قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال: ١٠].

وثانيها: الاستغاثة المحرمة:

وهي التي تطلب من غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كقول بعض الغلاة في الاستغاثة بالأموات والغائبين في جلب نفع أو دفع ضر:

نحن الغياث لمن ضاقت مذاهبه ❖ فاهتف بنا إن تضق أو إن تكن تُضِم
نحن الذين لهذا الكون ذو وتدٍ ❖ يناله من رآني أو نأى فعمي

وثالثها: الاستغاثة الجائزة:

وهي الاستغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه، ودليلها قول الله -تبارك وتعالى- عن موسى # : ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: من الآية: ١٦].

قال الشيخ صنع الله الحلبي # : "وأما قول الغلاة في الأولياء فيستغاث بهم في الشدائد هذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله -جل ذكره-: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣]، ثم قال: فإنه -جل ذكره- قرر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتعين لكشف الشدائد والكرب، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، والقادر على إيصال الخير؛ فهو المتفرد بذلك كله، والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال أو إدراك عدو، أو سبع، ونحوه كقولهم: يا لزيد، يا للقوم، يا للمسلمين، كما ذكروا ذلك في كتب النحو بحسب الأسباب الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير، أو في الأمور المعنوية من الشدائد؛ كالمرض، وخوف الغرق، والضيق، والفقر، وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله فلا يطلب فيها غيره، وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب، والصوفية، والجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم؛ فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير

الله من نبي أو ولي، أو روح، أو غير ذلك في كشف كربة، أو قضاء حاجته تأثيرًا؛ فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير، فإن ذِكْر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي أو ولي وغيره على وجه الإمداد منه إشراك مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره". انتهى كلامه.

إذًا؛ فالاستغاثة الواردة في هذه الشبهة هي من نوع الاستغاثة المحرمة، وقد روى الطبراني بإسناده أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: "قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق". فقال النبي ﷺ: ((إنه لا يستغاث بي؛ وإنما يستغاث بالله)).

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # في شرحه لهذا الحديث: "فيه التصريح بأنه لا يستغاث بالنبي ﷺ في الأمور؛ وإنما يستغاث بالله، والظاهر أن مراده ﷺ إرشادهم إلى التأدب مع الله في الألفاظ؛ لأن استغاثتهم به ﷺ من المنافق من الأمور التي يقدر عليها، إما بزجره، أو تعزيره، ونحو ذلك، فظهر أن المراد بذلك الإرشاد إلى حسن اللفظ، والحماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وتعظيم الله -تبارك وتعالى- فإذا كان هذا كلامه ﷺ في الاستغاثة به فيما يقدر عليه فكيف بالاستغاثة به أو بغيره في الأمور المهمة التي لا يقدر عليها أحد إلا الله؟ فإن قلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: من الآية: ١٥]، فإن ظاهر الحديث المنع من إطلاق لفظ الاستغاثة على المخلوق فيما يقدر عليه، وظاهر الآية جوازه؟!.

قيل: تُحمل الآية على الجواز، والحديث على الأدب، والأولى -والله أعلم، وقد تبيّن بما ذكر في هذا الباب وشرحه من الآيات والأحاديث وأقوال العلماء-: أن دعاء الميت والغائب والحاضر فيما لا يقدر عليه إلا الله، والاستغاثة بغير الله

في كشف الضر أو تحويله هو الشرك الأكبر، بل هو أكبر أنواع الشرك ؛ لأن الدعاء مخ العبادة ؛ ولأن من خصائص الإلهية إفراد الله بسؤال ذلك ؛ إذ معنى الإله هو الذي يُعبد لأجل هذه الأمور ؛ ولأن الداعي إنما يدعو إلهه عند انقطاع أمله مما سواه، وذلك هو خلاصة التوحيد، وهو انقطاع الأمل مما سوى الله ؛ فمن صرف شيئًا من ذلك لغير الله ؛ فقد ساوى بينه وبين الله، وذلك هو الشرك". انتهى كلامه.

وأما الاستدلال بقصة إبراهيم # لما أُلقي في النار وعرض جبريل الإغاثة عليه ؛ فالرد عليه من جهة أن المنكر هو استغاثة العبادة التي تفعل عند القبر وسائر القبور، أو تفعل في غيبة المستغاث به، والتي يطلب بها ما لا يقدر عليه إلا الله وحده من غير الله تعالى، أما استغاثة الناس يوم القيامة بالأنبياء ليدعوا لهم ؛ فهذا جائز، يجوز في الدنيا والآخرة أن يطلب الشخص من حي صالح حاضر يسمع قوله، ويقدر أن يدعوا الله له، وكذلك استغاثة إبرهيم بجبريل -عليهما السلام- لو وقعت ؛ فهي في أمر يقدر عليه جبريل # فهو كما وصفه الله ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥] ففي مقدوره أن يغيث إبراهيم مثل قويٍّ في مقدوره أن يغيث عاجزًا بقوته ؛ كما فعل موسى بالقبطي" إغاثة الذي من شيعته.

وسؤال المخلوق فيه ثلاث مفاسد:

أ- مفسدة: الافتقار إلى غير الله تعالى وهي نوع من الشرك.

ب- مفسدة: إيذاء المسئول وهي ظلم للمستغاث به.

ج- مفسدة: التذلل والانكسار لغير الله، وهي ظلم للنفس.

ولقد أحسن القائل:

يا سائلًا غير إله السما ❖ بشراك بالخيبة والرد

إن الذي سواك من نطفة ❖ يغنيك عن مسألة العبد

قال شيخ الإسلام ابن تيمية # : "استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة العدم بالعدم". انتهى.

وقيل: "استغاثة المخلوق بالمخلوق؛ كاستغاثة الغريق بالغريق"، وقال آخر: "استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون".

ومن كلام علي السجاد # : "طلب المحتاج من المحتاج سفه في الرأي وضلة في العقل".

وبيّن العلامة ابن القيم # أن المخلوق الذي يسأل مخلوقًا: فقيرٌ يسأل فقيرًا، وشحاذٌ يسأل شحاذًا، وسمى الشوكاني # الاستغاثة بالأموات وتقديم الذبائح والنذور لهم عند الحاجة أن ذلك رشوة مقدمة للميت المستغاث به، والميت لا يحتاج إلى تلك الرشوة، وشبهه الألوسي # بضعيف عاذ بقرملة.

وأقول: إن استغاثة الحي بالميت المقبور لقضاء حوائجه؛ كاستغاثة حوت في قاع البحر بباز في جو السماء هذا لا يستطيع مفارقته، وهذا لا يستطيع ملامسته، وما أحسن ما قيل:

بالله أبلغ ما أسعى وأدركه ❖ لا بي ولا بشفيع لي من الناس

ثم إن الدعوة للتشبث بالوسائط البدعية والاستغاثة بغير الله تعالى يصادم دعوة القرآن الكريم للإيمان بأمور الغيب، ومن ذلك: أن الله تعالى قريب منا يسمع كلامنا ويرى أحوالنا، وكذلك أدبنا رسول الله ﷺ.

فإذا استغثنا بربنا وعلقنا به قلوبنا؛ حصلت لنا فوائد عظيمة منها:

١ - امتثالنا لأوامر ربنا ﷻ.

٢ - إيماننا بالغيب الذي يميز المؤمنين عن الكافرين.

٣- يقينُنا بأن هذه هي الاستغاثة التي تنفع لقضاء الحاجة وتحقيق الأمنية، إلى غير ذلك من الفوائد العظيمة والمنافع الجسيمة.

الرد على الشبهة السادسة من وجوه

أولًا: تمهيد:

ما زالت شبهات الغلاة المدافعين عن الشرك تتوالى، فكما تقدم معنا الرد على شبهات: الشفاعة، والتوسل، والاستغاثة، نقف الآن أمام شبهة جديدة، واعتذار جديد يدافع به الغلاة عن الواقعين في الشرك العملي، والقولي والاعتقادي؛ ظانين أن الشرك لا يقع في هذا الأمة، ولا يتصور وقوعه بين المسلمين، وإذا وجد أحدهم يتوسل بصاحب قبر ليشفي مريضه، ويرد ضالته، ويزيل كربه؛ ينبغي أن لا ينكر عليه منكر ذلك الفعل، ما دام هذا المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

هذا في اعتقاد الغلاة هو الواجب للمسلم نحو أخيه المسلم، وهو الذي تستوجبه المحبة والأخوة الإسلامية، وأن من أنكر هذا التوجه ورفض تلك الممارسات؛ فقد شارك في الدعوة إلى الفرقة والانشقاق، وتشتيت كلمة المسلمين وتشطير جمعهم، وكأن الغلاة بهذا التصور ينكرون الردة التي حصلت في عهد الصديق < عقب عصر النبوة مباشرة. وقاتلهم المهاجرون والأنصار، ولم يغنِهِم تلفظهم بالشهادتين ولا كونهم يقرءون القرآن، ولا كونهم في بيئة لا تعبد

الأصنام، ولا كونهم يصلون ويصومون ويحجون، ويؤمنون بالبعث؛ لأن من أتى بناقض للتوحيد فقد أفسد إيمانه السابق، كما يفسد الوضوء بناقض من نواقض الوضوء الحسية، كما مرّ معنا سابقًا، ولازم قول هؤلاء المدافعين عن الشرك: أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ورأيناه يصوم ويصلي ويحج ولا ينكر البعث، ويصدق القرآن، ثم رأينا منه الشر الصراح كالسجود للصنم، والاستمداد من المقبورين مدعيًا أن لهم تصرفًا في الكون، ومن رأيناه يفعل ذلك ينبغي –في زعمهم- أن لا نحكم عليه بالكفر! لأن الإيمان -عند أمثال هؤلاء- لا ينقضه شيء! وفي هذا دعوة سافرة إلى الانسلاخ من الدين -نعوذ بالله من مزلات الأقدام، ومزيلات الإسلام.

ثانيًا: من نقض توحيده لا ينفعه كونه في بيئة تقرأ القرآن:

لا شك أن من آمن بالله تعالى وصدّق الرسول ﷺ فيما جاء به واتبع جميع الأوامر ووقف عند جميع النواهي، محققًا التوحيد -توحيد العبادة- الذي هو أساس الإسلام وروح العقيدة، ولب الرسالة المحمدية، لا شك أن من اتصف بذلك فهو المؤمن حقًّا الذي حقن دمه وعرضه وماله، وصار في كنف الله تعالى، أما من أتى بناقض من نواقض التوحيد؛ فقد أفسد أعماله كلها، وصارت هباءً منثورًا. قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، ولم ينفعه -عند ذلك- إسلامه السابق ولا كونه يقرأ القرآن ولا في بيئة مسلمة؛ لأنه أتى بما ينقض شهادة أن لا إله إلا الله؛ فلم تنفعه بعد نقضه لها؛ لأنه أفسد إيمانه بذلك الناقض كما يفسد الوضوء بناقض من نواقضه الحسية.

ثم إن الفقهاء في جميع المذاهب قرروا في باب المرتد: أن المسلم مهما بلغ من درجة الصفاء والنقاء، وترقى في منازل الإيمان والإحسان، وأتى بعلامات المؤمن الظاهرة، ثم أتى بشيء من نواقض الإسلام العشرة؛ فإنه يحكم بكفره وردته وخروجه عن دائرة الإسلام -والعياذ بالله تعالى- حيث إن الشرك يفسد الأعمال، وينقض ما أبرمه العبد من أعمال صالحة في الظاهر، وقد نهى الله ﷻ عن ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [النحل: من الآية: ٩٢].

فنواقض الإسلام لا يصح معها إسلام ولا عمل، كما لا تصح الصلاة مع ناقض من نواقض الوضوء، فالشرك مثلًا يفسد العبادة، ويفسد قول: "لا إله إلا الله" مهما كانت العبادة كثيرة، ولو أمثال الجبال، فالشرك يفسدها ويحبطها، ويجعلها هباءً منثورًا؛ لأن الإسلام والشرك لا يجتمعان، فمن ادعى بقاء إسلامه مع ممارسته الشرك؛ فهو كاذب؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

فهذه هي شبهة عُبّاد القبور علماء المشركين الذين يقولون: هذا شرك ولكن لا يكفر من فعله؛ لكونه يؤدي الأركان الخمسة، فإذا كان الأنبياء يكفرون إن هم فعلوا ذلك؛ فكيف بغيرهم؟!.

وأن الذي يكفر به المسلم ليس هو عقيدة القلب خاصة، فإن هذا الذي ذكَّرهم الله لم يريدوا منه ﷺ تغيير العقيدة، بل إذا أطاع المسلم من أشار عليه بموافقتهم لأجل ماله أو بلده أو أهله مع كونه يعرف كفرهم ويبغضهم فهذا كافر إلا من أكره قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقد بيّن الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدَّق رسول الله ﷺ في شيء وكذّبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام، وكذلك إذا آمن ببعض القرآن وجحد بعضه، كمن أقر بالتوحيد وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد وجوب الزكاة، أو أقر بهذا كله، وجحد الصوم، أو أقر بهذا كله، وجحد الحج، ولما لم يَنْقَدْ أناسٌ في زمن النبي ﷺ للحج أنزل الله في حقهم: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٧].

ومن أقر بهذا كله ولم يؤمن بالبعث، واعتذر بأنه لم يشاهده كفر بالإجماع، وحلَّ دمه وماله كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

فإذا كان الله قد صرّح في كتابه أن من آمن ببعض وكفر ببعض؛ فهو الكافر حقًّا، وأنه يستحق ما ذكرت؛ زالت الشبهة.

ثالثًا: فعل الغلاة مع أوليائهم شبيه بفعل المشركين مع أصنامهم:

إن توجه الغلاة إلى الأولياء والصالحين بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة، والاستمداد، مدعين أنهم لا يعبدونهم، ولا يطلبون مهم إلا بسبب منزلتهم وقربهم من الله تعالى فهم يستشفعون بهم، ويتوسلون بهم، ويطلبون الله تعالى بواسطتهم هذا الاعتذار بعينه هو اعتذار المشركين الأولين عن

أصنامهم؛ حيث قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

ولا فرق بين السجود للأصنام والتمسح بها وإراقة الدماء، وذبح الذبائح لها، وبين دعاء الأولياء والصالحين ورجائهم والذلة والانكسار لهم، وطلب تفريج الكربات، وتحقيق الرغبات منهم؛ لأن في هذا طلبًا لغير الله تعالى ما لا يقدر عليه إلا الله، وهذا بعينه هو الشرك الذي لا يغفره الله ﷻ فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى كمن صرف جميع عباداته لغير الله تعالى، وهذا الصرف للعبادة لغير الله تعالى هو الذي كفّر الله به المشركين في الجاهلية؛ لأن أولئك المشركين لم ينكروا وجود الله تعالى ولم يدعوا مشاركة أصنامهم لله تعالى في الربوبية؛ بل غاية ما كفّر الله به المشركين هو ذلك التوجه والقصد للأصنام بالدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والذبح، والنذر، والاستشفاع رافضين توحيد الألوهية بقولهم: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

وهذا الخلط في التوحيد هو الذي فعله الغلاة من هذه الأمة؛ حيث قالوا: نحن نؤمن بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، المحيي، المميت، إلا أننا نتوجه لأولياء الله تعالى والصالحين من عباده بالدعاء والرجاء والاستعانة والاستغاثة؛ فَصَرْفُنا لهذه الشعائر التعبدية لأحباب الله المقربين منه لا يعد شركًا ولا يخرجنا ذلك من دائرة الإسلام، غاية ما في الأمر أننا جعلناهم شفعاء ووسائط بيننا وبين ربنا في طلباتنا لتحقيق آمالنا وقضاء حوائجنا.

رابعًا: المؤمن بالله، والرسول، والقرآن، والبعث، لا يصرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى:

إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فإن شهادة "لا إله إلا الله" تنهى عن نوع خطير من الفحشاء والمنكر، وهو الشرك وأن يتوجه الإنسان إلى غير الله تعالى بأي نوع من أنواع العبادة؛ كالدعاء، والنداء، والرجاء، والذبح، والنذر، والاستغاثة؛ لأن هذا شيء ينقض التوحيد والإسلام ويفسد الأعمال التي سبقت منه؛ لأن كلمة التوحيد وتوابعها من آثارها رفض كل شيء يخدش التوحيد ويؤثر في الإيمان، وينبغي على من عفّر جبينه وخرّ ساجدًا لله تعالى، وانحنى على كتاب الله تعالى يقرؤه ويتلوه آناء الليل وأطراف النهار، ويؤمن بالبعث، وأن الناس يموتون ويبعثون ويحاسبون يوم القيامة، ثم يصيرون إلى الجنة أو إلى النار، من كان يؤمن بذلك ينبغي أن يكون من آثاره: إيمانه القوي بالله تعالى وحده، وقوة الصلة بينه وبين الله تعالى، وعدم التوجه لغير الله تعالى بشيء من أنواع العبادة؛ لأن ذلك يناقض التوحيد، ويفسد الأعمال، ولا يتصور وجود شرك مع إيمان في قلب مؤمن؛ لأن "لا إله إلا الله" تحرق أنواع الشرك -العملي والاعتقادي والقولي- فمن قالها بحق وصدّقها بالعمل بمقتضاها؛ فهذا هو المؤمن الذي يرفض أن يصرف شيئًا من عباداته لغير الله تعالى، فآثار ذلك الإيمان

عدم التلبس بشيء من أنواع الشرك أو الإتيان بناقض من نواقض التوحيد، أما من رأيناه يقرأ القرآن ويصلي لله تعالى، ويصوم ويؤمن بالبعث، ثم وجدناه

يتوجه لغير الله تعالى بصرف شيء من أنواع العبادة؛ كالدعاء، والنداء، والاستغاثة، فنقول له: من المعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج؛ فكيف إذا جحدت شيئًا من هذه الأمور؟! أليس ذلك يعتبر شركًا؟! ولو عملت بكل ما جاء به الرسول ﷺ ثم إذا جحدت التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا تكون كافرًا؟! سبحان الله! ما أعجب هذا الجهل؟!.

ويقال له أيضًا: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويؤذنون ويصلون، فإن قال: إنهم يقولون: إن مسيلمة نبي، فقل: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلًا إلى رتبة النبي ﷺ كفر وحل ماله ودمه ولم تنفعه الشهادتان ولا الصلاة؛ فكيف بمن رفع وليًا أو نبيًا أو صحابيًا إلى مرتبة جبار السماوات والأرض، سبحان الله! ما أعظم شأنه!: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٩] ويقال له أيضًا: الذين حرقهم علي بن أبي طالب < بالنار كلهم يدّعون الإسلام وهم من أصحاب علي، وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في الأولياء والصالحين، فكيف أجمع الصحابة { على قتلهم وكفرهم؟ أتظن أن الصحابة يكفِّرون المسلمين؟ أم تظن أن الاعتقاد في الأولياء والصالحين لا يضر، والاعتقاد في علي < يُكفِّر؟!.

ويقال له أيضًا: الفاطميون أبناء عبيد القداح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمان بني العباس كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول ويدّعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة، فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين، فإذا كان الأولون لم يُكفَّروا إلا

أنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن وإنكار البعث وغير ذلك ؛ فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب، وهو باب "حكم المرتد" وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، ثم ذكروا أنواعًا كثيرة كل نوع يكفر ويحل دم الرجل وماله وعرضه، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه، أو كلمة يذكرها على سبيل المزاح واللعب، قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال ﷺ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)) ولقد كفر الله تعالى المنافقين بكلمة مع كونهم في زمن النبي ﷺ ويجاهدون معه ويصلون ويزكون ويحجون، وكذلك الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

فهؤلاء الذين صرح الله فيهم أنهم كفروا بعد إيمانهم وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزاح ؛ فتأمل هذه الشبهة، ثم تأمل جوابها فإنه من أنفع هذه الردود.

خامسًا: كيف يُتصور ممن صلى وصام لله خالصًا من قلبه: إشراك غيره معه في الذبح، والنذر، والدعاء، والرجاء، والاستغاثة، والاستعانة؟!

وهذا الأمر -كسابقه- يفيد أن من صرف لله تعالى عبادة من العبادات خالصة من قلبه لم تَشُبْهَا شائبة إشراك غير الله تعالى مع الله!.

من فعل ذلك ينبغي أن يكون توحيده لله تعالى خالصًا من قلبه ؛ لأن الإيمان الصحيح إذا استقر في قلب مؤمن يصلي لله تعالى ويصوم لا يتصور منه أن يعمد إلى مخلوق فقير عاجز بالذات من كل وجه ويصرف إليه شيئًا من أغلى العبادات وهو الدعاء والرجاء والذبح والنذر.

فالإخلاص لله تعالى في جميع العبادات هو أساس الدين وقوامه وروح العبادة الذي ينبغي، فإذا خُدش هذا الإخلاص، أو فُقد ؛ حبط العامل والعمل، كما قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وذكر العلامة ابن القيم # : أن هناك تجريدين لا بد منهما لتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ وهما :

أن تسقط الوسائط والوسائل بينك وبين الله تعالى، ولا تثبت وساطة إلا في وصول أمره ونهيه ورسالته إليك كما تسقط الوسائط بينك وبين الرسول ﷺ في الطاعة والاتباع، ثم قال : "وهذا التجريدان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله". انتهى كلامه.

الرد على الشبهة السابعة في تعلق الغلاة بالشرك

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	استعراض هذه الشبهة	٢٥٩
العنصر الثاني	:	معنى الإله والإلهية، وكون لا إله إلا الله مفتاح الجنة	٢٦٠
العنصر الثالث	:	شروط لا إله إلا الله، والجمع بين الأحاديث التي ظاهرها أن مجرد النطق بالشهادتين يكفي لدخول	٢٦٤

استعراض هذه الشبهة

أن النبي ﷺ أنكر على أسامة قتل من قال "لا إله إلا الله" وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، فمن قالها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل.

يقول الغلاة المدافعون عن الشرك في هذه الشبهة: أن من قال "لا إله إلا الله"؛ فقد صار مؤمنًا كامل الإيمان، وأصبح في حصن المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ولو ظهر منه ما ظهر، وليفعل ما يشاء بعد ذلك؛ لأن "لا إله إلا الله" تدرأ عنه كل حكم آخر، وتحميه من كل وصف مضاد، فلو وقف أمام قبر وسأل صاحبه واستنجد به لقضاء حاجة أو دفع مكروه أو استغاث به من عدوه، وخاف منه خوف السِّر، لو فعل ذلك لا يحكم عليه بالكفر، ولا يجوز وصف فعله ذلك بالشرك؛ لأنه يقول "لا إله إلا الله" فصرفه ليسير من تلك العبادة لغير الله تعالى من الأولياء والصالحين لا يخدش إيمانه ولا يؤثر في إسلامه، والدليل على ذلك أن أسامة بن زيد -الحب ابن الحب، { لما قتل رجلًا حين هوى عليه بالسيف فقال الرجل: "لا إله إلا الله"، ظن أسامة أن الرجل ما قالها إلا خوفًا من السيف، فقال له النبي ﷺ: ((هلا شققت عن قلبه)) منكرًا على أسامة قتله للرجل في تلك الحالة، كما استدلوا أيضًا بقول النبي ﷺ: ((أمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله))، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، فمن قالها لا يكفر، ولا يُحكم عليه بالشرك، ولا يُقتل، ولا يحل دمه وماله، ولو فعل ما فعل؛ فلماذا تنكرون على قائل "لا إله إلا الله" توجهه بالدعاء والرجاء والاستغاثة والاستعانة وطلب المدد من الأولياء والصالحين، وعباد الله المقربين؟!. هذه فلسفة الغلاة المدافعين عن الشرك في عرضهم لهذه الشبهة.

معنى الإله والإلهية، وكون "لا إله إلا الله" مفتاح الجنة

أولًا: معنى الإله والإلهية:

لقد اهتم علماء السلف -قديمًا وحديثًا- ببيان معنى "لا إله إلا الله"، وتوضيح المراد بالإله والإلهية، ومن ذلك ما ذكره الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ من أن معنى "لا إله إلا الله": "أي: لا معبود بحق إلا إله واحد، وهو الله وحده لا شريك له، والدليل: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فصح أن معنى الإله هو المعبود؛ ولهذا لما طلب النبي ﷺ من كفار قريش أن يقولوا: "لا إله إلا الله"؛ قالوا -مستنكرين-: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٥] ورد قوم هود # على نبيهم: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠] وهود إنما دعا قومه إلي "لا إله إلا الله" فهذا هو معنى "لا إله إلا الله" وهو عبادة الله وترك عبادة ما سواه وهو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، فتضمنت هذه الكلمة العظيمة أن ما سوى الله تعالى ليس بإله، وإن إلهية ما سوى الله تعالى من أبطل الباطل، وإثباتها من أظلم الظلم، فلا يستحق العبادة سواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره، فتضمنت نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له وحده لا شريك له، وهذا يستلزم الأمر باتخاذه إلهًا وحده، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلهًا وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلًا

يستفتي أو يطلب وجه الاستشهاد ممن ليس أهلًا لذلك، ويدع الراسخين في العلم أهل التقى والفتوى، فتقول له: هذا ليس بمفتٍ ولا عالم، المفتي فلان، والعالم فلان، فإن هذا أمر منه، ونهي. وقد دخل في الإلهية جميع أنواع العبادة الصادرة عن تأله القلب لله بالحب، والخضوع والانقياد له وحده لا شريك له، فيجب إفراد الله تعالى بها، كالدعاء، والخوف والمحبة، والتوكل، والإنابة، والتوبة، والذبح، والنذر، والسجود... وجميع أنواع العبادة؛ فيجب صرف جميع ذلك لله وحده لا شريك له، فمن صرف شيئًا مما لا يصلح إلا لله من العبادات لغير الله فهو مشرك، ولو نطق بلا إله إلا الله، إذ لم يعمل بما تقتضيه هذه الكلمة من التوحيد والإخلاص". انتهى.

فالإله كما قال ابن عباس } ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وشهادة أن "لا إله إلا الله" تقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأن لا إله إلا الله، كما قال الله ﷻ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] وينبغي أن يكون الناطق بها شاهدًا فيها؛ فقد قال الله ﷻ ما أوضح به أن الشاهد بالحق إذا لم يكن عالمًا بما شهد به فإنه غير بالغ من الصدق به مع من شهد من ذلك بما يعلمه في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦] واقتضى الإقرار بـ"لا إله إلا الله" أن تعلم أن كل ما فيه أمارة من أمارات الحدث والنقص؛ فإنه لا يكون إلهًا، فإذا قلت: "لا إله إلا الله"؛ فقد اشتمل نطقك هذا على أن ما سوى الله ليس بإله؛ فيلزمك إفراده سبحانه بذلك وحده، وجملة الفائدة في ذلك أن تعلم أن هذه الكلمة هي مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيتَ الإلهية وأثبتَّ الإيجاب لله ﷻ كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله، وقال الإمام القرطبي # في التفسير: "لا إله إلا هو: أي: لا معبود إلا هو"، وقال شيخ

الإسلام ابن تيمية # : "الإله: هو المعبود المطاع، وقولنا: "لا إله إلا الله" فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه: هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع".

وقال ابن القيم # : "الإله: هو الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا، وإنابة وإكرامًا، وتعظيمًا، وذلًا، وخضوعًا، وخوفًا، ورجاءً، وتوكلًا". وقال ابن رجب الحنبلي # : "الإله هو الذي يطاع فلا يُعصى؛ هيبة له، وإجلالًا، ومحب، وخوفًا، ورجاء، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه، ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية؛ كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: "لا إله إلا الله"، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك". انتهى كلامه.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: "وهذا كثير في كلام العلماء، وهو إجماع منهم أن الإله هو المعبود خلافًا لما يعتقده عباد القبور وأشباههم في معنى الإله: أنه الخالق أو القادر على الاختراع، أو نحو هذه العبارات، ويظنون أنهم إذا قالوها بهذا المعنى؛ فقد أتوا من التوحيد بالغاية القصوى ولو فعلوا ما فعلوا من عبادة غير الله، كدعاء الأموات، والاستغاثة بهم في الكربات، وسؤالهم قضاء الحاجات، والنذر لهم في الملمات، وسؤالهم الشفاعة عند رب الأرض والسموات... إلى غير ذلك من أنواع العبادات، وما شعروا أن إخوانهم من كفار العرب يشاركونهم في هذا الإقرار، ويعرفون أن الله هو الخالق القادر على

الاختراع، ويعبدونه بأنواع من العبادات، فَلْيَهْنَ أبو لهب وأبو جهل ومن تبعهما بحكم عباد القبور، وليهن أيضًا إخوانهم عباد سواع، ويغوث، ونسر؛ إذ جعل هؤلاء دينهم هو الإسلام المبرور".

ولو كان معنى "لا إله إلا الله" ما زعمه هؤلاء الجهال؛ لم يكن بين الرسول ﷺ وبينهم نزاع، بل كانوا يبادرون إلى إجابته، ويلبون دعوته؛ إذ يقول لهم: قولوا "لا إله إلا الله"، بمعنى أنه لا قادر على الاختراع إلا الله، فكانوا يقولون: سمعنا وأطعنا. قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]، لكن القوم أهل اللسان العربي؛ فعلموا أنها تهدم عليهم دعاء الأموات والأصنام من الأساس، وتكب بناء سؤال الشفاعة من غير الله وصرف الإلهية لغيره لأم الرأس، فقالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٢] ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] فتبًّا لمن كان أبو جهل ورأس الكفر من قريش وغيرهم أعلم منه بـ"لا إله إلا الله". انتهى بمعناه من (تيسير العزيز الحميد).

ثانيًا: "لا إله إلا الله مفتاح الجنة" ولكن!:

ما من شك في أن الجنة لا يدخلها إلا المسلم الذي سبق في إسلامه أن قال: "لا إله إلا الله" وهذه الكلمة هي مفتاح باب الجنة الذي يدلف منه المؤمن إلى رضوان الله تعالى والنعيم المقيم. إلا أن لهذا المفتاح أسنانًا كما أن لكل مفتاح من مفاتيح الدنيا أسنانًا، فإذا أردت أن تفتح بابًا من أبواب الدنيا بمفتاح ليس له أسنان> فلن ينفتح لك ذلك الباب، فكذلك مفتاح الجنة وهو: "لا إله إلا الله" إذا لم يأتِ أحد

بأسنانه لم ينفعه مجرد المفتاح، والمراد بأسنان هذا المفتاح هو الإيمان بهذه الكلمة بعد النطق بها، ومعرفة معناها، واعتقاده في القلب، والعمل بمقتضاها، والإتيان بلوازمها، والحذر من التلبس بناقض من نواقضها، فمع النطق بها واعتقاد معناها في القلب يأتي المؤمن بأركان الإسلام الأخرى وواجباته ومستحباته ومندوباته، فيأتي بكل ما أمر به مع قوله: لا إله إلا الله، ويبتعد عن جميع النواهي التي تنهى عنها "لا إله إلا الله".

شروط "لا إله إلا الله" والجمع بين الأحاديث التي ظاهرها أن مجرد النطق بالشهادتين يكفي لدخول الجنة

أولًا: شروط "لا إله إلا الله":

لا شك أن هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام، وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي التي جعلها إبراهيم -على نبينا و # - كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون، كلمة عظيمة يدخل بها الإنسان في الإسلام، ويخرج بها من دائرة الكفر إلى ساحة الإيمان، وليس المراد قولها باللسان مع الجهل بمعناها، فإن المنافقين يقولونها وهم تحت الكفار في الدرك الأسفل من النار، مع كونهم يصلون ويتصدقون، بل المراد قولها مع معرفتها بالقلب، ومحبتها ومحبة أهلها، وبغض من خالفها، ومعاداته.

ولكلمة: "لا إله إلا الله" أركان وشروط؛ فأركانها: اثنان نفي وإثبات، وحد النفي من الإثبات: "لا إله" أي: نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، وحد الإثبات:

"إلا الله"، أي: مثبتًا العبادة لله تعالى وحده لا شريك له في عبادته كما أنه لا شريك له في ملكه.

وأما شروطها فسبعة لا تصح هذه الكلمة، ولا تنفع قائلها إلا إذا استجمعت له تلك الشروط وهي:

١- العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا. وهذا ينافي الجهل. قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى أيضًا: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقال النبي ﷺ: ((مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)).

٢- اليقين المنافي للشك، أي: استيقان القلب بها قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه كما في "الصحيح": ((من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن "لا إله إلا الله" مستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة)).

٣- الإخلاص المنافي للرياء والشرك قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]، وقال ﷺ: ((أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال "لا إله إلا الله" خالصًا من قلبه أو نفسه)).

٤- الصدق المنافي للكذب. قال الله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وقال النبي ﷺ: ((ما من أحد يشهد: أن "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" صدقًا من قلبه إلا حرّمه الله على النار)). متفق عليه.

٥- المحبة المنافية للبغض، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال ﷺ: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ...)). الحديث متفق عليه.

٦- الانقياد المنافي للترك، أي: الانقياد لها ظاهرًا وباطنًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [القمان: ٢٢]، وقال النبي ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)).

٧- القبول المنافي للرد، فلا يرد شيئًا من لوازمها ومقتضياتها. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وقد جمع بعض العلم هذه الشروط السبعة في قوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ❖ محبة وانقياد والقبول لها

ثانيًا: الجمع بين الأحاديث التي ظاهرها أن مجرد النطق بالشهادتين يكفي لدخول الجنة:

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "وهذا التوحيد هو معنى قولك: "لا إله إلا الله" فإن الإله عندهم: هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور، سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرة، أو قبرًا، أو جنيًّا، لم يريدوا أن الإله هو الخالق الرازق المدبر؛ فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده -كما قدمت لك- وإنما يعنون بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ: "السيد" فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد وهي: "لا إله إلا الله"، والمراد من هذه الكلمة معناها، لا مجرد لفظها، والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة: هو إفراد الله

تعالى بالتعلق به، والكفر بما يعبد من دون الله، والبراءة منه؛ فإنه لما قال لهم قولوا: "لا إله إلا الله". قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها: "لا يخلق ولا يرزق ولا يدبر الأمر إلا الله"؛ فلا خير في رجلٍ جُهّال الكفار أعلم منه بمعنى: "لا إله إلا الله". انتهى كلامه.

فاستدلال الغلاة بظاهر الأحاديث التي فيها أن من قال: "لا إله إلا الله" دخل الجنة؛ كاستدلال الفسقة بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٣] عندما يؤنبهم أحد على ذنب وقعوا فيه، وكاستدلال أحدهم في القديم على إباحة الخمر قائلًا: إن الله تعالى قال في كتابه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون: ٤] ولم يقل "ويل للسكارى" ثم نظم هذا المعنى بقوله:

دع المساجد للعباد تسكنها ❖ وقم بنا إلى حانة الخمار يسقينا
لم يقل ربك ويل للأولى سكروا ❖ وإنما قال ويل للمصلينا

فالاستدلال بظاهر الأحاديث التي فيها أن مجرد النطق بالشهادة يكفي، معارض بما في كثير من الأحاديث الأخرى التي فيها أن المسلم لا يكفي أن ينطق بالشهادة؛ بل يجب عليه أن يعتقد معناها، ويعمل بمقتضاها، ويأتي بلوازمها، ويحذر من نواقضها ويستمر على ذلك حتى الموت.

تنبيه:

إن المسلم في بداية الإسلام كان يدخل في الإسلام بهذه الكلمة ولم تنزل الأوامر الشرعية الأخرى؛ كالجهاد، والحج، والزكاة... ثم يموت هذا المسلم، فتقول: هذا المسلم يدخل الجنة بقول: "لا إله إلا الله" لأنه لم يؤمر بغيرها، وهذا ما

حصل للتابعي الجليل الذي دخل في الإسلام، ونطق بهذه الشهادة، ثم دخل المعركة مجاهدًا فاستشهد في ذلك اليوم فقيل فيه: رجل دخل الجنة وما صلى وما صام لله قط.

وأخيرًا أذكر في نهاية الرد على هذه الشبهة ما ذكره الشيخ محمد بن عبد الوهاب # في رده على هذه الشبهة؛ حيث بين أن من قالها؛ وجب الكف عنه إلا إن تبيّن منه ما يناقض ذلك كدعاء الأولياء وقصدهم فيما هو من حق الله تعالى، فأما حديث أسامة فإنه قتل رجلًا ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعى الإسلام إلا خوفًا على دمه، وماله، وأن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه؛ حتى يتبين منه ما يخالف ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [النساء: ٩٤]. أي: فتثبتوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قُتل؛ لقوله تعالى: ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى، وكل من أظهر التوحيد والإسلام وجب الكف عنه إلا إن تبيّن منه ما يناقض ذلك، والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ قال: ((أقتلته بعدما قال "لا إله إلا الله"؟!)) وقال: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا "لا إله إلا الله")) هو الذي قال في الخوارج: ((أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)) مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلًا وتسبيحًا، حتى إن الصحابة } يحقرون صلاتهم مع صلاتهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة؛ فلم تنفعهم "لا إله إلا الله"، ولا كثرة العبادة ولا ادعاء الإسلام؛ لما ظهر منهم مخالفة الشريعة، وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات: ٦]، وكان الرجل كاذبًا عليهم.

فكل هذه النصوص تدل على أن مراد النبي ﷺ في هذه الأحاديث التي احتجوا بها وجوب الكف عمن قالها حتى يتبين منه مخالفتها". انتهى بمعناه.

من نواقض الإسلام: السحر

عناصر الدرس

العنصر الأول:	تعريف السحر: لغة، واصطلاحًا	٢٧١
العنصر الثاني:	حقيقة السحر، وحكم تعلمه	٢٧٢
العنصر الثالث:	أنواع السحر، وحدُّ الساحر	٢٧٧

تعريف السحر: لغة، واصطلاحًا

أولًا: المراد بالسحر في اللغة: هو إخراج الباطل في صورة الحق كما قال ابن فارس # وهو الخديعة، وقال الرازي # : "والسحر الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر، وقد سحره يسحره –بالفتح- سِحْرًا بالكسر، والساحر العالم" انتهى.

وسمي السحر سحرًا لخفاء سببه؛ ولأنه يفعل خفية، ومن معانيه: اللطف والدقة كما يأتي بمعنى الخداع والتخييلات قال الله تعالى: ﴿ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴾ [طه: ٦٦] وهو ما يحصل بمعاونة الشياطين. وقال الزمخشري # : "يقال أرض مسحورة إذا كانت لا تنبت، وعنز مسحورة إذا كانت قليلة اللبن، وسحرت الرجل عن كذا صرفته عنه". انتهى.

فالسحر عبارة عما يخفى ويلطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: ((إن من البيان لسحرًا)) لأن فيه سرًّا بلاغيًّا يأخذ بالقلوب ويفعل بها كما يفعل السحر، وسمي السَّحور سحورًا؛ لأنه يقع خفيًّا آخر الليل.

ثانيًا: تعريف السحر اصطلاحًا: فهو عزائم ورقى وعُقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض، ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه. قال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ونقل الحافظ في (الفتح) عن القرطبي # قول القرطبي: "السحر أحيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس، ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته" انتهى كلامه.

حقيقة السحر، وحكم تعلمه

فذهب قوم إلى أنه مجرد تخييل لا حقيقة له ؛ لقول الله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] ولقوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]، وذهب آخرون إلى أن السحر حق وله حقيقة، ويكون بالقول والفعل، ويؤلم ويمرض، ويفرِّق بين المرء وزوجه كما ورد ذلك في القرآن الكريم، ولعل هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف أنواع السحر فإن منه ما هو تخييل، ومنه ما هو حقيقة، والنوع الذي له حقيقة هو الذي حصل للرسول ﷺ، وقد اختلف القائلون بأن للسحر حقيقة اختلفوا هل للسحر تأثير أم لا؟ على قولين:

أولهما: أن السحر ليس له تأثير في نفسه أصلًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والثاني: أن السحر له تأثير، وأصحاب هذا القول انقسموا إلى طائفتين ؛ طائفة تقول بالتأثير مطلقًا، وطائفة تقيده بالتفرقة بين المرء وزوجه.

واعلم أن علماء التفسير تكلموا على السحر عند هذه الآية من سورة البقرة وهي قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ

لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ومن هذه الآية -ملخصًا- أن سليمان # كان قد تتبع ما في أيدي الشياطين من السحر وذلك بحكم سيطرته على الجن والشياطين كما ملّكه الله ذلك فدفنه تحت كرسيه، وفي بيت خزانته، ولا يدنو منه شيطان مارد إلا احترق، وبعد أن مات سليمان أوحت الشياطين إلى بعض الإنس أن سليمان لم يكن نبيًّا ولكن كان ساحرًا، وأخبرتهم بموضع السحر المدفون فاستخرجه الإنس من بني إسرائيل، وعلموا به وتناقلوا بينهم أن سليمان كان ساحرًا، ولما بعث محمد ﷺ وانتقل إلى المدينة وكان اليهود بها، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عليه تبرئة سليمان # مما ادعي عليه من السحر، وبيّن أمر اليهود معه، وبراءته مما ألصقوا به من السحر، والكفر، وأن هذا السحر كان من تعليم الشياطين، ومن تعليم هاروت وماروت لمن اختار لنفسه الكفر. انتهى.

يقول الشيخ حافظ الحكمي # مبينًا حقيقة السحر: "والسحر حق؛ يعني متحقق وقوعه ووجوده، ولو لم يكن موجودًا حقيقة لم ترد النواهي عنه في الشرع والوعيد على فاعله والعقوبات الدينية الأخروية على متعاطيه والاستعاذة منه أمرًا وخبرًا، وقد أخبر الله تعالى أنه كان موجودًا في زمن فرعون، وأنه أراد أن يعارض به معجزات نبي الله موسى # في العصا بعد أن رماه هو وقومه به بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩] إلى قوله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] وقال تعالى عن السحرة: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦] وقال تعالى فيهم: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ

﴿خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٦ - ٦٩] يقال: إنهم كانوا سبعين ألفًا مع كل واحد منهم حبل وعصا فأخذوا بأبصار الناس بسحرهم وألقوا تلك الحبال والعِصي فرآها الناس حيات عظامًا ضخامًا، وذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ قال الله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ يعني العصا ﴿تَلْقَفْ﴾ تبتلع ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾ أي: السحرة، أي ما اختلقوا وائتفكوا من الزور والتخييل، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ وهوّن الله تعالى أمرهم على نبيه موسى # بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ مكره وخداعه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩]، وقد أخبر الله تعالى عن قوم صالح وكانوا قبل إبراهيم # أنهم قالوا لنبيهم # : ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] وقالت قريش لنبينا محمد ﷺ كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم في غير موضع بل ذكر الله ﷻ أن ذلك القول تداوله كل الكفار لرسلهم فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣] الآية، وقال سبحانه في ذم اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم

بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١، ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٤]. والنفاثات هن السواحر يعقدن وينفثن.

والمقصود أنه ثبت بهذه النصوص وغيرها أن السحر حقيقة في وجوده، وله تأثيره فمنه ما يُمرض، ومنه ما يقتل، ومنه ما يأخذ بالعقول، ومنه ما يأخذ بالأبصار، ومنه ما يفرِّق بين المرء وزوجه، لكن تأثيره ذلك إنما هو بما قدره القدير ﷻ؛ أي بما قضاه وقدره في الكون وشاءه، لا أنه أمر به في الشرعة التي أرسل الله بها رسله وأنزل بها كتبه المطهرة، من ذلك وغيره -كما تقدم- أن القضاء والأمر والحكم والإرادة كل منها ينقسم على كوني وشرعي، فالكوني يشمل ما يرضاه الله ويحبه ويحبه شرعًا، وما لا يرضاه في الشرع ولا يحبه، والشرعي يختص بمرضاته ﷻ ومحابه ولهذا قال تعالى في الشرعي: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزُّمَر: ٧] فأخبر ﷻ أنه يريد بعباده اليسر وأنه يرضى لهم الشكر ولا يرضى لهم الكفر، مع كون كل من العسر واليسر والشكر واقعًا بقضاء الله وقدره، والمقصود أن السحر ليس بمؤثر لذاته نفعًا ولا ضرًّا وإنما يؤثر بقضاء الله تعالى وقدره وخلقه وتكوينه؛ لأنه تعالى خالق الخير والشر، والسحر من الشر، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهو القضاء الكوني القدري، فإن الله تعالى لم يأذن بذلك شرعًا، وقد ثبت في "الصحيحين" من طرق عن عائشة > قالت: ((سحر رسول الله ﷺ حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ﷻ ودعاه ثم

قال: أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيه فيه؟ قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ثم قال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زُريق، قال: فبماذا؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلعة ذكر. قال: فأين؟ قال: في بئر ذي أروان، قال: فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، لكأن نخلها رءوس الشياطين. قلت: يا رسول الله: أفأخرجته؟ قال: لا، أما أنا فقد عافاني الله ﷻ وشفاني، وخشيت أن أثور على النار منه شرًّا، وأمر بها فدفنت)).

قال الإمام النووي # في (شرح مسلم): "قال المازري # مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأنه له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها، وقد ذكره الله تعالى في كتابه، وذكر أنه مما يتعلم، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به، وأنه يفرق بين المرء وزوجه، وهذا كله لا يمكن فيما حقيقة له، وهذا الحديث أيضًا يصرح بإثباته، وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه فإحالة كونه من الحقائق محال، ولا يستنكر في العقل أن الله ﷻ يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر. قلت: -والكلام للحكمي- قول المازري: خلافاً لمن أنكر ذلك. قال ابن هبيرة # أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال: لا حقيقة له عنده، ثم ذكر الاختلاف في حكم الساحر، وقال القرطبي #: وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الأسفراييني حيث قالوا إنه تمويه وتخييل. انتهى كلامه.

فثبت بهذا أن السحر له حقيقة وتأثير في المسحور ولا يمكن إنكاره، والذي ينكره نظر إلى نوع من أنواعه وهو ما يأخذ بالأبصار كالذي فعله سحرة فرعون عندما ألقوا حبالهم في قصة فرعون مع موسى # .

أنواع السحر، وحدُّ الساحر

أنواع السحر:

اعلم أن السحر أنواع كثرة، ولكثرة وقوعها وخفائها على الناس فقد اعتقد كثير من العوام أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء، وعدُّوها من كرامات الأولياء، وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها، ورُجي منهم النفع والضر، والحفظ والكلاءة والنصر في الحياة والممات، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف التام المطلق في الملك.

من أجل ذلك كان من الواجب ذكر شيء من أنواع السحر حتى يتقيها المسلم ويعلم أن المزاول لها مزاول للسحر.

فمن أنواع السحر الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به يكفر، وذلك أن المرأة تذهب إلى الساحر ليعمل لها أمورًا ليعطف قلب زوجها على حبها، وأن تكون محظية عنده، ومن أنواع السحر العيافة، والطرق، والطيرة، فعن قطن بن قبيصة، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: ((إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)). قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، والجبت -قال الحسن-: رنة الشيطان. إسناده جيد رواه الإمام أحمد، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في "صحيحه" المسند منه.

إذن فالعيافة وهي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب ويوجد في أشعارهم من السحر، وكذلك الطرق: وهو الخط الذي يخط في الأرض، وقيل: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء من أنواع السحر أيضًا.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : قوله: ((من الجبت)) أي من أعمال السحر. قال القاضي: والجبت في الأصل "الجبس" الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر، وقال الطيبي: "من" فيه إما ابتدائية أو تبعيضية فعلى الأولى المعنى: الطيرة ناشئة من السحر، وعلى الثاني المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة، أو من جملة عبادة غير الله تعالى، أي: الشرك يؤيده قوله في الحديث الآتي: ((الطيرة شرك))، وفي الحديث دليل على تحريم التنجيم؛ لأنه إذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النجامة من الجبت، فكيف بالنجامة؟!" انتهى كلامه.

وعن ابن عباس { قال: قال رسول الله ﷺ: ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد)) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ في شرحه للحديث: قوله: ((فقد اقتبس شعبة من السحر)) أي المعلوم تحريمه، قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة. قوله: ((زاد ما زاد)) يعني كلما زاد من علم النجوم زاد له من الإثم مثل إثم الساحر، أو زاد اقتباس شعب السحر ما زاد

اقتباس علم النجوم. قلت: -والكلام للشيخ سليمان- والقولان متلازمان؛ لأن زيادة الإثم فرع عن زيادة السحر، وذلك لأنه تحكم على الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فعلم أن تأثير النجوم باطل محرم، وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر -قاله ابن رجب-. انتهى كلامه.

وللنسائي من حديث أبي هريرة > أن النبي ﷺ قال: ((من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه)).

وذلك أن الساحر إذا أراد عمل السحر عقد الخيوط ونفث على عقده حتى ينعقد ما يريده من السحر، ولهذا أمر الله تعالى بالاستعاذة من شره في قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ [الفلق: ٥] يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك.

رابعًا: حدُّ الساحر

لما كان السحر من أنواع الشرك وناقضًا من نواقض التوحيد فإن من يشتغل به فحكمه عند جمهور العلماء أنه يُحدُّ بضربة بالسيف، وذهب بعضهم إلى أنه يقتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : "حد الساحر ضربة بالسيف بهذا الحديث الذي أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة فقالوا: يقتل الساحر، وروي ذلك عن عمر وعثمان، وابن عمرو وحفصة، وجندب بن عبد الله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبد العزيز، ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يلغي الكفر، وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد،

والأُولى أولى للحديث، ولأثر عمر الذي ذكره المصنف وعمل به الناس في خلافته من غير نكير فكان إجماعًا" انتهى.

والدليل على أن الإجماع انعقد على أن حد الساحر ضربة بالسيف ما رواه الترمذي عن جندب مرفوعًا: "حد الساحر ضربة بالسيف" ثم قال الترمذي: الصحيح أنه موقوف، كما رواه الدار قطني والحاكم وقال: صحيح غريب، وفي (صحيح البخاري) عن بجالة بن عبدة قال: "كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر".

وروى الإمام مالك في (الموطأ): أن حفصة > أمرت بقتل جارية لها سحرتها.

قال الإمام أحمد: "وصح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يريد عمر، وحفصة، وجندبًا { والله أعلم.

خامسًا: حكم تعلم السحر:

وبعد أن بيّنا حد الساحر بقي أمر يتعلق بالسحر والساحر، وهو حكم تعلم السحر، وبيان ذلك أن الاتفاق حاصل على حرمة تعلمه، قال ابن قدامة: "تعلم السحر وتعليمه حرام لا نعلم فيه خلافًا بين أهل العلم، فالأئمة: أبو حنيفة ومالك وأحمد على أنه يكفر من تعلم السحر واستعمله، وقد فصّل بعض العلماء هذا القول فقال بعض أصحاب الإمام أحمد: يكفر الساحر بتعلمه وفعله، سواء اعتقد تحريمه أو إباحته.

وقال ابن كثير عن قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف:٥٥]، وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر،

واستشهد له بأثر عبد الله بن مسعود > قال: ((من أتى عرافًا أو ساحرًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ)).

وقال صديق حسن القنوجي: "لا شك أن من تعلم السحر بعد إسلامه كان بفعل السحر كافرًا مرتدًّا" انتهى.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # : "وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه. وروى عبد الرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: "من تعلم شيئًا من السحر قليلًا كان أو كثيرًا كان آخر عهده من الله" وهذا مرسل. انتهى.

إذن لما كان السحر من أنواع الشرك إذا لا يتأتى السحر بدونه كان ناقضًا من نواقض التوحيد العشرة.

اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم.

من نواقض الإسلام: عدم تكفير المشركين، أو الشك في كفرهم

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول :	الآيات والأحاديث الدالة على هذا الناقض	٢٨٥
العنــــصر الثـــــاني :	الكلام على حكم من لم يكفر الكافر، أو شك في كفره	٢٩١
العنــــصر الثالـــــث :	أنواع الموالاة التي تقع مع أهل الكفر، والفرق بين الموالاة المكفرة وغيرها	٣٠٢

الآيات والأحاديث الدالة على هذا الناقض

مما لاشك فيه أن محبة المؤمن لأخيه المؤمن ونصرته ومؤازرته ومعاونته ومؤاساته من الإيمان، بل يزيد التأكيد على تلك المحبة حتى تكون شرطًا في الإيمان كما قال المصطفى ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)) وهكذا كان الرعيل الأول من أصحاب الرسول ﷺ يحبون بعضهم ويرحم بعضهم بعضًا، يظهرون الشدة على الكافرين وينشرون الألفة والمحبة والتوادد فيما بينهم، قال تعالى في وصفهم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولما هاجر أصحاب رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ظهرت ثمار هذه المحبة وشاعت في جنبات المدينة، وبان للناس أن ذلك الإيثار الذي قدمه الأنصار للمهاجرين عندما وطئت أقدامهم ثرى طَيْبَة الطاهر لم يكن إلا نتيجة منطقية لتلك المحبة والموالاة التي جاء بها الإسلام وركّز عليها رسول الهدى ﷺ في دعوته، وربى عليها أصحابه { إذا تقرر ذلك فنقول: إن مظاهرة المشركين وموالاتهم وموافقتهم على دينهم ومعاونتهم على المسلمين يعده العلماء ناقضًا من نواقض التوحيد؛ لأن انشراح الصدر لمن أشرك بالله وموالاته ومعاونته على المسلمين ومحبته يهدم التوحيد وينقضه قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٦- ١٠٧].

لقد حذر الله تعالى نبيه ﷺ من موالاة المشركين الكفرة والركون إليهم ونصرتهم ومعاونتهم قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقد كثرت

الخطابات القرآنية المحذرة من موالاة المشركين ومعاونتهم على المسلمين. فمن ذلك قول الله تبارك وتعالى:

١- ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قال الإمام ابن كثير # في تفسير هذه الآية: "نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ثم توعد على ذلك فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي: ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله ... ثم قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه" انتهى كلامه # .

٢- قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩- ١٥٠] يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسير هذه الآية: "وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر وهم قصدهم ردهم إلى الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران، ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم ففيه إخبار لهم بذلك وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور، وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وَليًّا وناصرًا من دون كل أحد فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من

الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى" انتهى كلامه.

٣- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسير هذه الآية: "يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بيّن لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة أن لا يتخذوهم أولياء فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يدًا على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء فإنهم الأعداء على الحقيقة، ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئًا على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]؛ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يكون العبد منهم" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي #: "ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن اليهود والنصارى بعضهم أولياء بعض ولكن بيّن في مواضع أُخر أن ولاية بعضهم لبعض زائفة ليست خالصة؛ لأنها لا تستند على أساس صحيح وهو دين الإسلام، فبيّن أن العداوة والبغضاء بين النصارى دائمة إلى يوم القيامة بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤] وبيّن مثل ذلك في اليهود حيث قال فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ

﴿ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [المائدة: ٦٤].

وذكر في هذه الآية الكريمة أن من تولى اليهود والنصارى من المسلمين فإنه يكون منهم بتوليه إياهم، وبين في موضع آخر أن توليهم موجب لسخط الله والخلود في عذابه، وأن متوليهم لو كان مؤمنًا ما تولاهم وهو قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠- ٨١] ونهى في موضع آخر عن توليهم مبينًا سبب التنفير منه، وهو قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وبيّن في موضع آخر أن محل ذلك فيما إذا لم تكن الموالاة بسبب خوف وتقيّة، وإن كانت بسبب ذلك فصاحبها معذور وهو قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨] فهذه الآية الكريمة فيها بيان لكل الآيات القاضية بمنع موالاة الكفار مطلقًا وإيضاح أن محل ذلك في حالة الاختيار، وأما عند الخوف والتقيّة فيرخص في موالاتهم بقدر المداراة التي يكتفي بها شرهم، ويشترط في ذلك سلامة الباطن من تلك الموالاة:

ومن يأتي الأمور على اضطرار ❖ فليس كمثل آتيها اختيارًا

ويفهم من ظواهر هذه الآيات أن من تولى الكفار عمدًا اختيارًا رغبة فيهم أنه كافر مثلهم" انتهى كلامه . #

٤- قولـه تعـالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسير هذه الآية: "أي: لا تميلوا إلى ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ فإنكم إن ملتم إليهم وافقتموهم على ظلمهم أو رضيتم ما هم عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعونكم من عذاب الله ولا يُحصِّلون لكم شيئًا من ثواب الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: لا يُرفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم، وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة أنفسهم؟!. نسأل الله العافية من الظلم" انتهى كلامه # .

٥- قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

يقول الإمام ابن كثير # في تفسير هذه الآية: "أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وقد قال سعيد بن عبد

العزيز وغيره: أنزلت هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ﴾ إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر بن الخطاب > حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة } : "ولو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته" وقيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر، ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ﴾ في الصدّيق همّ يومئذٍ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذٍ ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ في عمر قتل قريبًا له يومئذ أيضًا، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ، فالله أعلم" انتهى كلامه.

٦- قولـه تعـالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

والآيات في هذا المعنى كثيرة وقد ألّف الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # رسالة في هذا الناقض سماها (حكم موالاة أهل الإشراك) سرد فيها كثيرًا من الآيات والأحاديث المحذرة من موالاة الكفار وموادتهم.

يقول الدكتور حسن العواجي -حفظه الله-: "وأكثر ما تكلم العلماء عن هذه المسألة عن بيان قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حيث يذكرون أنها نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة وأنه لما عزم النبي ﷺ على غزو مكة كتب بخبره إلى أهل مكة كتابًا وأعطاه امرأة سافرت به إلى مكة، وذلك لينال عند قريش يدًا يحمي بها أهله وماله فأخبر الله نبيه بذلك فأرسل في أثر المرأة رجالًا من أصحابه أحدهم علي > وحدد لهم مكان وجود المرأة فلما وصلوا إليها هددوها حتى

أخرجت الكتاب ثم أتوا إلى النبي ﷺ فدعا حاطبًا فقال له: ما هذا؟ فأخبره أنه لم يكفر ولم يرغب عن الإسلام، وإنما أراد حماية أهله وماله فصدقه النبي ﷺ فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ...﴾ الآية. انتهى كلامه.

الكلام على حكم من لم يكفر الكافر، أو شك في كفره

من نواقض التوحيد: عدم تكفير المشركين أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذهبهم:

أولًا: الآيات الدالة على هذا الناقض.

ثانيًا: الأحاديث الدالة على هذا الناقض.

ثالثًا: مسألة تكفير من لم يكفر الكافر.

رابعًا: الكلام على حكم من شك في كفر الكافر.

قلب المؤمن لا يتسع لمحبة المؤمنين ومحبة الكافرين، بل إن قلب المؤمن ينبغي أن يمتلئ بحب الله تعالى وحب رسوله ﷺ ومحبة إخوانه المؤمنين والميل إليهم ومؤازرتهم وموالاتهم وتصحيح مذهبهم والدفاع عنه ومشاركتهم والتعاون معهم على البر والتقوى لما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

إذا تقرر ذلك، سنتناول ناقضًا جديدًا ذا صلة قريبة بالناقض السابق ألا وهو: تكفير المشركين أو الشك في كفرهم أو تصحيح مذهبهم، فكل من لم يؤمن بأن

المشركين الذين يحادون الله ورسوله، ويكفرون بالله، ويطعنون في رسالة نبينا محمد ﷺ أنهم كفار، من لم يؤمن بذلك فهو كافر مثلهم، أو شك في ذلك بأن شك في كفر الكافر الظاهر المعاند للحق، أو شك في أن المشرك الذي يظهر الشرك البواح أنه مشرك فهذا يعد مشركًا، ويعتبر قد نقض توحيده وإيمانه وخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الشرك والكفر؛ لأن المنافقين الذين كانوا يوافقون المسلمين في النطق بالشهادتين، ويظهرون بعض شعائر الإسلام لم ينفعهم ذلك؛ لأن ميلهم الحقيقي وموالاتهم التامة إنما كانت للمشركين.

حكم القرآن الكريم عليهم بالكفر والخروج من دائرة الإسلام في آيات، منها: قول الله -تبارك وتعالى-: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥] وجب على كل مسلم عرف ذلك أن يحكم عليهم بهذا الحكم الذي حكم الله به عليهم وصرحت به الآيات الكريمة، وأحاديث السنة القويمة، فمن رفض هذا الحكم، ولم يكفر الكافر أو تسلل إلى ذهنه الشك في كفر الكافر والمشرك أصبح هو مشركًا، ونقض توحيده وإيمانه، وأصبح في دائرة المشركين والكافرين.

أولًا: الآيات الدالة على هذا الناقض:

إذا ظهر من المسلم شرك بالله أو جحود لأمر ثابت في الكتاب أو السن وتحققت شروط التكفير وانتفت موانعه حكم بكفره وخروجه من دائرة الإسلام وارتداده عن الدين -والعياذ بالله- فيستتاب فإن تاب وإلا حكم بقتله ووجب على الحاكم المسلم تنفيذ ذلك الحكم، أما إن كان كفر ذلك الرجل غير مخرج من الملة أطلقنا عليه ما أطلقه الشرع من الكفر أو الفسق أو نحو ذلك من الاعتقاد بأنه باق على

الإسلام. والذي يهمنا هو: إذا أظهر العبد القول أو الفعل الذي يحكم عليه بموجبه بالكفر هل يجب علينا أن نحكم عليه بالكفر؟ وما موقفنا من ذلك؟.

فالآيات القرآنية المحذرة من موالاة الكفار والركون إليهم، والداعية إلى مباعدتهم والبراءة منهم قاضية بضرورة وأهمية معرفة الكافر والحكم عليه بما آل إليه من الكفر.

فمن الآيات الدالة على ذلك قول الله - تبارك وتعالى -:

١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] فهذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين من اتخاذ المشركين أعداء الله أولياء، وهذا من أعظم الدواعي لبيان حال الكافر لاتخاذه عدواً والحذر منه وعدم موالاته.

٢- ومنها، قوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣].

يقول الإمام ابن كثير # في تفسير هذه الآية: "أمر الله تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن استحبوا - أي: اختاروا - الكفر على الإيمان وتوعد على ذلك". انتهى كلامه رفع مقامه.

٣- ومنها، قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسير هذه الآية: "أي: لا يجتمع هذا وهذا فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة إلا كان عاملًا على مقتضى الإيمان ولوازمه من محبة من قام بالإيمان وموالاته وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه، وهذا هو الإيمان -على الحقيقة- الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان، أي: رسمه وثبته وغرسه غرسًا لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك، وهم الذين قواهم الله بروح منه، أي بوحيه ومعونته ومدده الإلهي وإحسانه الرباني، أما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر وهو مع ذلك مُوَادّ لأعداء الله محب لمن ترك الإيمان وراء ظهره فإن هذا إيمان زعمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه فمجرد الدعوى لا تغير شيئًا ولا يصدق صاحبها". انتهى كلامه.

٤- ومنها، قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

يقول الإمام ابن كثير # في تفسيره هذه الآية: "يقول تعالى لنبيه ﷺ وإن كذبك هؤلاء المشركين فتبرأ منهم ومن عملهم فقل: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١، ٢] إلى آخرها، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤] الآية". انتهى كلامه.

٥- ومنها، قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: "هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون وهي آمرة بالإخلاص فيه فقوله: {قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ} يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكن المواجهون بهذا الخطاب كفار قريش". انتهى كلامه.

ثانيًا: الأحاديث الدالة على هذا الناقض:

وأما الأدلة من السنة فكثيرة، منها:

أ- قوله ﷺ: ((من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله)) رواه أبو داود في سننه، والحاكم في (المستدرك) و حسنه الألباني في (صحيح الجامع).

ب- وفي رواية: ((لا تساكنوا المشركين ولا تجامعوهم، فمن ساكنهم أو جامعهم فليس منا)).

ج- وقوله ﷺ: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين)) رواه أبو داود في سننه، والترمذي في سننه، وصححه الألباني في (صحيح الجامع).

د- وقوله ﷺ: ((لا يقبل الله من مشرك أشرك بعد ما أسلم عملًا حتى يفارق المشركين إلى المسلمين)) رواه ابن ماجه، ومسند الإمام أحمد.

هـ- وقوله ﷺ: ((لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه)) رواه مسلم.

يقول الدكتور حسن العواجي معلقًا على هذه الأحاديث: "فدلت الآيات الماضية وما بعدها من الأحاديث على لزوم مباعدة الكفار، والبراء منهم، ومقاطعتهم، ولا شك أن هذا يدعونا إلى تبين معرفة الكافر، واستيضاح حاله ليحكم عليه

بالكفر الذي يمكن بمعرفته أن تتم المباعدة، ولهذا فإنه يوجد في كثير من كلام أهل العلم تكفير الكافر، وتكفير من لم يكفره؛ بل تكفير من شك في كفره". انتهى كلامه.

ثالثًا: مسألة تكفير من لم يكفر الكافر:

ذكر كثير من العلماء في كلامهم حول كفر الكافر مسألة مهمة وهي من لم يحكم على الكافر بالكفر هل يكون كافرًا أم لا؟

فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه كافر، حتى أصبحت هذه المسألة أصلًا من أصول أهل السنة والجماعة، فقد ذكر الإمام الصابوني # في أول رسالته (عقيدة السلف وأصحاب الحديث).. أنه طُلِبَ منه أن يكتب رسالة تحوي أصول الدين التي مضى عليها السلف والعلماء ودعوا إليها ونهوا عما يضادها ووالوا في اتباعها، وكفَّروا من اعتقد غيرها، فبين # أن أهل السنة يكفرون من لم يعتقد أصول عقيدة السلف، واعتقد غيرها مما يضادها.

وهذا القاضي عياض # نقل الإجماع على كفر من لم يكفر الكافر، وذلك عند كلامه حول تكفير من صوب أقوال المجتهدين في أصول الدين حيث يقول: "وقائل هذا كله كافر بالإجماع على كفر من لم يكفر أحدًا من النصارى واليهود، وكل من فارق دين المسلمين أو وقف في تكفيرهم أو شك". انتهى كلامه.

ثم ذكر # أن العلماء أجمعوا على كفر الطائفة التي تدعي الإلهية في علي > وأن المخالف في تكفيرهم كافر.

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية # يقول في حكم سب الصحابة: "أما من اقترن بسبه دعوى أن عليًّا إله أو أنه كان هو النبي، وإنما غلط جبريل في الرسالة فهذا لا شك في كفره؛ بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره". انتهى كلامه.

يقول الدكتور حسن العواجي: "وبهذا يتضح لنا أن السلف كانوا يفهمون أن الآيات والأحاديث الدالة على مباعدة الكفار والبراء منهم دالة على أهمية تكفير الكافر، وإن لم تكن مصرحة به، وذلك لأن ما دلت عليه من المباعدة والمفاصلة لا يحصل إلا بعد الحكم على الكافر بالكفر ومعرفة حاله، وإلا كيف تعادي وتبغض من لم تعرف كفره، ونفاقه؟.

فمسألة الحكم بتكفير الكافر مبنية على أصل كبير وهو أن الله تعالى عقد الأخوة والموالاة والمحبة بين المؤمنين كلهم، ونهى عن موالاة الكافرين كلهم ممن ثبت في الكتاب والسنة الحكم بكفرهم.

وهذا الأصل متفق عليه بين المسلمين، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة مشهورة فكل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية فإنه تجب محبته وموالاته ونصرته، وكل من كان بخلاف ذلك فإنه يجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة، وذلك على قدر ما عنده من مجانبة الحق، فالولاء والبراء تابع للحب والبغض، والحب والبغض هو الأصل فإن أصل الإيمان أن نحب في الله أنبياءه وأتباعهم، وأن نبغض في الله من عاداه، وعادى رسله، وعلى هذا فإن كل من حكم الشرع بتكفيره فإنه يجب تكفيره، ومن لم يكفر من كفره الله ورسوله فهو كافر مكذب لله ورسوله، وذلك إذا ثبت عنده كفره بدليل شرعي". انتهى كلامه.

إذن يتضح بهذا أن جمهور العلماء يؤكدون على أن من صحح مذهب الكفار ووالاهم وركن إليهم، وتوقف في تكفيرهم أنه يحكم عليه بالكفر؛ لأن من كان هذا شأنه لا بد أن الإيمان لم يلامس شغاف قلبه، الإيمان الذي لا يتم إلا بالولاء والبراء أي: موالاة أهل الإيمان ومحبتهم وتصحيح مذهبهم، والبراءة من أعدائهم أهل الكفر والعصيان وبغضهم في الله ومناصبتهم العداء، من أجل كفرهم، وكره مذهبهم ورفضه ومن ثم الحكم عليهم بالكفر، من كان هذا شأنه لا يشك عاقل في جهله وفسقه بل في كفره.

رابعًا: الكلام على حكم من شك في كفر الكافر:

وأما كلام أهل العلم في حكم من شك في كفر الكافر فكثير جدًّا أيضًا:

ومن ذلك ما ذكره البغدادي في (أصول الدين) حيث يقول: "وأما الشك في كفر أهل الأهواء فإن شك في أن قولهم هل هو فاسد أم لا؟ فهو كافر وإن علم أن قولهم بدعة وضلال، وشك في كونه كفرًا، فبين أصحابنا أن في تكفير هذا الشاك خلافًا، وقد قال أكثر المعتزلة بتكفير الشاك في كفر مخالفيهم، ونحن بتكفير الشاك في كفرهم أولى". انتهى كلامه.

ونحن إذا وقفنا عند قول البغدادي هذا نجد فيه ما يوافق مذهب السلف وما يخالفه.

يقول الدكتور حسن العواجي: "فأما قوله بتكفير من شك في أن قول أهل الأهواء فاسد فهو حق، وأما قوله بالاختلاف في تكفير من علم أن قولهم بدعة وضلال وشك في كونه كفرًا فهو خلاف مذهب السلف، فإنهم يبدعون ويضللون من ثبت أن قوله بدعة أو ضلال، ولا يكفرون إلا من ثبت كفره، وأما حُكم

البغدادي بتكفير الشاك في كفر المعتزلة في مقابل تكفيرهم لمن شك في كفر مخالفهم من أهل السنة وغيرهم فإنه خطأ؛ لأن السلف لا يكفرون أهل الأهواء لتكفيرهم إياهم، وإنما يكفرونهم إذا ثبت لديهم كفرهم". انتهى كلامه.

قلت: وهذا الذي ذكره الدكتور حسن، هو الصحيح وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو أصل من أصول مذهبهم؛ لأن أهل الأهواء يحكمون في غالب الأحيان على مخالفيهم بمحض الهوى والعصبية، أما السلف - رحمهم الله- فإنهم ضبطوا قواعد مذهبهم بالكتاب والسنة، وكانوا في حكمهم على مخالفيهم من أهل الأهواء والبدع متقيدين بالدليل من الكتاب والسنة، ولم يعطوا فرصة للعصبية أو الهوى للنيل من خصومهم، وهو منهج في غاية العدل، انطلاقًا من قول الله تعالى ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]. فإذا أخطأ أهل الأهواء -بحكم منهجهم- فأصدروا الحكم بالتكفير على من خالفهم لم يجز لأهل الحق -وهم السلف- أن يفعلوا فعلهم فيحكموا على من حكم عليهم بالكفر شنآنًا وبعضًا -يحكموا- عليه بالكفر.

وقد تقدم معنا كلام القاضي عياض # ومنه قوله -مبينًا انعقاد الإجماع من أهل العلم على كفر من لم يكفر الكافر يقول-: "وقائل هذا كله كافر بالإجماع على كفر من لم يكفر أحدًا من النصارى واليهود، وكل من فارق دين المسلمين أو وقف في تكفيرهم أو شك". انتهى كلامه.

ومن كلام أهل العلم في كفر من شك في كفر الكافر ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية # عن أهل وحدة الوجود -بعد أن ذكر مذهبهم الباطل وأنه أشر من

قول النصارى- فقال: "فهذا كله كفر باطنًا وظاهرًا بإجماع كل مسلم، ومن شك في كفر هؤلاء بعد معرفة قولهم، ومعرفة دين الإسلام فهو كافر كمن يشك في كفر اليهود والنصارى والمشركين". انتهى كلامه.

فبين الشيخ # أن الشك في كفر من اتضح كفره واشتهر كفره بحد ذاته، لأن من شك في كفر الكافر يدل على أنه يتردد بين كونه مسلمًا أو كافرًا، والمتردد بين كون الكفر يقبل أو لا يقبل كافر. ومن الأدلة كذلك على إجماع العلماء على كفر من شك في كفر الكافر: قول شيخ الإسلام ابن تيمية # أيضًا وهو يتكلم على حكم من سب الصحابة { : "من زعم أنهم ارتدوا بعد رسول الله ﷺ إلا نفرًا قليلًا لا يبلغون بضعة عشر نفسًا، أو أنهم فسقوا عامتهم، فهذا لا ريب أيضًا في كفره؛ لأنه مكذب لما نصه القرآن في غير موضع من الرضا عنهم، والثناء عليهم؛ بل من يشك في كفر مثل هذا فإن كفره متعين وكفر هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام". انتهى كلامه.

فهذا تصريح شيخ الإسلام ابن تيمية # بتكفير الشاك في كفر من ثبت كفره، وأنه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام.

ومن أقوال العلماء في كفر من شك في كفر الكافر ما ذكره الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ، ونقل معه إجماع العلماء على أن الشاك في كفر الكافر إذا بينت له الأدلة من الكتاب والسنة على كفرهم، واستمر في شكه وتردده أنه يكفر، كما نقله عنه الدكتور حسن العواجي في (شرح نواقض التوحيد) ثم قال: "فعلم من تلك النقول عن أهل العلم -المتفاوتين في الأزمان والأماكن- ومن خلال

استنادهم إلى أدلة الكتاب والسنة أن من ثبت لديه كفر الكافر، ثم بقي شاكًّا في الحكم عليه بالكفر فإنه يكفر". انتهى.

خامسًا: التنبيه على خطورة التكفير:

بقي هنا أن نشير إلى مسألة مهمة تتعلق بهذا الناقض ألا وهي: التنبيه على خطورة التكفير، والحكم على الآخرين، فإن التكفير وإخراج المرء من دائرة الإسلام أمر ليس بالهين، فينبغي التنبه له والحذر منه، فإنه ظهر في الآونة الأخيرة جماعة تتسرع بالحكم بالتكفير على الناس تسمى "جماعة التكفير" حتى إنهم يعتبرون الأمة الإسلامية الآن ليست على شيء، وأنهم يعتبرون الحكام والمحكومين كفارًا مرتدين، وأن أمة الإسلام تعيش الجاهلية الأولى، كل ذلك بسبب الجهل بمقاصد الشريعة وعدم قراءة سيرة العلماء البانين الذين كانوا ينهون عن التسرع في إصدار أحكام التكفير والتبديع والتفسيق على المخالف، ما لم يقم دليل شرعي واضح وصريح من الكتاب والسنة على ذلك؛ لأن التكفير حق من حقوق الله ورسوله ﷺ فلا يجوز أن نكفر إلا من كفَّره الله، أو كَفَّره رسوله ﷺ، لأن هناك موانع من التكفير تردع المرء وتزجره من إصدار حكم التكفير جزافًا على الآخرين.

وقد أكد جمهور أهل العلم، ونبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية # مرارًا في كتبه أن التكفير أمر خطير لا يجوز للمسلم أن يصدره في حق المخالف أيًّا كان إلا بدليل واضح وقطعي من كتاب الله تعالى، أو من سنة المصطفى ﷺ وأنه لا يصار إليه إلا بعد بيان الحق، وإيضاح الدليل، وإزالة الشبهة، وإقامة الحجة؛ لأن

بعض المخالفين قد يكون الذي يمنعه من اتباع الحق عدم وضوح الدليل وبعضهم قد يكون المانع له من الحق شبهة خيمت في ذهنه وعقله فإذا أزيلت عنه تلك الشبهة رجع إلى الحق، أما صاحب البدعة المكفرة المعاند الذي إن بينت له الحق، وأوضحت له الدليل، وأزلت عنه الشبهة، وأقمت عليه الحجة عاند وكابر ورفض الحق، وتمسك بباطله، فهذا هو الذي يحكم عليه بالكفر بعينه ولا كرامته بسبب موالاته للكفرة، أو تصحيح مذهبهم وعدم تكفيرهم، أو بسبب شكه في كفرهم.

وإذا حكمنا على الموالي للكفرة بالكفر والارتداد عن دين الإسلام فليس في هذا الحكم تجنٍّ عليه ولا ظلم له. فإنه علم بطريق العقل أن من صادق عدوَّ امرئ ثم ادعى محبته وصداقته فقد اتصف بالحماقة وأي حماقة.

ولقد أحسن القائل:

تود عدوي ثم تزعم أنني ❖ صديقك ليس النوك عنك بعازب

أنواع الموالاة التي تقع مع أهل الكفر والفرق بين الموالاة المكفرة وغيرها

لا شك أن الموالاة للكفار لها صور وحالات، وأن أحكامها تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أصحابها، وقد بين الدكتور حسين العواجي تلك الأنواع في كتابه (شرح نواقض التوحيد) فقال:

أولها: الموالاة للكافرين مع مساكنتهم في ديارهم والخروج معهم في قتالهم ونحو ذلك، وهذه الموالاة يحكم على صاحبها بالكفر كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال النبي ﷺ: ((من جامع المشركين وسكن معهم

فإنه مثلهم)) رواه أبو داود والحاكم، وقال: حديث صحيح على شرط البخاري ومسلم ولم يخرجاه.

وقال ﷺ: ((أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين)) رواه أبو داود.

وهذا الحكم بالكفر بحسب ما يظهر منه من محاربة المسلمين وتوليه للكافرين وحربه معهم، حتى وإن كان يضمر إيمانًا، إذ لا يعلم ذلك إلا الله وليس لنا إلا الظاهر.

وثانيها: الموالاة للكافرين لأجل دينهم، فمن والاهم لأجل ذلك فهو منهم؛ لأن من أحب قومًا حشر معهم، وقد أجمع العلماء على أن هذا النوع من الموالاة محرم، وهذا النوع من الموالاة كالأول يحكم على صاحبه بالكفر بحسب الظاهر.

وثالثها: الموالاة لهم في ديار الإسلام إذا قدموا إليها كما نرى من ضعاف النفوس المقدسين للحضارة الغربية فإنه يحب ويحترم المهندسين والأطباء منهم ويوقرهم ولا يفعل ذلك مع العلماء والملتزمين من المسلمين قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢] إلا أنه لا يحكم على صاحبه بالكفر الاعتقادي إلا إذا كانت تلك الموالاة حبًّا في دينهم وتفضيلًا له على الإسلام.

ورابعها: الموالاة للكفار لأغراض شخصية أو دنيوية كقرابة أو مصلحة مالية أو حصول على أمر دنيوي مع البغض والكراهية لما هم عليه من الدين، وهذه أخف أنواع الموالاة، ولكن الواجب الحذر منه والتنزه عن الوقوف فيه؛ لأنه قد يسبب عدم إنكار المنكر أو الرضا بالكفر، وهذا النوع لا يكفر صاحبه، ولكنه يجلب منه مذمة المخالطة للكفرة.

الفرق بين الموالاة المكفرة وغيرها:

لقد فرق العلماء بين الموالاة التي يحكم على صاحبها بالكفر وبين الموالاة غير المكفرة.

قال ابن حزم # : "من حملته الحمية من أهل الغر من المسلمين فاستعان بالمشركين الحربيين وأطلق أيديهم على قتل من خالفه من المسلمين أو على أخذ أموالهم أو سبيهم، فإن كانت يده هي الغالبة وكان الكفار له كأتباع له فهو هالك، في غاية الفسوق، ولا يكون بذلك كافرًا؛ لأنه لم يأت شيئًا أوجب به عليه كفرًا قرآن أو إجماع وإن كان حكم الكفار جاريًا عليه فهو بذلك كافر على ما ذكرنا فإن كانا متساويين لا يجري حكم أحدهما على الآخر فما نراه بذلك كافرًا -والله أعلم-، وإنما الكافر الذي برئ منه رسول الله ﷺ هو المقيم بين أظهر المشركين" انتهى كلامه # .

وقد علق الدكتور حسن العواجي على كلام ابن حزم بقوله: "فظهر من كلام ابن حزم أن من ركن إلى الكفار وقاتل المسلمين معهم أنه أحد اثنين إما أن يكون تابعًا لهم جاريًا على حكمهم فهو بذلك كافر، وإما أن يكون الكفار تابعين له مؤتمرين بأمره أو تتساوى طاعتهم له وطاعته لهم فهو لا يكفر، ولا يخلو الحالان من موالاة بين الطرفين. إذًا لا بد من إيضاح كلام ابن حزم، وأنه يعني بحكمه بالكفر وعدمه الكفر الاعتقادي، وإما الكفر العملي فإنه يطلق عليه وإن كان الكفار تابعين له، أو تتساوى في الطاعة لبعضهم، ودليل ذلك أن الرسول ﷺ قد سمى قتال المسلم كفرًا، ومن تلك الأقوال التي فيها التفريق بين الموالاة المكفرة وغيرها ما قاله الشيخ محمد بن عبد اللطيف # : "من عجز عن الخروج من بين ظهراني المشركين وأخرجوه معهم كرهًا فحكمه حكمهم في القتل وأخذ المال لا

في الكفر، وأما من خرج معهم لقتال المسلمين طوعًا واختيارًا وأعانهم ببدنه وماله فلا شك أن حكمه حكمهم في الكفر.

والذي يظهر من خلال شرح هذا الناقض أن الموالاة لأهل الكفر والفسق والفواحش كفرًا وفسقًا بعينها، ثم إن الشخص الذي يوالي أصحابها يطلق عليه أنه كافر أو فاسق، ولكن إطلاق الكفر لا يعني حمله على الكفر الاعتقادي فقط، فقد يعنيه، وقد يراد به الكفر العملي، فلا بد من النظر فإن كانت هذه الموالاة من النوع الأول والثاني، اللذين ذكرناهما في أنواع الموالاة، وذلك بأن يسكن معهم أو يخرج لقتال المسلمين إلى جنبهم أو يواليهم لأجل دينهم فيرى أنه يماثل الإسلام أو يفوقه فإنه يحكم عليه حينئذٍ بالكفر الاعتقادي المخرج من الملة، وإن كانت من الأنواع الأخرى أطلقنا عليه الكفر بالنظر إلى أن عمله من فروع الكفر وشعبه ولم نحكم عليه بالكفر الاعتقادي المخرج من الملة" انتهى كلامه.

هل الكفر الذي يحصل بهذا الناقض كفر عملي أم اعتقادي؟

إذا تقررت تلك الأنواع التي ذكرنا للموالاة فإننا نقول: إن الموالاة التي يحصل بها الكفر العملي لا تخرج من الملة ولا تعد ناقضًا للتوحيد، وإن النوع الأول والثاني من تلك الموالاة هو الذي يعتبر كفرًا اعتقاديًّا مخرجًا من الملة، وبالتالي نقول: إن هذا النوع من الموالاة هو الذي نعنيه بشرحنا هذا لهذا الناقض وهو الذي إذا أطلقناه يكون هو المراد بالموالاة المكفرة، إلا أنه ينبغي أن نشير إلى أن الأنواع الأخرى للموالاة منها ما هو كفر عملي، ومنها ما هو محرم أو فسق، وعمومًا فكل من اتبع غير المسلمين وركن إليهم فقد اتبع غير سبيل المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

من نواقض الإسلام: بغض شيء مما جاء به الرسول أو أن هدي غيره أفضل منه هديه

عناصر الدرس

العنصر الأول	منزلة السنة ومكانتها في التشريع وهل السنة توافق القرآن أو تعارضه؟	٣٠٩
العنصر الثاني	إنكار السنة وجحودها وحكم باغضها	٣١٤
العنصر الثالث	اعتقاد أن هدي النبي ﷺ أكمل الهدي شرط في صحة الإيمان، وأن حكم غير الرسول ﷺ لا يكون أفضل من حكمه أو يساويه	٣١٩
العنصر الرابع	الرّدّ على من يساوي كلام غير الرسول بكلام الرسول في تشريع الشرائع، أو يتجرأ على تحريم ما أحل، أو تحليل ما حرم على لسان الرسول ﷺ	٣٢٧

منزلة السنة ومكانتها في التشريع، وهل السنة توافق القرآن أو تعارضه؟

أولًا: منزلة السنة ومكانتها في التشريع:

تعتبر السنة شقيقة القرآن، وهي المصدر الثاني للتشريع فهي وحي ثانٍ كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

والسنة مرتبطة بالقرآن مفسرة له، ومبيّنة لمجمله، لا يستغنى بالقرآن عنها، ولا يستغنى بها عن القرآن، ومما يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [النحل: ٦٤].

يقول الشيخ مصطفى السباعي # في كتابه القيم: (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي): "وكان الصحابة في عهد رسول الله ﷺ يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه عن الرسول ﷺ وكثيرًا ما كانت تنزل آيات القرآن مجملة غير مفصلة، أو مطلقة غير مقيدة، كالأمر بالصلاة جاء مجملًا لم يُبيّن في القرآن عدد ركعاتها، ولا هيئتها، ولا أوقاتها ولا شروطها، وكذلك كثير من الأحكام التي لا يمكن تنفيذها دون الوقوف على شرح ما يتصل بها من شروط وأركان ومفسدات، فكان لا بد لهم من الرجوع إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الأحكام معرفة تفصيلية واضحة، وكذلك كانت تقع لهم كثير من الحوادث التي

لم يُنص عليها في القرآن، فلا بد من بيان حكمها عن طريقه ﷺ وهو مبلغ عن ربه، وأدرى الخلق بمقاصد شريعة الله وحدودها، ونهجها ومراميها، وقد أخبر الله في كتابه الكريم عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن أنه مبيِّن له، وموضح لمراميه، وآياته حيث يقول الله تعالى في كتابه: ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٤٤] كما بيّن أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤] وأوجب النزول على حكمه في كل خلاف: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]، وأخبر أنه أوتي القرآن والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم فقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾، ويدل على ذلك أن الله أوجب على المسلمين اتباع الرسول فيما يأمر وينهى فقال: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧] وقرن طاعة الرسول بطاعته في آيات كثيرة من القرآن فقال: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] وحث على الاستجابة لما يدعو فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٣٤] واعتبر طاعته طاعة لله، واتباعه حبًّا لله: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال أيضًا ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ٣١] وحذر من مخالفة أمره: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٤]، بل أشار إلى أن مخالفته كفر: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٢] ولم

يبح للمؤمنين مطلقًا أن يخالفوا حكمه أو أوامره ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣١]" انتهى كلامه # .

ونقل الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # عند قول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] قول العلامة ابن القيم # : "أقسم سبحانه بأجلّ مُقْسَم به، وهو نفسه ﷻ على أنه لا يثبت لهم إيمان، ولا يكون من أهله حتى يُحكّم لرسوله ﷺ في جميع موارد النزاع، وفي جميع أبواب الدين، فإن لفظة "ما" من صيغ العموم، ولم يقتصر على هذا حتى ضمّ إليه انشراح صدورهم بحكمه ويقابلونه بالقبول، ولا يأخذونه على إغماض، ولا يشربونه على قذى فإن هذا منافٍ للإيمان، بل لا بد أن يكون أخذه بقبول ورضًا، وانشراح صدر، ومتى أراد العبد شاهدًا فلينظر في حاله، ويطالع قلبه عند ورود حكمه على خلاف هواه، وغرضه، أو على خلاف ما قلّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها ... ثم لم يقتصر سبحانه على ذلك حتى ضمّ إليه قوله: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ فذكر الفعل مؤكدًا له بالمصدر القائم مقام ذكره مرتين، وهو الخضوع والانقياد لما حكم به طوعًا ورضًا وتسليمًا لا قهرًا أو مصابرةً، كما يسلم المقهور لمن قهره كرهًا، بل تسليم عبد مطيع لمولاه وسيده الذي هو أحب شيء إليه، ويعلم أن سعادته، وفلاحه في تسليماته" انتهى.

ومما يؤكّد مكانة السنة ومنزلتها، وأنها الوحي الثاني بعد الله تعالى قوله ﷺ ((تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما؛ كتاب الله وسنتي، ولن يفترقا حتى يردا على الحوض)) أخرجه الحاكم في (المستدرك)، وقوله ﷺ في الحث على طاعته:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به)) رواه أبو الفتح المقدسي في كتاب (الحجة على تارك المحجة).

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ ناقلًا قول ابن رجب -رحمهما الله- : "أما معنى الحديث فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها ؛ فيحب ما أمر به ويكره ما نهى عنه ، وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع ، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله تعالى أو أحب ما كره الله كما قال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ١٠] وقال : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩] فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه ، وأن يكره ما كرهه الله كراهة توجب له الكفّ عما حرم عليه منه ، فازدادت الكراهة حتى أوجبت الكفّ عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا ؛ فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ، ويكره ما يكرهه الله ورسوله ، ويرضى بما يرضى به الله ورسوله ويسخط ما يسخط الله ورسوله ، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض" انتهى.

ثانيًا : هل السنة توافق القرآن أو تعارضه؟

لقد قدمنا في العنصر الأول أن السنة شقيقة القرآن ، وأنها الوحي الثاني ، إلا أن هذا الوحي لسنا متعبدين بتلاوته كما تعبدّنا بتلاوة القرآن ، فسنة المصطفى ﷺ وحي بوحي كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤]، فالسنة توافق القرآن ولا تعارضه ، وقد جاءت أحاديث المصطفى

ﷺ مبيِّنة لتعاليم القرآن شارحة مفصلة لمجمله، ومبيِّنة لأحكامه، ومقيدة لمطلقه، فالحكمة التي أوتيها المصطفى ﷺ مع القرآن كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] لم نجد فيها يومًا من الأيام معارضة لتعليمات القرآن وتوجيهاته، كما بيّن ذلك علماء الأمة، وحُمَاة الدين.

يقول الشيخ مصطفى السباعي # : "ومن هنا كان المسلمون في حاجة إلى معرفة بيان رسول الله، مع حاجتهم إلى معرفة كتاب الله، ولا يمكن أن يفهم القرآن على حقيقته، وأن يعلم مراد الله من كثير من آيات الأحكام فيه إلا بالرجوع إلى الله ورسوله ﷺ، الذي أنزل الله عليه الكتاب ليبيِّن للناس ما نُزّل إليهم من ربهم، ومن هنا اتفق المسلمون قديمًا وحديثًا إلا من شذّ من بعض الطوائف المنحرفة على أن سنة رسول الله ﷺ من قول، أو عمل، أو تقرير هي من مصادر التشريع الإسلامي الذي لا غنى لكل متشرّع عن الرجوع إليها في معرفة الحلال والحرام، وممّا لا ريب فيه أن متن القرآن قطعي الثبوت، ثم منه ما هو قطعي الدّلالة، ومنه ما هو ظنيها.

أما السنة المتواترة منها قطعية الثبوت، وغير المتواتر ظني الثبوت في تفصيله، وإن كان قطعيًّا في جملته، ومرتبة ظني الثبوت في نوعيه قطعي الدلالة، وظنيها يأتي بعد مرتبة قطعي الثبوت بنوعيه -قطعي الدلالة وظنيها-، ومن هنا كانت مرتبة السنة بعد مرتبة الكتاب" انتهى.

إذًا فاتضح بهذا أن السنة لم تكن يومًا تعارض القرآن، بل توافقه وتسايره، ولهذا كانت مع القرآن الكريم هي المصدر للشريعة، فمن زعم أنها معارضة

للقرآن، فهذا إما نتيجة للأخذ بما لم يصح من السنة، أو من فهمه السقيم، وهذه آفة عظيمة كما قال أبو الطيب المتنبي # :

وكم من عائب قولًا صحيحًا ❖ وآفته من الفهم السقيم

إنكار السنة وجحودها وحكم باغضها

لم يكن أحد يتوقع أن مسلمًا يأتي في تاريخ الإسلام ويعلن أنه متبع للقرآن منكر للسنة؛ لأن القرون المفضلة فما بعدها تتابعت على أن سنة المصطفى ﷺ شقيقة القرآن مبينة لبعض أحكامه، ومفسرة لبعضها، ومقيدة لمطلقها حتى ظهرت في العصر الحديث جماعة تسمي نفسها "القرآنيين" تزعم أنها على الإسلام، غير أنها لا تُؤمن إلا بما جاء في كتاب الله تعالى، وتعارض تعاليم السنة المطهرة، وقد ظهرت هذه الجماعة في دولة باكستان المسلمة، وقد تبيّن أنها من صنع المستشرقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين.

يقول الشيخ مصطفى السباعي # : "ومنذ بضع سنوات عقد مؤتمر للدراسات الإسلامية في لاهور بباكستان حضره علماء مسلمون من مختلف البلاد الإسلامية، كما حضره عدد من المستشرقين، وقد ظهر للعلماء المسلمين أن هؤلاء المستشرقين هم الذين أوصوا بفكرة عقد هذا المؤتمر، ودعوا إليه عددًا من تلاميذهم الفكريين في الهند وباكستان، وكأن أشدّهم تعصبًا، وأكثرهم جهلًا باعترافه هو ببعد أن ألقى بحثه -المستشرق الكندي "سميث" ولعله يهودي، وكان مما ألحّ عليه المستشرقون يومئذٍ بحث السنة والوحي النبوي ومحاولة إخضاعهما لقواعد العلم، كما يزعمون، وقد انتهى بعض تلامذتهم إلى إنكار الوحي كمصدر للإسلام واعتبار الإسلام أفكارًا إصلاحية من محمد ﷺ، وفي العالم

الماضي قامت ضجّة في الباكستان حول جماعة من المثقفين المسلمين بدءوا يدعون إلى إلغاء اعتبار السنة مصدر من مصادر التشريع الإسلامي، وتبيّن بعد ذلك أن هؤلاء من تلاميذ المستشرق الكندي "سميث" انتهى كلامه.

وقد نقل الدكتور حسن العواجي في كتابه: (شرح نواقض التوحيد) عن الشيخ ابن باز # أنه قال: "من قال بعدم الاحتجاج بالسنة، وأنه لم يُحفظ منها شيء فإن مفهوم كلامه أن الله قد أحال عباده إلى شيء لا وجود له، وهذا من أبطل الباطل، وأعظم الكفر بالله وسوء الظن به" انتهى كلامه # .

ونقول: لم يزعم أنه متبع للقرآن رافض للسنة إن اتباعك للقرآن ناقص، فلو كنت متبعًا للقرآن حقًّا لقبلت السنة؛ لأن القرآن قد أمر باتباع السنة، ولم يكن السلف يفرقون بين أوامر القرآن وأوامر السنة؛ فروى ابن عبد البر # في (جامع بيان العلم وفضله) أن عبد الله بن مسعود > قال: ((لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيّرات خلق الله)) قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها "أم يعقوب" فقالت: يا أبا عبد الرحمن بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال: وما لي لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ومن هو في كتاب الله؟ قالت: إني لأقرأ ما بين الوحيين فما أجده، قال: إن كنت قرأتيه لقد وجدتيه أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ" انتهى.

ولقد حذّر الرسول ﷺ من ظهور هؤلاء المنكرين فقال ﷺ: ((يُوشك بأحدكم يقول: هذا كتاب الله ما كان فيه من حلال أحللناه، وما كان فيه من حرام حرمناه، ألا من بلغه عني حديث فكذّب به فقد كذب الله ورسوله، والذي حدثه)) رواه ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله)، وعن أبي رافع يرفعه أن

النبي ﷺ قال: ((لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكة يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه)) رواه الترمذي، وقال هذا حديث حسن صحيح وأبو داود.

وعن المقداد بن معدي كرب > قال: قال رسول الله ﷺ: ((ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)) رواه أبو داود، وفي رواية للترمذي: ((إنما حرم رسول الله ﷺ كما حرم الله)) رواه الترمذي والدارمي.

ونقول لمنكري السنة والجاحدين لتعاليم الرسول ﷺ ما موقفكم من هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٢٩] كيف يكون الرّدّ إلى الرسول ﷺ في حياته؟ وبعد وفاته بأبي هو وأمي ﷺ؟

أما معتقد السلف وهو المنهج الحق فيبين أن الرّدّ عليه بعد وفاته ﷺ، فمعناه الرجوع إليه في حياته وتحكيمه في موارد النزاع، وأما الرّدّ عليه بعد وفاته ﷺ فمعناه الرجوع إلى سنته وأخذ الأحكام منها، وتطبيقها في حياة الأمة وعدم الرغبة عنها إلى شرائع الأمم الأخرى وقوانين البشر الوضعية. بهذا نكون قد فهمنا الآية فهمًا صحيحًا، وفسرناها التفسير السليم كما هو رأي جمهور المفسرين -رحمهم الله-، ويدخل في بغض السنة وإنكارها السخرية من الأحكام الشرعية الواردة في السنة، أو السخرية من الملتزمين بها كالسخرية من إعفاء اللحية، وتقصير الثوب في هذه الأزمان.

حكم باغض السنة:

مذهب السلف وأهل العلم قديمًا وحديثًا هو تكفير باغض السنة وجاحدها. يقول الدكتور حسن العواجي: "وفيما يلي بعض النقولات في ذلك: قال ابن عمر < : "من ترك السنة كفر"، وهذا بلا شك محمول على الترك مع الجحود؛ إذ لا يتصور أن يُقصد أن من ترك السنة لعذر أو لعصيان مع اعترافه بقدرها وتعظيمها أنه يكفر، فإن السلف لا يكفرون بالمعاصي إلا أن يراد الكفر العملي وقد يعنى بالسنة منهج النبي ﷺ مطلقًا فمن تركه إلى غيره من المناهج كفر، وقال ابن بطة: "لو أن رجلًا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئًا واحدًا؛ كان بردّ ذلك الشيء كافرًا عند جميع العلماء" ومعلوم أن السنة من أعظم ما جاء به محمد ﷺ وقد جاء تصريح ابن بطة بذلك في موضع آخر، فذكر أن من ردّ شيئًا ممّا جاء به الرسول ﷺ فهو كافر.

وروي عن الأوزاعي عن مكحول قال: "السنة سنتان: سنة الأخذ بها فريضة وتركها كفر، وسنة الأخذ بها فضيلة وتركها إلى غيره حرج"، وتفسير ذلك أن السنة إما أن يُراد بها منهج النبي ﷺ وطريقته التي هي خلاف البدعة فإن منكرها كافر، وإما أن يراد بها السنة التي هي خلاف الفريضة، فيُعَدّ تركها نقصًا في الدين، وهذا ما عبّر عنه بقوله: "حرج"، وقال ابن القيم: "من ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول ﷺ بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرًا"، وقال السيوطي: "اعلموا -رحمكم الله- أن من أنكر كون حديث النبي ﷺ قولًا كان أو فعلًا بشرطه المعروف في الأصول حجة كفر، وخرج عن

دائرة الإسلام، وحُشر مع اليهود والنصارى، أو مع من يشاء من فرق الكفرة"، وقال الشيخ عبد العزيز بن باز بعد أن ورد الأدلة على حجية القرآن والسنة على حد سواء: "وهما أصلان متلازمان من جحد واحدًا منهما فقد جحد الآخر، وكذّب به، وذلك كفر وضلال، وخرج عن دائرة الإسلام بإجماع أهل العلم والإيمان".

فاتضح لنا مما سبق -والكلام ما زال للدكتور العواجي- مع الأدلة على حجية السنة وكونها وحيًا أوحاه الله إلى نبيه، ومما أعقبناه من ذكر أقوال أهل العلم في تكفير من أنكرها أن من ظهر منه إنكار السنة، وهو على علم بما مضى حُكم بكفره، واستتيب؛ فإن تاب وإلا قتل، ومن أنكرها جهلًا عُلِّم، وأقيمت عليه الحجة، فإن أصرّ حُكم بكفره، واستحقّ إقامة الحد عليه" انتهى كلامه.

ونقول أخيرًا: إن الكفر نعنيه وذكره أهل العلم فيما يخصّ باغض السنة ومنكرها لا نقصد به من أنكر حديثًا بعينه لعدم صحته عنده، فإن من الأحاديث ما هو موضوع، أو ضعيف، أو متكلم فيه، فإنكار الأحاديث الضعيفة والموضوعة من الأعمال الصالحة التي يُتقرّب بها إلى الله تعالى، ولا يُعتبر إنكارها إنكارًا للسنة، ولا يُعد ناقضًا من نواقض التوحيد، كما أن هناك من العلماء من اشتغل بعلوم الحديث؛ فتجده يردّ أحاديث وينكرها، ويرفض العمل بها لعدم الوقوف بها، وتوفر شرائط الصحة فيها.

فمنكر هذا لا يُعَدّ منكرًا للسنة ولا باغضًا لها، وبالتالي لا نحكم عليه بالكفر، ولا نقول: إنه أتى بناقض من نواقض التوحيد.

اعتقاد أن هدي النبي ﷺ أكمل الهدي شرط في صحة الإيمان، وأن حكم غير الرسول ﷺ لا يكون أفضل من حكمه أو يساويه

لا زلنا نتابع في بيان ما يضاد عقيدة التوحيد وينقضها، وقد ذكرنا بعضًا من نواقض التوحيد، التي تهدم الإيمان وتُقْلِعُ أركانه، ويخرج بها المرء من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والردة -والعياذ بالله- كالتي غزلت صوفها غزلًا قويًّا محكمًا، ثم رجعت فنقضته، ونَفَشَتْهُ كما وصفها الله تعالى بقوله: ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢] ونهى عن ذلك، وتحدثنا عن ناقض من نواقض التوحيد، وهو: (عدم تكفير الكافر أو الشك في كفره)، وبينّا أن لم يرضَ بحكم الله تعالى، أو حكم رسوله ﷺ على المشركين المعاندين المحادين لله ولرسوله بالكفر من لم يرضَ بذلك الحكم فهو كافر مثلهم؛ لأنه طعن في أحكام الله تعالى، وأحكام رسوله ﷺ والطاعن في الشريعة والرّاد لما علم بالاضطرار من دين الإسلام كافر، ثم عرضنا لمسألة الشاكّ في كفر الكافر هل هو كافر أم لا؟ وذكرنا أن جمهور أهل العلم، وفتاواهم مصرحة بأن من شكّ في كفر الكافر المعاند المجاهر بكفره، وقد ردّ أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة، وهذا بحد ذاته كفر، وطعن في الدين.

ونحن في هذا الدرس أمام ناقض جديد من نواقض التوحيد، وسبب في زوال الإيمان، والخروج من دائرة الإسلام هذا الناقض هو: اعتقاد أن هدًى غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه.

وإذا كان الناقض السابق يقدح في الشريعة، بالطعن في أحكامها؛ فإن هذا الناقض -كما تَرَون- يطعن في صاحب الشريعة ﷺ وينقضه، ويخدش مرتبة النبوة ومنزلة الرسالة، وهذا الطعن يؤدّي إلى نقض الإيمان، والكفر بشهادة أن لا

إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؛ لأن معنى الجزء الثاني من الشهادة هو اتباع النبي ﷺ وطاعته فيما أمر والاجتناب عما نهى عنه وزَجَر، فمخالفة النبي ﷺ طعن في رسالته، والطعن في الرسالة ردّ للشهادة، وردّ الشهادة كفرٌ بالله ورسوله ﷺ. وعناصر هذا الدرس هي:

أولًا: إذا ادّعى مدّعٍ أنه يُؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ ويتلفّظ بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ثم يزعم أن هناك هديًا أحسن من هدي النبي ﷺ وأكمل:

فنقول له: إن تلفّظك بالشهادتين لا يكفي وإيمانك ناقض؛ لأن إيمانك لا يتمّ إلا باعتقادك أنه ليس هناك في الوجود هدي أكمل ولا أحسن من هدي المصطفى ﷺ وأن تتبعه في كل صغيرة وكبيرة، كما قال بعض السلف: "لو استطعت أن لا تحك رأسك إلا بسنة فافعل". يقول الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # عند تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ...﴾ الآية: (النساء: ٦٠] "لما كان التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله مشتملًا على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزمًا له وذلك هو الشهادتان، ولهذا جعلهما النبي ﷺ ركنًا واحدًا في قوله في (الصحيح): ((بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا)) نبّه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في هذا الباب على ما تضمّنه التوحيد، واستلزمه من حكم الرسول ﷺ في موارد النزاع؛ إذ هذا هو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، ولازمها الذي لا بد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن لا إله إلا الله فلا بد من الانقياد لحكم الله، والتسليم لأمره الذي جاء

من عنده على يد رسوله محمد ﷺ فمن شهد أن لا إله إلا الله، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت قلت: لما كان التوحيد مبنيًّا على الشهادتين؛ إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرى لتلازمهما، وكان ما تقدّم من هذا الكتاب -يشير لكتاب (تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد) في معنى شهادة أن لا إله إلا الله التي تتضمن حق الله على عباده.

نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمدًا رسول الله التي تتضمّن حقّ الرسول ﷺ فإنها تتضمّن أنه عبد لا يُعبد، ورسول صادق لا يُكذب، بل يُطاع ويُتبع؛ لأنه المبلغ عن الله تعالى، فله ﷺ منصب الرسالة، والتبليغ عن الله، والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ إذ هو لا يحكم إلا بحكم الله ومحبته على النفس، والأهل والمال، والوطن، وليس له من الإلهية شيء، بل هو عبد الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ٢٠]، وقال ﷺ: ((إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله))، ومن لوازم ذلك محبته ومتابعته، وتحكيمه في موارد النزاع، وترك التحاكم إلى غيره كالمنافقين الذي يدعون الإيمان، ويتحاكمون إلى غيره، وبهذا يتحقق العبد بكمال التوحيد، وكمال المتابعة، وذلك هو كمال سعادته، وهو معنى الشهادتين.

إذا تبين هذا فمعنى الآية المترجم لها: أن الله -تبارك وتعالى- أنكر على من يدّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء قبله، وهو مع ذلك يُريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر المصنف في سبب نزولها، قال ابن القيم: "والطاغوت كل من تعدّى به حدّه من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، فكل ما تحاكم إليه متنازعان غير كتاب الله، وسنة

رسوله ﷺ فهو طاغوت؛ إذ قد تعدّى به حدّه، ومن هذا كل من عبد شيئًا دون الله، فإنما عبد الطاغوت، وجاوز بمعبوده حدّه، فأعطاه العبادة التي لا تنبغي له، كما أن من دعا إلى تحكيم غير الله تعالى ورسوله ﷺ فقد دعا إلى تحكيم الطاغوت، وتأمل تصديره سبحانه الآية مُنْكِرًا لهذا التحكيم على من زعم أنه قد آمن بما أنزل الله على رسوله ﷺ، وعلى من قبله ثم هو مع ذلك يدعو إلى تحكيم غير الله ورسوله ﷺ، ويتحاكم إليه عند النزاع وفي ضمن قوله: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ نفي لما زعموه من الإيمان، ولهذا لم يقل: ألم تر إلى الذين آمنوا فإنهم لو كانوا من أهل الإيمان حقيقة لم يريدوا أن يتحاكموا إلى غير الله تعالى ورسوله ﷺ ولم يقل فيهم ﴿يَزْعُمُونَ﴾، فإن هذا إنما يقال غالبًا لمن ادّعى دعوى هو فيها كاذب، أو منزل منزلة الكاذب لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها، قال ابن كثير: "والآية لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت ها هنا" انتهى كلامه.

ثم نقل الشيخ عن ابن رجب -رحمهما الله تعالى- قوله: "إن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء له الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها فيحبّ ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد ورد القرآن بمثل هذا في غير موضع، وذمّ سبحانه من كره ما أحبه الله تعالى، أو أحب ما كره الله كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩]؛ فالواجب على كل مؤمنٍ أن يحبّ ما أحبّه الله محبته تُوجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه كان ذلك فضلًا، فمن أحبّ الله ورسوله محبّة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبّه الله ورسوله، ويكره ما كرهه الله ورسوله، ويرضى بما يرضى به الله ورسوله،

ويسخط ما يسخط الله ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحبّ والبغض" انتهى كلامه.

فاتضح بهذا أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد أن هدي النبي ﷺ أكمل الهدي، فلا يتّبع غيره ولا يُطاع غيره من البشر، ولا يتحاكم إلى غيره، ولا تُلتمس السعادة، ولا الحق في غير هديه ﷺ.

ثانيًا: من اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ أفضل من حكمه، أو أن هديه أحسن من هديه أو يساويه:

فقد نقل الشيخ حسن العواجي عن الشيخ محمد بن إبراهيم # في كتابه: (تحكيم القوانين) التفصيل في ذلك: فإن كان تحكيمه لغير حكم الرسول مع اعتقاده أنه أفضل من حكم الرسول ﷺ، أو يساويه فهذا كفر اعتقادي مخرج لصاحبه من الملة، أما إن كان تحكيمه لغير حكم الرسول ﷺ بسبب هوى النفس، أو للأغراض الدنيوية مع إيمانه بأن حكم الرسول ﷺ حقّ، وأن هديه أكمل وأفضل من غيره من القوانين فهذا كفر عملي يبيّن لصاحبه الحق، ويوضح الدليل، وتقام عليه الحجة، وتُزال الشبهة عن صاحبه، فإن أصرّ على اعتقاده حُكم عليه بالكفر الاعتقادي المُخرج من الملّة.

وكل هذا الأنواع متوعّدة بالعذاب؛ لأنه أقدم على الكفر سواء اعتقد كذب الرسول ﷺ وهو صاحب الهدي التام، أو لم يعتقده، ولكن استكبر عن الإيمان به، أو لإعراضه عنه اتباعًا لهواه، أو لارتيابه فيما جاء به المصطفى ﷺ. فكل من كذّب بما جاء به النبي فهو كاره، فمن لم يتبع الرسول ﷺ وخالف أمره باتباع

غيره وتحكيمه في موارد النزاع؛ فقد ضيّع حقًّا من حقوق الرسول ﷺ ولم يلتزم الأدب الواجب في ذلك.

يقول العلامة ابن القيم # : "ومن الأدب مع الرسول ﷺ أن لا يتقدّم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذنٍ ولا تصرّف حتى يأمره هو وينهى، ويأذن كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١]، وهذا باقٍ إلى يوم القيامة ولم يُنسخ، فالتقدّم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم، ومن الأدب معه أن لا يستشكل قوله، بل يستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس؛ بل تهدر الأقيسة، وتلقي لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا؛ نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به ﷺ على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه ﷺ وهو عين الجرأة" انتهى.

ويقول صاحب كتاب (التأدب مع الرسول ﷺ): ومما يدخل في هذا المعنى -أي: التقدم بين يدي رسوله ﷺ: القوانين الوضعية على الشريعة الإسلامية في هذا العصر حتى لو لم يصرح واضعو هذه القوانين، أو الذين استوردوها أنها أفضل من الشريعة الإسلامية أو لا؛ لأن مجرد إقصاء الشريعة الإسلامية عن الحياة البشرية، ووضع القوانين الوضعية مكانها، وإجبار الناس على التحاكم إليها، والتوعد لمن يخالفها بالعقاب الشديد، وإن خالفت الشريعة الإسلامية صريحة كما هو مشاهد في واقعنا اليوم" انتهى كلامه.

ويقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # عند تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]: "وهذه الآية الكريمة فيها التصريح بالنهي عن التقدّم بين يدي الله ورسوله، ويدخل دخولًا أوليًّا

تشريع ما لم يأذن، وتحريم ما لم يحرمه، وتحليل ما لم يحلله ؛ لأنه لا حرام إلا ما حرمه الله، ولا حلال إلا ما حلّله الله، ولا شرع إلا ما شرع الله" انتهى.

ويقول شارح (الطحاوية) # : "فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولًا، أو نقدّم آراء الرجال وزبالة أذهانهم فنوحّده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان كما نوحد المرسِل بالعبادة، والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان لا نجاة للعبد إلا بهما : توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا نتحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غيره. انتهى.

فمن اعتقد أن أحدًا غير النبي ﷺ عنده من الهدي والحق ما لم يأتِ به المصطفى ﷺ، أو أن هديه وحكمه يساوي هدي المصطفى ﷺ فقد نقض إيمانه بالنبي ﷺ لرفضه لركيزة مهمة من ركائز الإيمان ألا وهي : طاعة الرسول ﷺ وحكم الرسول ﷺ هو حكم الله تعالى، والمعرض عنهما إلى حكم آخر مبتغٍ حكم الجاهلية، كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠] يقول الإمام ابن كثير # عند تفسير هذه الآية : "ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كلّ شرّ وعدل إلى ما سواه من الآراء، والأهداف، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مّما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن فلكهم، -جنكيز خان- الذي وضع لهم (الياسق): وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام اقتبسها من شرائع شتّى من

اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرّد نظره، فصارت في بيئته شرعًا متبعًا يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم في سواه في قليل ولا كثير" انتهى.

وقد بين الدكتور حسن العواجي الفرق بين من أعرض عن حكم الرسول ﷺ معتقدًا أن حكم غيره أفضل منه، أو يساويه، أو لا يعتقد ذلك، ولكنه يقدم حكم غيره تبعًا للهوى والأغراض الدنيوية فقال: "ومعلوم أن من أعرض عما أنزل الله فحكم بغيره اتباعًا لهواه وشهوته، غير مرتابٍ في فضل حكم الله على غيره، ولا جاحدًا له، فإن كفره ليس مخرجًا من الملّة حتى تتحقّق فيه شروط التكفير، وتنتفي موانعه كقيام الحجة وإصراره بعد ذلك على فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وقال طاووس مثله، وقال عطاء: كفر دون كفر، ونقل ابن عبد البر إجماع العلماء على أن دفع شيئًا أنزله الله مع الاعتراف بما أنزل الله أنه كافر، ومعلوم أن المراد بالكفر هنا إما أن يكون الكفر الاعتقادي أو العملي، فإن كان معترفًا بما أنزل الله، وأنه حق إلا أنه يحكم بغيره شهوة، أو هدى، أو نحو ذلك؛ فإن كفره كفر عمل يبين له، وتقام عليه الحجة فإن أصر حُكم بكفره اعتقاديًا، ولنعلم أن الحكم بما أنزل الله في الشريعة الإسلامية يعني الحكم بالكتاب والسنة على السواء. إذا المنزل يشمل الكتاب والسنة كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] فأحال ﷻ عباده إذا تنازعوا في شيء إلى الاحتكام إلى كتابه وسنة نبيه ﷺ" انتهى.

الرّدّ على من يساوي كلام غير الرسول بكلام الرسول في تشريع الشرائع، أو يتجرّأ على تحريم ما أحل، أو تحليل ما حرّم على لسان الرسول ﷺ

ثالثًا: لا شكّ أن من يساوي كلام غير الرسول ﷺ بكلامه في تشريع أمور، أو فرض فرائض، أو ذكر فضائل أن هذا الفعل ناقض من نواقض الإيمان، وهو فعل من أفعال أهل البدع من أرباب الطرق وشيوخ الفرق.

فمن اعتقد أن أحدًا من البشر بعد محمد ﷺ يأخذ عن الله فيشرِّع للخلق أمورًا فيوجب، ويحرم، ويبيح ويذكر الفضائل لبعض الأعمال فإنه يكفر، وقد اعتقد هذا بعض من يدّعي الإسلام من شيوخ الفرق؛ حيث اعتقدوا أن المشايخ يستطيعون أن يشرّعوا في دين الله ما لم ينزل تشريعه في الكتاب والسنة؛ فتراهم يُوجبون على المريدين أمورًا ويحرمون أشياء أخرى، ويضعون الثواب والأجر لبعض الأعمال من تلقاء أنفسهم، يقول الدكتور حسن العواجي: "وهم بذلك قد خالفوا عقيدة السلف من أنه لا أحد من البشر بعد محمد ﷺ يمكنه أن يأخذ عن الله تعالى، فقد انقطع الوحي من السماء بوفاة محمد ﷺ.

ومعلوم أن هؤلاء أكثر ما يأخذون دينهم وشرعهم عن طريق الرؤى التي يتمثّل لهم فيها الشيطان، وقد عرف أن الأخذ عن الله والكلام لخلقه لا يكون إلا بإحدى ثلاث كما نصّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ [الشورى: ٥١].

فأما الكلام من وراء وإرسال الملائكة فهو خاصّ بالأنبياء، وأما الثالثة وهي الإيحاء، وإن كان فيها نصيب للولي إلا أنه لا بد عن حصولها من عرضها على الكتاب والسنة، وذلك لما عرف أن الإيحاء أنواع، ومنها وسوسة الشيطان وتزيينه الشرّ في نفس الإنسان كما يقول: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ

﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:121]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:112]، وقد وجدنا بعض الصوفية يدّعي إمكان نزول الملك بعد وفاة النبي ﷺ على الولي. ويقول: إن الفرق بين ذلك وبين نزوله على النبي ﷺ لا يجتمع له الكلام، ورؤية الملك كما صرّح بذلك الشعراني في (رسالة الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح)، ونقلها عن الآلوسي في (جلاء العينين).

وإذا كان إمام المحدثين عمر > يجوز عليه الخطأ والنسيان فليس في شيوخ الصوفية معصوم، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، كما قال أبو الحسن الشاذلي # : "وقد ضمنت لنا العصمة فيما جاء في الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام" انتهى كلامه.

رابعًا: لا شكّ أن البشر قاصة عقولهم عن إدراك جميع المصالح والمنافع، وبالتالي غير مهيئين لتحريم الأشياء وتحليلها من تلقاء أنفسهم؛ لأن الله تعالى خالق البشر والبصير بما ينفعهم فيحله لهم، وما يضرهم فيحرمه عليهم.

ولو لم يرسل الله تعالى الرسل بالبشارة والنذارة لما أوجب على الناس شيء، ولما حرُم عليهم شيء قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:15]، وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:165]، وقد أمر الله تعالى الناس بالتسليم والإيمان بحكمه، وتطبيق الأوامر والنواهي التي جاءت في رسالاته التي يبعث بها رسله قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:36] فالتحليل والتحريم من حقوق الله تعالى ورسوله ﷺ فمن خالف أمر ربه بإيجاب أمر على الناس، أو نهيه لهم عن شيء لم يأمر الله به، أو لم ينه عنه كان ذلك موجبًا للعقاب والجزاء

من الله تعالى، وهذه جرأة عظيمة على حدود الله تعالى وأحكامه، وتزداد هذه الجرأة أكثر عندما يحرم إنسان أمرًا من تلقاء نفسه الأمّارة بالسوء، أو يحلّه للناس وينسب ذلك التحريم أو التحليل إلى الرسول ﷺ زورًا وبهتانًا وجُرْأَةً.

وقد حذّر الله من ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٧] وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل: ١١٦].

فمرتبة التحليل والتحريم خاصة بالأنبياء الذين أيّدهم الله بالوحي من بين جميع الخلق فمن حام حولها كما يفعل واضعو القوانين في هذا العصر فقد نقض إيمانه وهدم إسلامه، ودخل في دائرة الكفر. نسأل الله السلامة.

من نواقض التوحيد: الاستهزاء بشيء من دين الرسول، أو الاعتقاد بأن بعض الناس يسعه الخروج على شريعته

عناصر الدرس

العنصر الأول	: المراد بالاستهزاء، ومنه الاستهزاء بالله جل وعلا	٣٣٣
العنصر الثاني	: الاستهزاء بالرسول ﷺ وبدين الله تعالى	٣٣٨
العنصر الثالث	: تمام النعمة بكمال الرسالة الإسلامية، وأنه لا يبلغ أحد من الناس مرتبة النبي ﷺ	٣٤٥
العنصر الرابع	: الصحيح في قصة الخضر مع موسى ﷺ وأقوال العلماء في تكفير من أجاز الخروج على شريعة خاتم النبيين	٣٥٣
العنصر الخامس	: المراد بالإعراض وأنواع الإعراض عن دين الله	٣٥٩
العنصر السادس	: تحذير القرآن الكريم والسنة النبوية من هذا الناقض	٣٦٥

المراد بالاستهزاء، ومنه الاستهزاء بالله جل وعلا

من خلال عناصر الدرس السابق تبين لنا أن السنة النبوية لها مكانة عظيمة في التشريع الإسلامي، فهي شقيقة القرآن والوحي الثاني المبين للقرآن والمفسر له، والمقيد لمطلقه، كما وضحنا أن منكري السنة والجاحدين لها قد ناقضوا القرآن الذي جاءت آياته بالترغيب في السنة، واتباع الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، بل سنته وحي يوحى؛ إلا أن هذا الوحي لسنا متعبدين بتلاوته كما تعبدنا بتلاوة الوحي الذي جاء في القرآن الكريم.

ثم أشرنا إلى أن القرآن يبين الذين ظهروا بين المسلمين في العصر الحديث كانوا نتاجًا وثمرة لجهود المستشرقين، وخصوصًا المستشرق الكندي: "سميث" في الشرق الإسلامي، حيث كان ظهور تلك الطائفة في دولة الباكستان المسلمة، كما جلبنا طائفة من آيات الكتاب العزيز، وأحاديث السنة المطهرة المحذّرة من إنكار السنة، أو مخالفة أوامر الرسول ﷺ أو نواهيه، وأن فاعل ذلك باغض للسنة، ومشاقّ للرسول ﷺ ومن أبغض السنة، وشاق الرسول ﷺ فقد نقض إيمانه، وخرج من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، والرِّدّة -والعياذ بالله-.

إذا تقرّر ذلك فنحن اليوم أمام ناقض جديد من نواقض التوحيد ليس بعيد الصلة عن الناقض السابق، هذا الناقض هو: "الاستهزاء بشيء من دين الرسول ﷺ أو ثواب الله أو عقابه". لأن الاستهزاء بالشيء ينجم عادة عن بغضه، ومعاداته، واستصغاره، وعدم الإيمان به، وذلك لا يكون من مسلم دخل الإيمان قلبه، وإلا فكيف نَعُدّ امرأً مسلمًا، وهو يستهزئ بالله تعالى، أو يستهزئ برسوله ﷺ

أو يسخر من شيء من دين الله تعالى، وكيف نتصوّر منه الإتيان بالعبادات، والأوامر الشّرعيّة.

وهذه الصفة الاستهزائيّة هي صفة نفاقيّة كان يتمتّع بها المنافقون في عصر النبوّة، فكانت تنزل آيات الوحي كالصواعق عليهم -تُنبئ الرسول ﷺ والمسلمين بما تمتلئ به قلوب أولئك المنافقين من السخرية، والاستهزاء بالرسول ﷺ، وبتعاليم القرآن، وبالدين الذي جاء به خاتم النبيين ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٤- ١٦] فكانوا بذلك الاستهزاء، وتلك السخرية من دين الرسول ﷺ أشدّ كفرًا من المشركين وفي الدّرك الأسفل من النار، -والعياذ بالله تعالى.

أولًا: المراد بالاستهزاء وأنواعه:

الاستهزاء في اللغة: يقال: هزئ منه، وهزئ به هُزْءًا، وهزوءًا، ومهزأة، وتهزأ به، واستهزأ، استهزاء إذا سخر منه، ورجل هُزْأةٌ بالتسكين يهزأ به، وهو هُزَأة بالتحريك، يهزأ بالناس.

اصطلاحًا: الاستهزاء يُراد به السخرية منه، وتنقيصه وبغضه والطعن فيه، وعدم احترامه، والاستهزاء يكون باللسان والقول، وقد يكون بالحركة والفعل، فمن نطق بكلمة فيها استهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ، أو بدينهم فهو مستهزئ بدين الرسول ﷺ.

ثانيًا: الاستهزاء الذي يُعَدّ ناقضًا من نواقض التوحيد، ويدخل بأنواعه ضمنًا في الاستهزاء بدين الرسول ﷺ أو ثواب الله وعقابه أنواع:

النوع الأول: الاستهزاء بالله تعالى، هو ضربان:

أ- استهزاء يُعَدّ كفرًا محضًا.

ب- واستهزاء يُعَدّ سبًّا وتنقصًا للمولى ﷻ.

النوع الثاني: الاستهزاء بالرسول ﷺ وهو ضربان:

أ- استهزاء يعدّ كفرًا محضًا؛ لأنه يقوم على التكذيب.

ب- واستهزاء فيه شتم وسبّ وتنقيص للرسول ﷺ.

ثانيًا: الاستهزاء بالله جلّ وعلا:

لا شكّ أن من يتجرّأ فيتكلّم في ذات الله تعالى كلامًا تشمّ منه رائحة الاستهزاء والسخرية؛ فإن كان يعتقد ذلك ويُؤمن به فهذا كفر صريح، وطعن في الذات العليّة بكل جرأة وصفاقة.

يقول القاضي عياض # : "لا خلاف أن سابّ الله تعالى من المسلمين كافر حلال الدم، واختلف في استتابته، فقال أبو القاسم في (المبسوط)، وفي كتاب ابن سحنون ومحمد، ورواه ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحيى: من سب الله تعالى من المسلمين قتل، ولم يستتب إلا أن يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين دان به، وأظهره فيستتاب، وإن لم يظهره لم يستتب... وكذلك اليهودي والنصراني فإن تابوا قُبل منهم، وإن لم يتوبوا قُتلوا ولا بد من

الاستتابة، وذلك كالرّدّة... وأفتى أبو محمد بن أبي زيد فيما حكي عنه في رجل لعن رجلًا ولعن الله فقال: إنما أردت أن ألعن الشيطان فزلّ لساني. فقال: يقتل بظاهر كفره ولا يُقبل عذره...

فوجه من قال في سابّ الله تعالى بالاستتابة: إنه كفر وردّة محضة لم يتعلّق بها حق لغير الله، فأشبه قصد الكفر بغير سب الله وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام، ووجه ترك استتابته أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قَبْلُ اتهمناه، وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له. لا يتساهل في هذا أحد فحكم له بحكم الزنديق، ولم تقبل توبته، وإذا انتقل من دين إلى آخر، وأظهر السب بمعنى الارتداد؛ فهذا قد أعلم أنه خلع ربقة الإسلام من عنقه بخلاف الأول المتمسك به، وحكم هذا حكم المرتدّ: يُستتاب على مشهور مذاهب أكثر أهل العلم، وهو مذهب مالك وأصحابه على ما بيّنّاه قَبل، وذكرنا الخلاف في فصوله". انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية # في حكم رجل سب الله تعالى: "فإن كان مسلمًا وجب قتله بالإجماع؛ لأنه بذلك كافر مرتد، وأسوأ من الكافر فإن الكافر يعظم الرب، ويعتقد أن ما هو عليه من الدين الباطل ليس استهزاء بالله ولا مسبّة له... ثم نقل قول الإمام أحمد # : "كل من ذكر شيئًا يعرّض بذكر الرب -تبارك وتعالى- فعليه القتل، ولم يذكر استتابته، وذكر أنه قول أهل المدينة. وأما الرواية الثانية فإن عبد الله قال: سئل أبي عن رجل قال: "يا ابن كذا وكذا أنت ومن خلقك" قال أبي: هذا مرتد عن الإسلام، قلت لأبي: تضرب عنقه؟ قال: نعم تضرب عنقه. فجعله من المرتدين". انتهى كلامه.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -في الصارم المسلول أيضًا- : "نقول: إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهرًا أو باطنًا، سواء كان السَّابّ يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلًّا له، أو كان ذاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل". انتهى كلامه.

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ # معلقًا على باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول: "أي أنه يكفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية، والرسالة، وذلك منافٍ للتوحيد، ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئًا من ذلك، فمن استهزأ بالله، أو بكتابه أو برسوله، أو بدينه كفر ولو هازلًا. لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعًا...

قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]: يقول تعالى مخاطبًا لرسوله ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي: سألت المنافقين الذين تكلموا بكلمة الكفر استهزاء ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: يعتذرون بأنهم لم يقصدوا الاستهزاء والتكذيب، إنما قصدوا الخوض في الحديث واللعب: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ لم يعبأ باعتذارهم إما لأنهم كانوا كاذبين فيه، وإما لأن الاستهزاء على وجه الخوض واللعب لا يكون صاحبه معذورًا، وعلى التقديرين فهذا عذر باطل فإنهم أخطئوا موقع الاستهزاء، وهل يجتمع الإيمان بالله وكتابه ورسوله والاستهزاء بذلك في قلب؟ بل ذلك عين الكفر، فلذلك كان الجواب مع ما قبله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦]". انتهى.

وقال الشيخ سليمان # معلّقًا على قصة المنافقين في غزوة تبوك حيث نزلت فيهم الآية السابقة موضحة أنهم قد كفروا بعد إيمانهم بسبب الاستهزاء بالله

ورسوله والمؤمنين، قال: "وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلّم بها، أو عمل يعمل به، وأشدّها خطرًا إرادات القلوب فهي كالبحر الذي لا ساحل له". انتهى كلامه.

فتبين بهذا أن الإنسان ينبغي أن يكون على حذر من ملابسة شيء من الأقوال والأفعال التي تُعَدّ من قبيل الاستهزاء بالله جل جلاله، وتوقع صاحبها في حفرة الكفر -والعياذ بالله تعالى-.

الاستهزاء بالرسول ﷺ وبدين الله تعالى

ثالثًا: الاستهزاء بالرسول ﷺ:

أمر الله تعالى المؤمنين بتعزير النبي ﷺ وتوقيره، وتعظيم شأنه فقال تعالى: ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ الآية (الفتح: ٩)، وقال أيضًا: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

نقل المفسرون عن ابن عباس } في معنى التعزير، أنه قال: "﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي: حموه ووقروه، وقال مجاهد: ﴿ وَعَزَّرُوهُ ﴾ سدّدوا أمره، وأعانوا رسوله ونصروه. قال ابن جرير الطبري # : وهذه الأقوال متقاربات المعنى وإن اختلفت ألفاظ أهلها بها، ومعنى التعزير في هذا الموضع: التقوية بالنصر والمعونة، ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والتعظيم والإجلال". انتهى كلامه # .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية # : "التعزير اسم جامع لنصره وتأييده، ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال

والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حدّ الوَقَار". انتهى كلامه.

فتعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة؛ بل هي أمر زائد على المحبة؛ لأن منزلتها ورتبتها أعلى وأسمى من رتبة المحبة، فليست كل محبة تورث تعظيمًا، ولما قرن الله ﷻ في الآيتين السابقتين بين الإيمان بالنبي ﷺ وتعظيمه علمنا أن في ذلك تنبيهًا وإرشادًا إلى أن القيام بحقوقه ﷺ منها تعزيره وتوقيره يُعَدّ من الإيمان الواجب الذي لا يتم إيمان المرء إلا به.

يقول القاضي عياض # مبينًا تعظيم الله -جل وعلا- لقدر النبي ﷺ: "لا خفاء على من مارس شيئًا من العلم، أو خصّ بأدنى لمحة من فهم بتعظيم الله تعالى قدر نبينا ﷺ وخصوصه إيّاه بفضائل ومحاسن ومناقب لا تنضبط لزمام، وتنويهه من عظيم قدره بما تَكِلّ عنه الألسنة والأقلام، فمنها ما صرح به تعالى في كتابه ونبّه به على جليل نصابه، وأثنى عليه من أخلاقه وآدابه، وحضّ العباد على التزامه وتقلّد إيجابه فكان -جل جلاله- هو الذي تفضّل وأولى، ثم طهر وزكى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءًا وعودًا، والحمد أولى، وأخرى". انتهى كلامه.

إذن: كلّ من لم يعظم الرسول ﷺ التعظيم الشرعي، وقصد في تعزيره وتوقيره، بل زاد على ذلك حتى بلغ حدّ الاستهزاء بالرسول ﷺ من فعل ذلك فقد انتهك حرمة المصطفى ﷺ.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "أما انتهاك عرض رسول الله ﷺ فإنه منافٍ لدين الله بالكلية، فإن العرض متى انتهك سقط الاحترام والتعظيم، فسقط ما جاء به من الرسالة، فبطل الدين، فقيام المدحة والثناء عليه والتعظيم والتوقير له قيام

الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله؛ وإذا كان كذلك وجب علينا أن ننتصر له ممن انتهك عرضه، والانتصار له بالقتل؛ لأن انتهاك عرضه انتهاك لدين الله... وبهذا يظهر الفرق بين سبّ الأنبياء وغيرهم من المؤمنين، فإن سبّ الواحد من الناس لا يختلف بين ما قبل الإسلام وما بعده، والأذى والفضاضة التي تلحق المسبوب قبل إسلام السّابّ وبعده؛ سواء بخلاف النبي ﷺ فإنه قد زال موجبه بالإسلام، وتبدل بالتعزير له والتوقير والثناء عليه والمدحة كما تبدل السّبّ لله بالإيمان وتوحيده، وتقديسه، وتحميده وعبادته". انتهى.

كما استدل شيخ الإسلام # بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧- ٥٨]

ثم يبين أن مؤذي الرسول ﷺ مؤذٍ لله تعالى، فقال: "ودلالتها من وجوه:

أحدها: أنه قرن أذاه بأذاه كما قرن طاعته بطاعته، فمن آذاه فقد آذى الله تعالى، وقد جاء ذلك منصوصًا عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم، يبيّن ذلك أن الله تعالى جعل محبّة الله ورسوله وإرضاء الله ورسوله وطاعة الله ورسوله شيئًا واحدًا، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢] في مواضع متعدّدة، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] فوجد الضمير، وقال أيضًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال أيضًا: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ ﴾ [الأنفال: ١].

وجعل شقاق الله ورسوله ومحادة الله ورسوله، وأذى الله ورسوله ومعصية الله ورسوله شيئًا واحدًا، فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [النساء: ١٤]، وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وأن جهة حرمة الله تعالى ورسوله جهة واحدة؛ فمن آذى الرسول ﷺ فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله؛ لأن الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم إلا بواسطة الرسول، ليس لأحد منهم طريق غيره، ولا سبب سواه، وقد أقامه الله وقام في أمره ونهيه، وإخباره وبيانه، فلا يجوز أن يُفرَّق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور". انتهى كلامه.

وقال القاضي عياض # : "قد تقدّم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي ﷺ وما يتعيّن له من برّ وتوقير، وتعظيم وإكرام، وبحسب هذا حرم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتل متنقّصه من المسلمين وسابّه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال الله تعالى في تحريم التعريض به: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٠٤]، وذلك أن اليهود كانوا يقولون: راعنا يا محمد. أي: ارعنا سمعك، واسمع منا، ويُعَرِّضُون بالكلمة يريدون الرعونة -أي: الحمق- فنهى الله المؤمنين عن التشبّه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق

إلى سبِّه، والاستهزاء به، وقيل: لما فيها من مشاركة اللفظ؛ لأنها عند اليهود بمعنى: اسمع، لا سمعت. وقيل: بل لما فيها من قلّة الأدب، وعدم توقير النبي ﷺ وتعظيمه.

إن جميع من سبّ النبي ﷺ أو عابه أو ألحق به نقصًا في نفسه، أو نسبه أو دينه، أو خصلة من خصاله، أو عرَّض به، أو شبهه بشيء على طريق السب له، أو الازدراء عليه، أو التصغير لشأنه، أو الغضّ منه، والعيب له، فهو سابّ له، والحكم فيه حكم السابّ، يقتل كما نبيّنه، ولا نَسْتَثْنِي فصلًا من فصول هذا الباب على هذا القصد، ولا نمتري فيه تصريحًا كان أو تلويحًا، وكذلك ممن لعنه أو دعا عليه، أو تمنّى مضرة له، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذّمّ، أو عبث في جهته العزيزة بسُخفٍ من الكلام، وهُجْرٍ، ومنكرٍ من القول وزور، أو عيّره بشيء ممّا جرى من البلاء والمحنة عليه، أو غمصه ببعض العوارض البشرية الجائزة، والمعهودة لديه، وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة -رضوان الله عليهم- إلى هلمّ جرًّا، وقال أبو بكر بن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن من سب النبي ﷺ يقتل، وممن قال ذلك: مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي.

وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فيمن تنقّصه ﷺ أو برئ منه، أو كذبه، وقال سحنون فيمن سبّه: ذلك ردّة كالزندقة... وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، والمعروف ما قدّمناه، قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المتنقّص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل، ومن شكّ في كفره وعذابه كفر". انتهى كلامه رفع مقامه.

رابعًا: الاستهزاء بدين الله تعالى:

يقصد بالاستهزاء بدين الله تعالى: التجرؤ بكلام فيه الغضّ من الدين والتنقص له، وقد تكون جهة الكلام ذات الله تعالى، وقد يكون خاتم النبيين ﷺ، وقد يكون القرآن الكريم، أو أي شعيرة من شعائر الدين، وقد تكون هذه الكلمات صادرة بدون تحكم لحالات تُصيب الإنسان من مرض أو غضب أو نحوه، وقد ذكر الدكتور حسن العواجي بعضًا من أقوال أهل العلم في الحكم على الناطق بكلمة الكفر، وكيف يستدلّون بنصوص الكتاب والسنة على ذلك لنتبيّن منهجهم، ونسلم من مزالق الحكم بالتكفير فيقول:

"إن من العلماء من يقول: إن من نطق بكلمة الرّدّة وزعم أنه أضمر تورية كفر ظاهرًا وباطنًا، وقد تعقّب ابن حجر الهيثمي ذلك بأن الحكم بالكفر باطنًا فيه نظر، إلا أن يكون معنى إضمار التورية هو اعتقاد مدلول النطق مع التورية على السامع، ومنهم من أضاف إلى ذلك أن يكون القول صادرًا عن عناد، أو استهزاء فإنه يحكم على صاحبه بالكفر الاعتقادي بحسب ما ظهر منه، وإن لم يضمر كفرًا. وأما من قال كلمات الكفر معتقدًا لها، أو قالها مستهزئًا ساخرًا فإنه يحكم عليه بالكفر، وهذا مما نقل حكايته عن أكثر العلماء، وفيما يلي بعض هذه الأقوال:

فقد نقل الشافعي # أنه سئل عن هزل بشيء من آيات الله تعالى أنه قال: هو كافر، واستدل بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦].

ونقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد بن حنبل # : أن من شتم النبي ﷺ قتل، وذلك أنه إذا شتم فقد ارتدّ عن الإسلام، ولا يشتم مسلم النبي ﷺ فتبيّن أن هذا مرتدّ، وأن المسلم لا يتصوّر أن يشتم وهو مسلم، وقال محمد بن سحنون -وهو من المالكية-: أجمع العلماء على أن شاتم النبي ﷺ والمنتقص له كافر، والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله تعالى له، ومن شك في كفره، وعذابه كفر، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن سب الله، أو سب رسوله كفر ظاهرًا وباطنًا، وساء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلًّا له، أو كان ذاهلًا عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء، وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل".

وقال النووي: من سب نبيًّا أو استخفّ به فكل هذا كفر... ولمّا سُئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن وصف المكفرات القوليّة ووصف الاستهزاء المكفر قال: العلماء استدلّوا عليها بقوله تعالى في حقّ بعض المسلمين المهاجرين في غزوة تبوك: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] فذكر السّلف والخلف أن معناها عام إلى يوم القيامة فيمن استهزأ بالله والقرآن أو الرسول، وصفة كلامهم أنهم قالوا: ما رأينا مثل قُرّائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعنون بذلك رسول الله ﷺ، والعلماء من أصحابه؛ فلما نقل الكلام عوف بن مالك أتى القائل يعتذر أنه قاله على وجه اللعب كما يفعل المسافرون، فنزل الوحي أن هذا كفر بعد الإيمان، ولو كان على وجه المزح والذي يعتذر يظن أن الكفر إذا قاله جادًّا لا لاعبًا، ثم قال # : إذا فهمت أن هذا هو الاستهزاء فكثير من الناس يتكلم في الله ﷻ بالكلام الفاحش

عند وقوع المصائب على وجه الجد، وأنه لا يستحق هذا، وأنه ليس بأكبر الناس ذنبًا.

وقال صديق حسن خان -مشيرًا إلى سب الله ورسوله ودينه-: وكل هذه الأفعال موجبة للكفر الصريح ففاعلها مرتد حده حده". انتهى.

وأخيرًا: نستخلص أنه ينبغي للمسلم التحرّز من ملابسة هذا الناقض، وأن لا يصدر منه كلام أو فعل تشمّ منه رائحة الاستهزاء والسخرية في جهة الله تعالى، أو جناب رسوله ﷺ أو أي شعيرة من شعائر الدين، كما يفعل الجهلة والفسقة المستهزئون.

تمام النعمة بكمال الرسالة الإسلامية، وأنه لا يبلغ أحد من الناس مرتبة النبي ﷺ

أولًا: تمام النعمة بكمال الرسالة الإسلامية:

الرسالة السماوية نعمة من نعم الله إلى خلقه يبين لهم فيها أوامره ونواهيه، ومصالح الخلق في معاشهم ومعادهم، يقول الإمام الماوردي # : "لا منزلة في العالم أعلى من النبوة التي هي سفارة بين الله تعالى وعباده، تبعث على مصالح الخلق، وطاعة الخالق، فكان أفضل الخلق بها أخصهم وأكملهم بشروطها أحق بها وأمسّ". انتهى كلامه.

فالرسالة ضرورية للعالم فهي نوره وروحه وحياته كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية # : "الرسالة ضرورية للعباد، ولا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته؛ فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟! والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس

الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة، وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورًا يمشي في الناس، وأما الكافر فميت القلب في ظلمات الكفر". انتهى كلامه. هذا عن الرسالة السماوية عمومًا.

أما رسالة الإسلام فقد تميّزت عن الرسالات السماوية السابقة بشمولها بكل ما ينطوي تحت هذه الكلمة من أبعاد ودلالات زمانية ومكانية، ونظرة مستوعبة للإنسان ولهذا الكون الذي يعيش فيه، وللدار الآخرة التي هو صائر إليها، فالرسالة الإسلامية هي الرسالة السماوية الوحيدة التي امتدّت طولًا حتى شملت آباد الزمن، وامتدّت عرضًا حتى انتظرت آفاق الأمم، وامتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة، وقد أشار القرآن إلى معنى الشمول في رسالة الإسلام في غير موضع، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قال الإمام ابن كثير # في تفسير هذه الآية: "أي فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه... وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا". انتهى كلامه.

وقال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩]. نقل الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية عن ابن مسعود > أنه قال: "قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء"، وقال مجاهد: "كل حلال وكل حرام"، ثم قال ابن كثير -معلقًا على هذين القولين-: وقول ابن مسعود أعمّ وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم". انتهى كلامه.

ومن كلام ابن كثير # في تفسير هذه الآية وبيان نعمة الله بتمام هذا الدين قوله: "هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة، حيث أكمل الله تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم ﷺ ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن؛ فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه، ولا خُلف كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه". انتهى كلامه.

ثم نقل ابن كثير # ضمن كلامه حول سبب نزول هذه الآية: أن رجلًا من اليهود جاء إلى عمر بن الخطاب > فقال: يا أمير المؤمنين. إنكم تقرءون آية في كتابكم لو علينا -معشر اليهود- نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا قال: وأي آية؟

قال: قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة وكلاهما بحمد الله لنا عيد". انتهى كلامه.

لقد جمعت رسالة الإسلام الخاتمة محاسن جميع الرسالات السابقة وزادت عليها، وفاقتها كمالًا، وجمالًا، وجلالًا، يقول الحسن البصري # : "أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها أربعة: التوراة، والإنجيل، والزبور، والفرقان (القرآن)، ثم أودع علم الثلاثة الفرقان" أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان)، والسيوطي في (الإكليل في استنباط التنزيل).

ولله درّ العلامة ابن القيم # فقد بين معنى الشمول في رسالة الإسلام بيانًا شافيًا، فقال: "وعموم رسالته ﷺ بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم، وعلومهم، وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلى أحد بعده، وإنما حاجتهم إلى من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرّق إليهما تخصيص عموم بالنسبة إلى المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلى كل ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه؛ فرسالته كافية شافية عامة لا تحوج إلى سواها، ولا يتمّ الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا، وهذا... وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علمًا، وعلّمهم كل شيء حتى آداب التخلي، وآداب الجماع، والنوم، والقيام والقعود، والأكل والشرب... وبالجملة فجاءهم بخيري الدنيا والآخرة برمّته، ولم يحوجهم الله إلى سواه". انتهى كلامه.

وتتضح خصيصة الكمال والشمول في رسالة الإسلام ببيان أن الأنبياء أعلنوا من خلال دعواتهم أنهم مسلمون، ودعوا إلى الإسلام، فلقد قال نوح # : ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، وإبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨]. ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب -عليهما السلام- فقالا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، ويوسف # دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وعن أبي ذر > قال: "لقد تركنا ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا" أخرجه الإمام أحمد في (المسند)، فلهذا شملت رسالة الإسلام بأنظمتها نواحي الحياة المختلفة، ومتطلبات المجتمع الإنساني، فكمال رسالة الإسلام وشمولها يستوعب آباد الزمن، كما يحنو بجناحيه على جميع أمم الأرض، وينتظم جميع شئون الحياة في الدنيا والآخرة.

وقد تأتى هذا لرسالة الإسلام بحكم كونها رسالة الخلود التي قدّر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة، فليس بعد الإسلام رسالة، ولا بعد القرآن كتاب، ولا بعد النبي ﷺ رسول، فلا غَرْوَ أن تأتي خاتمة الرسالات بكل معاني الشمول، وأبعاد الكمالات.

ثانيًا: هل يبلغ أحد من الناس مرتبة النبي ﷺ؟

إن الله تعالى يصطفي رسله من البشر كما يصطفي من الملائكة رسلًا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥].

فالنبوة: خبر خاص يكرم الله به من يصطفيه من عباده ليطلعه على شريعته بما فيها من الأوامر والنواهي، والوعظ والإرشاد، والوعد والوعيد.

وهذه الرسالة: سفارة العبد بين الله تعالى وبين ذوي الألباب من خلقه؛ ليصلح بها مناحي حياتهم ومصالحهم الدنيوية والأخروية.

أما الولاية فهي: مرتبة في الدين عظيمة لا يبلغها إلا من قام بالدين ظاهرًا أو باطنًا، أو نقول:

الولاية في الشرع: الإيمان والتقوى

وللولاية الصحيحة جانبان:

أ- جانب يتعلّق بالعبد: وهو قيامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، ثم التدرج في العبودية بالنوافل، وشتّى صور العبادات.

ب- وجانب يتعلّق بالله ﷻ، وهو: محبة هذا العبد، ونصرته، وهدايته، وتثبيته على الهداية.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢] هذه من جانب الرب ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ وهذه من جانب العبد.

وذكر الإمام ابن كثير # : أن الأولياء هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا، ولهذا قال الإمام الشافعي # : "إذا لم يكن العلماء أولياء فليس لله تعالى ولي". انتهى كلامه.

وقد نظم هذا المعنى المختار بن بونة الجكي # ، فقال:

والأولياء المؤمنون الأتقياء ❖ فالعلماء العاملون أولياء

ومهما بلغ الولي -الولاية الشرعية- من الصلاح والفلاح، ومهما ترقى في منازل الولاية حتى يبلغ ذروتها فإنه لا يبلغ منزلة النبوة، ولا يقاربها، ولا يزاحمها.

وإذا كان الصوفية يؤمنون بالنبوة حسب تعريفنا السابق في الجملة؛ فإنهم نظروا إلى الولاية نظرة مخالفة للشرع، ومصادمة للنص، فجعلوها دائرة يدخل فيها التقي وغير التقي، فكل من ظهر على يديه أمر خارق للعادة أو زعموا أن فيه سرًّا إليها، أو انتسب إلى سلسلة المشايخ أو أرباب الطرق، ولهذا لما سُئل شيخ الطريقة التيجانية عن الولي فقال: "الولي من تولى الله أمره بالخصوصية، مع مشاهدة الأفعال والصفات". انتهى كلامه.

وقال المرسي -من أئمة الصوفية-: "إن الولي لو كشف للناس لعبدوه؛ لأن حقيقة الولي أنه يسلب من جميع البشرية ويتخلى بالأخلاق الإلهية ظاهرًا وباطنًا، ولذا لو كشف الولي للعبد لعبده، وقالوا: إن دائرة الولي أوسع من دائرة النبي، وهذا تفضيل منهم للولي على النبي بأسلوب خفي". انتهى كلامه.

ويقول السرهندي -مبينًا مقام النبوة والولاية عند الصوفية: "وأنه يصح أن يشارك الولي النبي فيصبح لابسًا للوشاحين ومتربعًا فوق المقامين، فيقول: ينبغي أن يعلم أنه يصح أن يصل شخص من طريق قرب الولاية إلى قرب النبوة، ويكون شريكًا في كلتا المعاملتين، ويعطى محلا هناك -أيضًا- بتطفل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويجعل معاملة كلا الطرفين مربوطة به ليس على الله به:

ليس على الله بمستنكر ❖ أن يجمع العالم في واحد

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [المائدة: ٥٤]". انتهى كلامه.

إذن لم يقف غلاة الصوفية عند تعظيم الأولياء وادعاء الحفظ لهم، والعصمة، بل زادوا في الخرافة وتنقيص الأنبياء فادّعوا أن مرتبة الولاية أعلى من مرتبة النبوة، وفي ذلك يقول ابن عربي الصوفي:

مقام النبوة في برزخ ❖ فويق الرسول ودون الولي

وقال أيضًا:

بين الولاية والرسالة برزخ ❖ فيه النبوة حكمها لا يجهل

وهذا كله من الغلوّ الفاحش في الأولياء؛ حيث إنهم بالغلو المرفوض شرعًا إذا أرادوا أن يتكلموا عن هؤلاء الأولياء وخوارقهم، وما أعطوا من القدرة والأحوال؛ فإنهم ينسون مقام النبوة، ومنزلة الرسالة، وحقوق النبي ﷺ فيقعون في تنقيصه ﷺ كما حصل ذلك عند ثلاث طوائف: هي الفلاسفة، والرافضة، والصوفية.

فإذا خيم هذا الاعتقاد في ذهن المريد سمح له ذلك بأن يعتقد أن هذا الولي يحق له أن يشرع للمريدين شرائع، ويحل لهم أمورًا، ويحرم عليهم أشياء لم تردِ في سنة النبي ﷺ فيكون بذلك مسوغين للخروج عن شريعة المصطفى ﷺ. وهذا أمر في واقع الأمر يؤدي إلى ردّ السنة ومعارضة الشريعة الإسلامية التي أكملها الله تعالى لرسوله ﷺ؛ فيكون معتقد قد وقع في ناقض من نواقض التوحيد، وخرج من دائرة الإسلام ودخل في دوامة الرّدّة، وغسل يده من الشريعة.

الصحيح في قصة الخضر مع موسى ﷺ وأقوال العلماء في تكفير من أجاز الخروج على شريعة خاتم النبيين

ذكر الله تعالى قصة الخضر مع موسى # في سورة الكهف في قول الله تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]، وقد اختلف أهل العلم في الخضر هل هو نبي، أو رسول، أو ولي، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # : "هذا العبد المذكور في الآية هو الخضر # إجماع العلماء... والعلماء مختلفون في الخضر هل هو نبي، أو رسول، أو ولي، كما قال الراجز: -

واختلفت في خضر أهل العقول ❖ قيل نبي أو ولي أو رسول؟!

وقيل ملك". انتهى كلامه.

ورجح الشيخ عبد الرحمن السعدي # أنه عبد صالح وليس نبيًّا -على الصحيح- "أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه، وحسن عمله... وكان قد أعطي من العلم ما لم يعطَ موسى، وإن كان موسى # أعلم منه في أكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فضّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل، وغير ذلك فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة والإخبار عن مطلبه: ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦] أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق من تلك القضايا؟ وكان الخضر قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير من الأشياء التي خفيت -حتى- على موسى # ". انتهى كلامه.

ثم اتبع موسى الخضر بعد تلك الشروط والعزم على الصبر، فلما رأى موسى من الخضر أشياء تخالف في الظاهر الشرع الذي بعث به لم يستطع الصبر، فأنكر على الخضر ذلك، فأصر الخضر على فراق موسى، ثم بيّن له الأسباب التي دعته إلى فعل تلك الأمور التي رآها موسى # ، فعلم موسى أن الخضر على علم عمله الله، ولم يكن موسى # مبعوثًا إلى الخضر حتى يتّبع الخضر موسى، بل كان موسى مبعوثًا إلى قومه بني إسرائيل خاصة.

أقوال العلماء في تكفير من أجاز الخروج على شريعة خاتم النبيين:

تقدم أن أصحاب هذا الاعتقاد يحتجون على باطلهم بقصة موسى مع الخضر كما قدمنا، وذلك من وجهين - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - :

أولًا: "أن يقولوا: إن الخضر كان مشاهدًا الإرادة الربّانية الشاملة والمشيئة الإلهية العامة، وهي الحقيقة الكونية؛ فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والنهي الشرعي، وهو من عظيم الجهل والضلال... وهذا الكفر بجميع كتب الله ورسله، وما جاءوا به من الأمر والنهي... أيضًا فلو كان هذا هو السرّ في قصة الخضر لبين ذلك لموسى وقال: إني كنت شاهدًا للإرادة والقدر، وليس الأمر كذلك بل بين له أسباب شرعية تبيح له ما فعل...

وأما الوجه الثاني: فإن من هؤلاء من يظنّ أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية، كما يساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمخاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها، وكثير منهم يفضل الولي في زعمه إما مطلقًا وإما من بعض الوجوه على

النبي، زاعمين أن في قصة الخضر مع موسى حجة لهم، وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات؛ بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر. فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد ﷺ لجميع الناس، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته، وطاعته، وملازمته ما يشرعه لأمته من الدين، وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات؛ بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعته، ومطاوعته.

ومما يبيّن الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة أن موسى # لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولا أوجب الله على الخضر متابعته وطاعته؛ بل قد ثبت في الصحيحين: "أن الخضر قال له: يا موسى: إني على علمٍ من علم الله علّمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لا أعلمه، وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة، وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: إني أعلم من علم الله علّمنيه الله لا تعلمه، ومن سوغ هذا، أو اعتقد أن أحدًا من الخلق: الزّهاد والعباد، أو غيرهم له الخروج عن دعوة محمد ﷺ ومتابعته فهو كافر باتفاق المسلمين، ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا، وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة، ولهذا لما بيّن الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى، ولم يختلفا حينئذٍ، ولو كان ما فعله الخضر مخالفًا لشريعة موسى لما وافقه". انتهى كلامه.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # : "وبالجملة فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرّب إليه به من فعل وترك -إلا عن طريق الوحي- فمن ادّعى أنه غني في الوصول إلى ما

يرضي ربه عن الرسل، وما جاءوا به ولو في مسألة واحدة فلا شك في زندقته، وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقًا باطنة توافق الحق عند الله، ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى- زندقة، وذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره".

انتهى كلامه.

وقال العلامة ابن القيم # : "ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول ﷺ بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرًا، وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وهذا تارة فما يلقى في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول، ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان". انتهى كلامه.

وجملة القول: إن كل الطرق مسدودة إلا من أتى خلف رسول الله ﷺ وكل الشرائع ملغاة إلا شريعته ﷺ.

الإعراض الكلي عن دين الله تعالى
أو عما لا يصح الإسلام إلا به

عناصر الدرس

العنصر الأول :	المراد بالإعراض، وأنواع الإعراض عن دين الله	٣٥٩
العنصر الثاني :	تحذير القرآن الكريم والسنة النبوية من هذا الناقض	٣٦٥

المراد بالإعراض، وأنواع الإعراض عن دين الله

ما زالت دروسنا تتوالي في بيان نواقض التوحيد، وهوادم العقيدة، وكما كما جرت العادة فإنه يحسن بي أن أشير إلى شيء مما أخذناه في الدرس السابق؛ حيث تناولنا ناقضًا من نواقض التوحيد: وهو من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى # . وبينا في هذا الدرس شيئًا من تمام النعمة بكمال الرسالة الإسلامية، وأن الله تعالى قد أكمل ببعثة النبي محمد ﷺ الدين، وأتم الرسالة؛ بحيث لم يحوج المؤمنين برسالة الإسلام إلى أي دين آخر، أو نظام غير النظام الذي جاء به الإسلام، وذلك ما وضحته الآية الكريمة التي نزلت يوم الجمع في عرفة، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فبرسالة الإسلام ختم الله تعالى الرسالات وبإرسال الرسول محمد بن عبد الله ﷺ ختم الله الرسل، فلذلك كانت رسالة الإسلام مهيمنة على كل الرسالات السماوية السابقة، وزادت عليها كمالًا وجمالًا وجلالًا، ثم تناولنا قضية مهمة تتعلق بحقوق النبي ﷺ على أمته ألا وهي تعزيره وتوقيره وتعظيمه، والإيمان بأنه لا يبلغ أحد مرتبه ولا يزاحمه ولا يقاربه، وإن زعم زاعم من غلاة الصوفية أن الولي قد يصل في الصفاء والمجاهدة منازل الأنبياء، وقد يتعدّاهم، كما نقلنا التصريح بذلك في شعر ابن عربي الصوفي الذي يقول:

مقام النبوة في برزخ ❖ فويق الرسول ودون الولي

ثم بينا الصحيح في قصة الخضر مع موسى # وأن الخضر مختلف في كونه نبيًّا أو رسولًا، أو عبدًا صالحًا، وأنه كان على علم علمه الله لم يعلمه موسى، وأن موسى تَبعه ليتعلّم منه ذلك العلم، ولم يكن موسى مرسلًا إليه، كما أن الذي

فعله الخضر لم يكن في الباطن مخالفًا لشريعة موسى، فلذلك اتّضح أن الاستدلال بقصة خروج الخضر على شريعة موسى على أنه يسوغ لبعض الناس الخروج عن شريعة النبي محمد ﷺ؛ لأن القرآن والسنة وأقوال علماء الأمة حذّرت من ذلك، وأمرت بالبعد عمّا هنالك. إذا تقرّر ذلك فنحن الآن أمام ناقض جديد من نواقض التوحيد، يلتقي مع النواقض السابقة المتعلّقة ببعض شيء مما جاء به الرسول ﷺ، أو ثواب الله تعالى أو عقابه، أو اعتقاد أن حكم غير النبي ﷺ أكمل من حكمه، وأفضل، أو اعتقاد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة نبيّا محمد ﷺ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى # ، أو الاستهزاء بشيء من دين الله تعالى، هذا الناقض الجديد هو: الإعراض الكلي عن دين الله تعالى، أو عمّا لا يصح الإسلام إلا به، لا يتعلمه، ولا يعمل به، وكما ترون فإن القاسم المشترك بين هذه النواقض هو الطعن في الرسالة ودين الإسلام، أو التنقيص والحط من رتبة النبي ﷺ، فكل واحد من هذين الأمرين ناقض للتوحيد، وهادم للعقيدة.

أولًا: المراد بالإعراض عن دين الله تعالى:

المراد بالإعراض عن دين الله تعالى هو معارضته وتركه، واعتباره غير صالح للبشر في معاشهم ومعادهم، وذلك نتيجة حتمية للتكبر والأنفة عن الاستجابة للحق، وقد يكون بتقديم القوانين البشرية الوضعية عليه، وادّعاء أن هناك شريعة من الشرائع، أو نظامًا من الأنظمة أفضل من دين الله تعالى الذي جاءت به رسالة الإسلام، وبلغه رسول البشرية محمد ﷺ، ويعتبر في الإعراض عن دين الله تعالى نكرانه بالقلب، واعتقاد أنه غير صالح للحضارة المعاصرة -كما يدّعيه الحداثيّون، والشيوعيون، والقوميون، واللادينيون- كما أنه يشترط في

الإعراض عن دين الله تعالى أن يكون كليًّا، أي: عن الدين كله، أو عمّا لا يصح الإسلام إلا به، بحيث لا يتعلمه المرء، ولا يعمل به، ونجد أن الإعراض عن دين الله تعالى يتمثّل في الصد عنه تمثلًا تامًّا، كما هو شأن صناديد الكفار من قريش الذي بعث فيهم خاتم النبيين محمد بن عبد الله ﷺ ونزول الوحي بين ظهرانيهم، ورأوا الآيات والنذر فلم يؤمنوا بالرسالة، ولم يصدقوا خاتم النبيين؛ بل أعرضوا عن الدين إعراضًا كليًّا ووقفوا في وجه الدعوة صادين معرضين ومعاندين أمثال أبي جهل، وأبي لهب، وأمية بن خلف، وأمثالهم.

ثانيًا: المعرضون عن دين الله أنوع:

اعلموا -رحمني الله وإياكم- أن المعرضين عن دين الله تعالى وعن تعلّمه صنفان:

أ- عالم معرض.

ب- وجاهل معرض.

يقول الدكتور حسن العواجي: "فأما العالم فيكون إعراضه نتيجة للكبر والأنفة عن الاستجابة للحق، فهذا يحكم عليه بالكفر متى تحققت الشروط، وانتفت الموانع؛ إلا أن المعرض إن كان ممن يظهر الإسلام؛ فإن النصوص الواردة في الإعراض عن ذكر الله يمكن أن تحمل في حقه على الوعيد، فإن علم الله أنه يضمر الكفر، ويظهر الإسلام فإن كان كافر عند الله تعالى، وإن حكم له الناس بالإسلام في الظاهر، وإن كان عنده أصل الإيمان مع الإعراض عصيانًا وتقديمًا لشهواته، ورغباته على آخرته، فإنه يعامل على قدر ما عنده من شُعب الإسلام والإيمان وما عنده من شعب الكفر والعصيان، وأما الجاهل فإن كان جاهلًا بأصل

الذين لم تبلغه الدعوة، فإنه غير مكلّف حتى تبلغه الدعوة، وحُكْمُهُ حكم أهل الفترة عند كثير من أهل العلم، وإن كان جاهلًا متبعًا لقومه على الكفر يعمل ما يعملون، ويترك ما يتركون لا ينظر ولا يجتهد في المعرفة، فهذا لا عذر له، فمتى تحقّقت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه حكم بكفره، وإن كان مع جهله مسلمًا؛ لكنه معرض عن الكتاب السنة لجهله بما فيهما، متبعًا لهواه، عاجز عن السؤال والعلم المرشد، فإنه لا يخرج عن الملة ما دام كذلك، ولكنه مخوّف بالنصوص الواردة في معرض عن ذكر الله" انتهى كلامه.

وقال الشيخ عطية محمد سالم # مبينًا الحذر من المعرضين والصادين عن دين الله تعالى: "وهنا وقفة في نهاية هذا العرض لنخرج بأمرين هامين:

الأول: الحذر واليقظة من هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنياهم، وهدايتهم بضلالهم، واقتحموا أبواب النار على بصيرة أن يفتنونا عن ديننا كما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤- ٤٥]

فهم يريدون للمسلمين أن يضلوا السبيل، ونظيره ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ومع اختصاص الله سبحانه برحمته من يشاء يحاولون لو يرون المسلمين كفار إلا لشيء إلا الحسد كما قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ

﴿ٱلۡحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وكما قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [المائدة: ٤٩].هذا من جانب المحاذرة من أهل الكتاب.

والأمر الثاني: تحذير بعض من يستهويهم الشيطان فيقع منهم بعض ما وقع من أولئك فيكون فيه شبه منهم، ويتوجّه إليه الوعيد الذي توجّه إليهم" انتهى كلامه.

ثالثًا: أنواع الإعراض عن دين الله تعالى:

إذا نظرنا في أحوال المعرضين عن دين الله تعالى، وما يؤول إليه الأمر عند الإعراض عن دين الله تعالى نجد أن الإعراض عن دين الله تعالى يرجع في الأصل إلى نوعين:

النوع الأول: إعراض مخرج من الملة، كمن يعرض عن دين الله تعالى قصدًا، لا يعلمه ولا يتعلّمه ولا يعمل به.

النوع الثاني: إعراض غير مخرج من الملة، كالمعرض لعجزه عن السؤال والعلم مع محبته للهدى والحق، وهذا النوع من الإعراض، وإن كان غير مخرج من الملة إلا أن صاحبه مذموم، ومتوعّد بكثير من العقاب في كثير من النصوص.

يقول الدكتور حسن العواجي وهو يتحدث عن أنواع الإعراض: "وعلى هذا فالإعراض نوعان:

أحدهما: يخرج من الملة وهو الإعراض عن دين الله لا يعلمه، ولا يتعلمه، ولا يعمل به، وهذا المعرض هو الذي لا إرادة له في تعلم الدين، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه؛ بل هو راضٍ بما هو عليه من الكفر بالله، والإشراك به.

والثاني: الذي لا يخرج من الملة: وهو المعرض لعجزه عن السؤال، والعلم الذين يتمكّن به من العلم والمعرفة مع إرادته، وإيثاره له، ومحبته له، لكنه غير قادر عليه، ولا على طلبه لعدم المرشد، وليس المقصود بتعلم الدين الذي يكفر بتركه هو معرفة تفاصيل الإيمان بالله ورسوله، وتفاصيل ما شرعه الله ورسوله من الأحكام، بل المقصود تعلم الإيمان العام المجمل" انتهى كلامه.

فإذًا يكفي مجرد معرفة ما يصح الإيمان به إجمالًا، كما كان الرجل يدخل في الإسلام، ولم تنزل بعض الشرائع بعدُ، فيكون مأمورًا بالذي نزل وأمر به، غير مأمور بباقي الأوامر الشرعية، فكذلك المسلم لا يطلب منه أن يكون ملمًّا بتفاصيل مسائل الإيمان وأركانه، وإن كان العلم بذلك من تعلم الدين وهو أمر مطلوب، وقد رغب الشاعر فيه، إلا أن تركه والاكتفاء بما يصح به إيمان المرء لا يخرج المرء من الإسلام ولا يقدح في عقيدته، ولا يعتبر ناقضًا من نواقض الإيمان، بعكس المعرض عن التعلم، والصدر عن ذلك، وعدم المبالاة بمعرفة الدين، وتعلم ما يصح الإيمان به، وهذا الأمر الذي نتحدث عنه وأن المسلم ينبغي أن لا يجهله من مسائل الإيمان حتى لا يكون من المعرضين عن الله تعالى، هو الذي يعبر عنه العلماء بالمعلوم من الدين بالضرورة.

تحذير القرآن الكريم والسنة النبوية من هذا الناقض

لقد اهتمّ القرآن الكريم ببيان حال المعرضين عن دين الله تعالى أتمّ بيان، وركّزت الآيات القرآنية على التحذير من الإعراض عن دين الله تعالى، والتجافي عنه، وأن ذلك الإعراض قد يُخرج بصاحبه من الملة الإسلامية -والعياذ بالله تعالى-، ومن الآيات المحذرة من الإعراض عن دين الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

فالمعيشة الضنك وهي الضيقة سببها الإعراض عن دين الله تعالى، يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # مبينًا معنى الآية: "معنى ذلك أن الله ﷻ جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل على الله، والرضا بقسمته فصاحبه ينفق مما رزقه الله بسماح وسهولة، فيعيش عيشًا هنيئًا، ومما يدل على هذا المعنى من القرآن قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ٣]. كما تقدّم إيضاح ذلك كله، وأما المعرض عن الدين فإنه يستولي عليه الحرص الذي لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا مسلّط عليه الشح الذي يقبض يده عن الإنفاق فعيشته ضنك، وحاله مظلمة، ومن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة بسبب كفره كما قال تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٦١] الآيات وذلك من العيش الضنك بسبب الإعراض عن ذكر الله، وبين في مواضع أُخَر أنهم لو تركوا الإعراض عن ذكر الله فأطاعوه تعالى أن عيشهم يصير واسعًا رغدًا لا ضنكًا، كقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ

أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة:٦٦] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:٩٦] الآية، وكقوله تعالى عن نوح: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح:١٠- ١٢]، وقوله تعالى عن هود: ﴿ وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود:٥٢] الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن:١٦- ١٧] إلى غير ذلك من الآيات" انتهى.

٢- وقول الله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:١٣] يقول الإمام ابن كثير # في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلّت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين" انتهى كلامه.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي #: "أي: فإن أعرض هؤلاء المكذبون بعدما بيّن لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً ﴾ [فُصِّلت:١٣] أي: عذابًا يستأصلكم ويجتاحكم ﴿ مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ القبيلتين المعروفتين؛ حيث اجتاحهم العذاب وحلّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم" انتهى.

٣- وقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ [السجدة:٢٢] يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في

تفسير هذه الآية: "أي: لا أحد أظلم وأزيد تعديًا ممن ذُكّر بآيات ربّه التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته وتكميل نعمته عليه على يد رسله تأمر، وتذكّره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضارّه الدينية والدنيوية التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها، ولا اتّبعها، بل أعرض عنها، وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين الذين يستحقون شديد النقمة" انتهى كلامه.

٤- وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧] يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسيره لهذه الآية: "يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا، ولا أكبر جرمًا من عبد ذُكّر بآيات الله، وبيّن له الحق من الباطل والهدى من الضلال، وخُوِّف ورُهِّب فأعرض عنها فلم يتذكّر بما ذُكِّر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يداه من الذنوب، ولم يراقب علّام الغيوب، فهذا أعظم ظلمًا من المعرض الذي لم تأتِهِ آيات الله، ولم يُذكّر بها، وإن كان ظالمًا فإنه أخفّ ظلمًا من هذا؛ لكون العاصي على بصيرة وعلم أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشرّ مع علمه بها" انتهى.

وقد بيّن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # أشياء عدّها من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن دين الله تعالى؛ حيث يقول: "وما ذكره في هذه الآية الكريمة من أن الإعراض عن التذكرة بآيات الله من أعظم الظلم قد زاد عليه في مواضع أخر بيان أشياء من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكرة، فمن نتائجه السيئة ما ذكره هنا من أن صاحبه من أعظم الناس ظلمًا، ومن نتائجه السيئة جعل الأكنة على القلوب

حتى لا تفقه الحق، وعدم الاهتداء أبدًا كما قال هنا مبينًا بعض ما ينشأ عنه من العواقب السيئة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧]، ومنها: انتقام الله -جل وعلا- من المعرض عن التذكرة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] ومنها: كون المعرض كالحمار كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٩- ٥٠] الآية:، ومنها: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] الآية، ومنها: المعيشة الضنك والعمى كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

ومنها: سلْكه العذاب الصَّعد، كما قال تعالى ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧]، ومنها: تقييض القرناء عن الشياطين كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] إلى غير ذلك من النتائج السيئة، والعواقب الوخيمة الناشئة عن الإعراض عن التذكير بآيات الله" انتهى كلامه.

٥- وقول الله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ المدثر: ٤٩-٥١.

يقول الإمام ابن كثير: # في تفسيرها: "أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك مّما تدعوهم إليك وتذكرهم به معرضين ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: كأنهم في نفارهم عن الحق، وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش إذا فرّت ممن يريد صيدها من أسد، أو رام" انتهى كلامه.

٦- وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي # في تفسير هذه الآية: "يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره فقال: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يعرض ويصدّ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردّها فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه، ويَعِدُهُ ويمنِّيه، ويؤزُّه إلى المعاصي أزًّا" انتهى كلامه.

ثم طرح الشيخ السعدي سؤالًا وهو: من صدّه الشيطان عن السبيل، وهو يعتقد أنه على الجادة هل له عذر في ذلك؟

ثم أجاب الشيخ بقوله: "قيل لا عذر لهذا أمثاله الذي مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكّنهم على الاهتداء، فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل؛ فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم، فهذه حالة المعرض عن ذكر الله في الدنيا مع قرينه، وهو الضلال والغي، وانقلاب الحقائق" انتهى كلامه.

وقد حذّر الله من أولئك المعرضين فأمر بالإعراض عن المعرض عن ذكره، القاصر في نظره على الحياة يقول الشيخ محمد الأمين الشنقيطي # : "وقد أمر تعالى في موضع آخر بالإعراض عن المتولي عن ذكره القاصر نظره على الحياة الدنيا، وبيّن أن ذلك هو مبلغه من العلم، فلا علم عنده بما ينفعه في معاده، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩- ٣٠].

وقد نهى جل وعلا عن طاعة مثل ذلك المتولي عن الذّكر الغافل عنه في قوله: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] كما تقدم إيضاحه" انتهى.

تحذير النبي ﷺ من الإعراض عن دين الله:

أما التحذير فقد ورد في السنة المطهرة فقد جاء الوعيد لأولئك المعرضين في حديث أبي واقد الليثي > أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه؛ إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد قال: فوقفا على رسول الله ﷺ؛ فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا فلما فرغ الرسول الله ﷺ قال: ((ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا من الله فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض عن الله، فأعرض الله عنه)) متفق عليه.

فبسبب هذا الإعراض الذي حصل من هذا الرجل عن مجلس رسول الله ﷺ فقد استحقّ سخط الله عليه، وعدم رحمته، وذكر الحافظ ابن حجر # أن هذا محمول بالنسبة للمسلم على من ذهب معرضًا لا لعذر، وأنه يحمل على أن هذا الرجل منافق قد أخبر النبي ﷺ بحاله وسخط الله عليه، وأن هذا وعيد يُخاف منه ويُخشى على صاحبه.

إمكان وقوع نواقض التوحيد
من المعينين، وتكفيرهم بذلك

عناصر الدرس

العنصر الأول :	أنواع التكفير، وشروطه	٣٧٣
العنصر الثاني :	خطورة التكفير، وإمكان الحكم بالكفر على المعينين	٣٧٧

أنــــواع الــــتكفير وشـــــروطه

أولًا: أنواع التكفير:

قسم العلماء الكفر إلى قسمين:

أ- كفر مخرج من الملة: وينقل صاحبه من ديانة الإسلام، وحظيرة الشريعة إلى دائرة الكفر ودوامة الردة.

ب- وكفر غير مخرج من الملة: وهو دون الأول.

ويمكن أن نقول: إن الكفر نوعان:

١- كفر اعتقادي: وهو المخرج من الملة.

٢- وكفر عملي: غير مخرج من الملة، وهو الذي عبر عنه بعض العلماء بقوله: "كفر دون كفر"، وهذا التقسيم للكفر تبع لتقسيم أهل العلم للشرك؛ فإنهم قسموه إلى قسمين:

أ- شرك أكبر: وهو المخرج من الملة.

ب- **شرك أصغر:** كيسير الرياء، وهو غير مخرج من الملة.

فإذا طبقنا هذا التقسيم على الناقض التالي: وهو من اعتقد أن هدي غير النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه؛ يقول الدكتور حسن العواجي: "فإن كان تحكيمه لغير الرسول ﷺ مع الاعتقاد أنه أفضل من حكم الرسول أو يساويه؛ فهذا كفر اعتقادي مخرج من الملة. وإن كان تحكيمه لغير حكم الرسول لهوى في نفسه أو لغرض دنيوي مع الإيمان بأن حكم الرسول حق، وأنه

أفضل من غيره من القوانين، فهذا كفر عملي تقام الحجة على صاحبه، ويبين له الحق، فإن أصرّ حُكم على صاحبه بالكفر الاعتقادي، وكل الأنواع متوعدة بالعذاب؛ لأنه إقدام على كفر سواء اعتقد كذب الرسول الذي جاء بهذا الهدي أو لم يعتقد، ولكن استكبر عن الإيمان به، أو أنه أعرض عنه اتباعًا لهواه، أو ارتاب فيما جاء؛ فكل مكذب ما جاء به فهو كافر، ويدل على ذلك فهم السلف لقول تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] حيث قال ابن عباس { : "ليس بكفر ينقل عن الملة"، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وقال طاوس مثله، وقال عطاء: "كفر دون كفر"، ونقل ابن عبد البر إجماع العلماء على أن من دفع شيئًا أنزله الله مع الاعتراف بما أنزل الله أنه كافر، ومعلوم أن المراد بالكفر هنا: إما أن يكون الكفر الاعتقادي، أو العملي، فإن كان معترفًا بما أنزله الله، وأنه حق، ثم كابر، ودفع عن علم ومعرفة؛ فإنه يحكم عليه بالكفر الاعتقادي، وإن كان معترفًا بما أنزله الله، وأنه حق إلا أنه يحكم بغيره لشهوة أو هوى أو نحو ذلك؛ فإنه كفَرَ كُفْرًا عمليًّا يبين له وتقام عليه الحجة، فإن أصر؛ حكم بكفره اعتقاديًّا". انتهى كلامه.

إذًا؛ فالعلماء بيَّنوا أنواع الكفر التي يحكم بها على من تلبس بشيء من النواقض؛ لئلا يشتبه الأمر على الناس فيقعون في بدعة التكفير: وهي التسرع في إصدار أحكام الكفر على الآخرين، وادعاء وقوعهم في الردة، وخروجهم من دائرة الإسلام لأتفه سبب، فقد يكون المرء صدر منه أمر منهي عنه وقبيح في الشرع إلا أنه لا يصل درجة الكفر المخرج من الملة، فيكون من الظلم والتجرؤ الحكم على أنه خرج من دائرة الإسلام، وهدم إيمانه ونقض توحيده، ونفض يديه من اتباع الرسول محمد ﷺ.

ثانيًا: شروط التكفير وموانعه:

لما كان الحكم على الشخص بأنه كافر، مما يعني: أنه قد خرج من دائرة الإسلام، ودخل في دائرة الردة والكفر -والعياذ بالله- وهذا أمر في غاية الخطورة، أقول: لما كان الأمر كذلك؛ فإن أهل العلم استنبطوا من نصوص الكتاب والسنة شروطًا لا بد من توفرها للحكم على الشخص المعين بالكفر، وقد صرح بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وكثير من أهل العلم -رحمهم الله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -في كلامه عن تكفير من يترك شيئًا من الأركان الخمسة-: "ولهذا تنازع العلماء في تكفير من يترك شيئًا من هذه الفرائض الأربع بعد الإقرار بوجوبها، فأما الشهادتان: إذا لم يتكلم بهما مع القدرة؛ فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها، وذهبت طائفة من المرجئة -وهم جهمية المرجئة: كجهم، والصالحي، وأتباعهما- إلى أنه إذا كان مصدقًا بقلبه؛ كان كافرًا في الظاهر دون الباطن، وقد تقدم التنبيه على أصل هذا القول، وهو قول مبتدع في الإسلام لم يقله أحد من الأئمة، وقد تقدم أن الإيمان الباطن يستلزم الإقرار الظاهر وغيره؛ بل وإن وجود الإيمان الباطن تصديقًا وحبًّا وانقيادًا بدون الإقرار الظاهر ممتنع، وأما الفرائض الأربع، فإذا جحد وجوب شيء منها بعد بلوغ الحجة فهو كافر، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرمات الظاهرة المتواتر تحريمها؛ كالفواحش، والظلم، والكذب، والخمر، ونحو ذلك، وأما من لم تقم عليه الحجة مثل: أن يكون حديث عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام المتواتر تحريمها؛ كالفواحش، والظلم، والكذب، أو نشأ ببادية بعيدة لم تبلغه فيها شرائع الإسلام، ونحو ذلك، أو غلط فظن أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛

فإنهم يستتابون وتقام الحجة عليهم، فإن أصروا كفروا حينئذٍ ولا يحكم بكفرهم قبل ذلك، كما لم يحكم الصحابة بكفر قدامة بن مظعون وأصحابه لما غلطوا فيما غلطوا فيه من التأويل، وأما مع الإقرار بالوجوب إذا ترك شيئًا من هذه الأركان الأربعة؛ ففي التكفير أقوال للعلماء هي روايات عن أحمد.

أحدها: أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج، وإن كان في جواز تأخيره نزاع بين العلماء؛ فمتى عزم على تركه بالكلية كفر، وهذا قول طائفة من السلف وهي إحدى الروايات عن أحمد اختارها أبو بكر.

الثاني: أنه لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الإقرار بالوجوب، وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وهو إحدى الروايات عن أحمد، واختارها ابن بطة.

الثالث: أنه لا يكفر إلا بترك الصلاة، وهي الرواية الثالثة عن أحمد، وقول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعي، وطائفة من أصحاب أحمد.

الرابع: أنه يكفر بترك الصلاة ، وترك الزكاة فقط.

الخامس: أنه يكفر بترك الصلاة وترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ترك الصيام والحج، وهذه المسألة لها طرفان:

أ- في إثبات الكفر الظاهر.

ب- في إثبات الكفر الباطن". انتهى كلامه.

وقال في موضع آخر وهو ينهى عن التسرع في التكفير: "هذا مع أني دائمًا -ومن جالسني يعلم ذلك مني- أني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسب معين إلى تكفير أو تفسيق ومعصية، إلا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها

كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية العلمية". انتهى كلامه.

وإذا نحن أمعنَّا النظر في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية # نجد أنه يشترط للحكم بالكفر على المخالف بأن يبين له الحق ويوضح له الدليل، وتزال عنه الشبهة وتقام عليه الحجة، فإن أصر بعد ذلك حُكم عليه بالكفر؛ لأنه -والحالة هذه- أصبح في عداد المعاندين للحق والمتكبرين عن الهدى، والصادين والمعرضين عن ذكر الله تعالى، فإن وجد مانع من التكفير؛ بأن وُضِّح الحق لشخص وأزيلت عنه الشبهة ورجع؛ فلا نحكم حينئذٍ بكفره، أو كان ممن لم تبلغه الدعوة، وبالجملة فإن وجدنا مانع من التكفير؛ لم يحكم على الشخص بالكفر، حتى تتوافر الشروط وتنتفي الموانع.

خطورة التكفير، وإمكان الحكم بالكفر على المعينين

أولًا: خطورة التكفير:

لا شك أن التكفير والحكم على الشخص بأنه قد خرج من دائرة الإسلام من حق الله تعالى، وحق رسوله ﷺ فلا يجوز أن نحكم على شخص بأنه قد خرج من الدين، ودخل في الردة ونكفره إلا إذا كان الله -جل جلاله- قد كفره، أو كفره رسول الله ﷺ لأن القلوب لا يعلم أسرارها إلا علام الغيوب، وقد حذر النبي ﷺ من التسرع في التكفير؛ فقال في الحديث الصحيح: ((من قال لأخيه يا كافر؛ باء بها أحدهما)) وقال ﷺ: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)) وفي (صحيح مسلم) من حديث جندب بن عبد الله > قال: قال رسول الله ﷺ: ((قال

رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك)) فيجب ترك الناس، والحكم عليهم حسب الظاهر وأن يحسن المرء الظن بإخوانه المسلمين، ولا يتجرأ في إصدار الأحكام عليهم بالكفر بمجرد الظن والوسوسة، أو مخالفة الرأي وكما قال بعض العلماء: "من دخل في الإسلام بيقين لا يخرج منه إلا بيقين"، وبسبب التساهل في التكفير؛ فقد ظهرت فرقة في المسلمين يسمون جماعة التكفير، ومنهجها: تكفير الحكام والمحكومين، وادعاء أن الناس كلهم كفار، وأن العالم الإسلامي يعيش جاهلية معاصرة تشبه حالة الجاهلية الأولى، كل ذلك بسبب ترك العلم الشرعي، وعدم التقيد بالكتاب والسنة في إصدار الأحكام، ومن ذلك مسألة التكفير.

ثانيًا: إمكان الحكم بالكفر على المعينين:

لما كانت هذه النواقض تقع في الواقع المشاهد، وأن المرء قد يتلبس بها، وأنه يصبح كافرًا، فيمكن حينئذٍ أن نحكم على معيّن بالكفر لوقوعه في ناقض معين، فمن ذبح لغير الله؛ فقد كفر بذلك الفعل، لوقوعه في ناقض معين وهو الشرك، ومن استهزأ بالله تعالى أو جعل يسخر من رسل الله، أو من دين الله تعالى، فنقول: إن هذا الإنسان المعين وقع في ناقض معين وهو الاستهزاء بدين الله تعالى أو كتابه، أو رسوله، وهكذا بقية النواقض، ومما يدل على أن المسلم يمكن أن يصبح كافرًا بعد إسلامه: ما قرره علماء الفقه في جميع المذاهب في باب حكم المرتد، يقول ابن النجار الفتوحي الحنبلي # في (منتهى الإرادات): "باب حكم المرتد: وهو من كفر، ولو مميزًا طوعًا، ولو هازلًا بعد إسلامه ولو كرهًا بحق، فمن ادعى النبوة أو أشرك بالله تعالى أو سبه أو رسولًا أو ملكًا له أو جحد

ربوبيته أو وحدانيته، أو صفة، أو كتابًا أو رسولًا، أو وجوب عبادة من الخمس، ومنها: الطهارة أو حكمًا ظاهرًا مجمعًا عليه إجماعًا قطعيًّا؛ كتحريم زنا، أو لحم خنزير، أو حلِّ خبز ونحوه، ومثله لا يجهله، أو يجهله وعُرِّف وأصرّ أو سجد لكوكب أو نحو، أو أتى بقول صريح في الاستهزاء بالدين، أو امتهن القرآن، أو ادعى اختلافه، أو القدرة على مثله، أو أسقط حرمته؛ كفر، لا من حكى كفرًا سمعه ولا يعتقده". انتهى كلامه.

يقول الدكتور صالح العبود في بيانه لعقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب # : "وهذه النواقض التي ذكرها الشيخ هي مسألة التكفير لخصها الشيخ من كلام العلماء قال الشيخ: وذكر -أي: الشيخ أبو النجا مؤلف (الإقناع في الإقناع): إجماع المذاهب كلها على ذلك، ثم قال: "كان عند أحد كلمة تخالف ما ذكروه في مذهب من المذاهب فيذكرها وجزاه الله خيرًا، والغالب أنه ليس عند أحد علم يخالف ما ذكروه وإنما العناد، يقول الشيخ: "وإن كان يبغي يعاند كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام العلماء ولا يصغي لهذا أبدًا؛ فاعرفوا أن هذا الرجل معاند ما هو بطالب حق، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

ثم بين الشيخ أن هؤلاء الذين يعتذرون بالتكفير ليس لأنه مشكل عليهم تكفير الناس بأعيانهم؛ فقد اشتبه أمرهم، بل إذا تأمل المتأمل أحوالهم يجد أن هؤلاء أعداء للموحدين يبغضونهم ويستثقلونهم، والمشركون والمنافقون هم ربعهم الذي يستأنسون إليهم كما جرى من رجال في الدرعية وفي العيينة الذين ارتدوا وأبغضوا الدين، ثم يقول الشيخ بعد أن أورد النواقض العشرة: ولا فرق في جميع هذه النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرًا، ومن أكثر ما يكن وقوعًا، فينبغي للمسلم أن يحذرها ويخاف منها

على نفسه، ويُقرِّر الشيخ أنها تقع من المعينين، وممكن أن يرتد المسلم ويكفر بعد إسلامه -والعياذ بالله- ومن ذلك فقد عُرِّف المرتد في باب حكم المرتد بأنه: المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، فهذا يفيد الحذر والخوف والاستعاذة بالله، وقد بيَّن الشيخ لرجل من أهل الْأَحْسَاءِ استشكل تكفير المعين؛ لأنه يقول "لا إله إلا الله"، وإن عبد الأوثان مع هذه عبادة أكبر من عبادة اللاة والعزى وسب دين الرسول ﷺ بعد ما شهد به مثل سب أبي جهل، فالشيخ يبين به أحكام هذه المسألة من كلام أهل العلم المتقدمين، والمتأخرين فيقول -مخاطبًا هذا المستشكل- "فأول ما أنصحك به: أنك تفكر هل الشرك الذي عندكم هو الشرك الذي ظهر نبيك ﷺ ينهى عنه أهل مكة، أو شرك أهل مكة نوع آخر أغلظ منه أم هذا أغلظ؟!.

فإذا أحكمت المسألة، وعرفت أن غالب من عندكم سمع الآيات وسمع كلام أهل المتقدمين والمتأخرين وأقربه، وقال: أشهد أن هذا هو الحق ونعرفه قبل ابن عبد الوهاب، ثم بعد ذلك يصرح بمسبة ما شهد أن الحق ويصرح بحسن الشرك واتباعه، وعدم البراءة من أهله فتفكر هل هذه المسألة إلا مسألة الردة الصريحة التي ذكرها أهل العلم في الردة؟ ولكن العجب من دلائلك التي ذكرت كأنها أتت ممن لا يسمع ولا يبصر، أما استدلالك بترك النبي ﷺ ومن بعده تكفير المنافقين وقتلهم، فقد عرفه الخاص والعام ببديهة العقل أنهم لو يظهرون كلمة واحدة، أو فعلًا واحدًا من عبادة الأوثان أو مسبة التوحيد الذي جاء به الرسول ﷺ أنهم يقتلون شر قتلة، فإن كنت تزعم أن الذين عندكم أظهروا اتباع الدين الذي نشهد أنه دين الرسول ﷺ وتبرءوا من الشرك بالقول والفعل، ولم يبقَ إلا أشياء خفية تظهر على صفحات الوجه، أو فلتة لسان في السر، وقد تابوا من دينهم الأول، وقتلوا الطواغيت وهدموا البيوت المعبودة؛ فقل لي؟!

وإن كنت تزعم أن الشرك الذي خرج عليه الرسول ﷺ أكبر من هذا فقل لي!

وإن كنت تزعم أن الإنسان لا يكفر إذا أظهر عبادة الأوثان، وزعم أنها الدين وأظهر سب دين الأنبياء وسماه دين أهل الأرض، وأفتى بقتل من أخلص لله الدين، وجل ماله؛ فهذه مسألتك وقد قررتها، وذكر أن من زمن النبي ﷺ إلى يومنا هذا لم يقتلوا أحدًا ولم يكفروه من أهل الملة، أما ذكرت قول الله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١]، واذكر قوله في الاعتقاد في الأنبياء: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٠].

واذكر قتال الصديق وأصحابه مانعي الزكاة وسبي ذراريهم، وغنيمة أموالهم، واذكر إجماع الصحابة على قتل أهل مسجد الكوفة، وكفرهم وردتهم لما قالوا كلمة في تقرير نبوة مسيلمة، ولكن الصحابة اختلفوا في قبول توبتهم لما تابوا، والمسألة في (صحيح البخاري وشرحه) في الكفالة، واذكر إجماع الصحابة لما استفتاهم عمر على من زعم أن الخمر تحل للخواص مستدلًا بقوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣] مع كونه من أهل بدر، وأجمع الصحابة على كفر من اعتقد في علي مثل اعتقاد هؤلاء في عبد القادر، وردتهم وقتلهم، فأحرقهم علي بن أبي طالب > وهم أحياء، مع كونهم من أهل القرن الأول أخذوا العلم عن الصحابة.

ولو ذهبنا نعدد من كفره العلماء مع ادعائه الإسلام، وأفتوا بردته وقتله؛ لطال الكلام، لكن من آخر ما جرى قصة بني عبيد ملوك مصر وطائفتهم وهم يدعون أنهم من أهل البيت ويصلون الجمعة والجماعة، ونصبوا القضاة، أجمع العلماء على كفرهم وردتهم وقتالهم، وأن بلادهم بلاد حرب يجب قتالهم". انتهى كلامه.

قائمة المراجع العامة

١. (**باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي - نقده لمسالك المتكلمين والفلاسفة في الإلهيات**)

محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية، ١٩٩٥م.

٢. (**الاستذكار، الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار**)

أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي ، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠م.

٣. (**الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة**)

عمر الأشقر، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.

٤. (**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**)

محمد الأمين بن محمد الشنقيطي، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٥م.

٥. (**تذكرة الموضوعات**)

محمد بن طاهر الهندي، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٥م.

٦. (**التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**)

أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي، دار الكتب العلمية، ١٩٩٩م.

٧. (**تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة**)

أبي الحسن عراق الكناني، دار الكتب العلمية، ١٩٨١م.

٨. (**التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل**)

محمد بن إسحاق بن خزيمة، الرياض، مكتبة الرشد، ١٤٠٨هـ.

٩. (**حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**)

شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، القاهرة، مكتبة مصر، ٢٠٠١م.

١٠. (**الرد على الجهمية**)

عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد أبو سعيد الدارمي، الكويت، دار ابن الأثير، ١٩٩٥م.

١١. (**شرح العقيدة الواسطية من كلام شيخ الإسلام ابن تيميه**)

خالد بن عبد الله المصلح، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، د.ت.

١٢. (**شرح العقيدة الواسطية**)

محمد الصالح بن عثيمين، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠١م.

١٣. (**شرح العقيدة الواسطية**)

محمد خليل هراس، . الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ١٩٩٢م.

١٤. (**شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري**)

عبد الله بن محمد الغنيمان، المدينة المنورة، مكتبة الدار، ١٤٠٥هـ.

١٥. (**فتح الباري شرح صحيح البخاري**)

أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.

١٦. (**عقيدة الإمام ابن عبد البر في التوحيد والإيمان**)

سليمان الغصن، (رسالة ماجستير) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، دار العاصمة

١٧. (**عقيدة السلف أصحاب الحديث**)

أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني، الرياض، دار طيبة، ١٩٩٤م.

١٨.(**العلو للعلي الغفار**)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ١٩٩٥م

١٩.(**القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**)

عبد الرحمن بن صالح المحمود، الرياض، دار الوطن، ١٤١٨هـ.

٢٠.(**كتاب العرش ويليه (تشبه الخسيس بأهل الخميس في رد التشبه بالمشركين**)

شمس الدين محمد الذهبي، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣

٢١.(**مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**)

شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، ١٩٩٣م.

٢٢. (**مختصر العلو للعلي الغفار**)

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، بيروت، المكتب الإسلامي، ١٤١٢هـ.

٢٣. (**النحو الوافي**)

عباس حسن، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠م.

٢٤.(**هذه هي الصوفية**)

عبد الرحمن الوكيل دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م.

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2008